



جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

شعر الأسر الشامية زمن الحروب الصليبية

دراسة موضوعية وفنية

إعداد
ليلى محمد سالم الشمايلة

إشراف
الدكتور شفيق الرقب

رسالة مقدمة إلى كلية الآداب

استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في قسم اللغة العربية

مؤتة، ٢٠٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

شعر الأسر الشّاميّة زمن الحروب الصّليبيّة

دراسة موضوعية وفنيّة

إعداد

ليلى محمد سالم الشمايلة

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في جامعة مؤتة،
تخصص اللغة العربية وآدابها

This thesis has been submitted in partial fulfillment of Arabic
Language the requirements for the degree of Master at Mu'tah
University

التوقيع

أعضاء لجنة المناقشة

.....

رئيساً ومشرفاً

شفيق الرقب

١. الدكتور

.....

عضواً

سمير الدروبي

٢. الأستاذ الدكتور

عضواً

زهير المنصور

٣. الدكتور

٢٠٠٢م /

/

تاريخ تقديم الرسالة :

٢٠٠٢م /

/

تاريخ مناقشة الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال العماد الأصفهاني:

إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده:
لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو
قدّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم
العبر، وهو استيلاء النقص على جملة البشر.

الأغاني

إهداء

إلى والديّ الحبيبين

إلى إخوتي وأخواتي ..

إلى زوجي منصور رفيق الدّرب الذي اعانني على

مشاقّ الدرس..

وإلى ... شمعتيّ

أسامة ورنند ..

ليلي محمد سالم الشمايلة

شكر وتقدير

أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى الدكتور شفيق الرقب الذي لم يدخر جهداً في مساعدتي وتوجيه عثراتي، فقد أفدت كثيراً من إرشاداته وآرائه وتحليلاته الدّراسيّة سواء ما كان يسديه إلى شفاها، أو ما ورد منها في كتبه وأبحاثه.

كما أتقدم بجزيل الشكر لأستاذيّ الفاضلين ، عضوي لجنة المناقشة .

أ.د سمير الدروبي .

د. زهير المنصور .

على تفضلهما بالمشاركة في قراءة هذا البحث ومناقشته سائلةً المولى عز وجل - أن يجزيهما عني خير الجزاء.

واتقدم بالشكر إلى كل من وقف إلى جانبي في هذا البحث، وأخص بالذكر الأخت غدير الشمايلة .

ولا يفوتني في هذا المقام أن أتقدم بالشكر إلى الأخ حيدر الذي طبع هذه الرسالة .

الفهرست

رقم الصفحة	اسم الموضوع	الكلمة
أ		إهداء
ب		شكر وتقدير
ج		فهرست المحتويات
د-هـ		الملخص العربي
و-ز		الملخص الانكليزي
ح-ط		المقدمة
١		الفصل الأول
١٠٢-٤		بنو منقذ .
٥		بنو تنوخ المعريون :
٣٤		• بنو سليمان .
٣٥		• بنو أبي حصين .
٤٢		• بنو المهذب .
٤٤		• بنو الحواري المعريون .
٤٥		بنو أبي جرادة
٤٨		الشهرزوريون .
٦٠		بنو أيوب .
٧٠		الفصل الثاني:
٢٥٤-١٠٣		أولاً: الاتجاه العام :
١٨٠-١٠٤		شعر الجهاد :
١٠٤		• الحث على الجهاد .
١٠٤		• تمجيد البطولات الإسلامية .
١١٠		• وصف شجاعة المقاتلين .
١١٩		

١٢٤	رثاء المدن.
١٤٢	الشعر الديني.
١٥٦	النقد الاجتماعي .
١٦١	المدح التقليدي.
١٧٤	مدح المدن
٢٥٤-١٨١	ثانياً: الاتجاه الخاص :
١٨١	الغزل .
٢٠٥	الغربة والحنين .
٢١٦	الإخوانيات .
٢٢٤	الفخر .
٢٢٨	رثاء الأهل والأقارب .
٢٣٩	الهجاء والشكوى .
٢٤٨	الشعر التأملّي.
٣٣٩-٢٥٥	الفصل الثالث:
٢٥٦	بناء القصيدة .
٢٦٧	الصورة الفنيّة.
٣٠٣	الأسلوب واللغة .
٣٤٠	الخاتمة .
٣٦١-٣٤٣	المصادر والمراجع .

مُلَخَّص

تتناول هذه الدّراسة الحديث عن " شعر الأسر الشّاميّة زمن الحروب الصّليبيّة " وهذه الأسر هي : بنو منقذ، والمعرّيون ، وبنو أبي جرادة، والقضاة الشهرزوريّون، والملوك الشعراء الأيوبيّون. وتتكون هذه الدّراسة من مقدّمة وثلاثة فصول ، وخاتمة وتتضمن المقدّمة التعريف بالبحث وأهدافه، ومنهجه والدراسات السّابقة، واهم المصادر التي استقت منها مادّة البحث. وجاءت مضامين الفصول كما يلي:

الفصل الأول: فقد خُصّص للوقوف عند التّاريخ الاجتماعي والسيّاسي لهذه الأسر، فتناولت هذه الدراسة الحديث عن أصولهم الأولى، ومكانتهم الاجتماعيّة والسيّاسية ، والصّلات التي تربط بين أفراد الأسرة الواحدة، ووقفت عند أشهر أعلام الشّعْر لكل أسرة من هذه الأسر، وبينت الدّراسة الدور الذي أضطلعت به هذه الأسر في رقد الحركة الفكرية والأدبية في بلاد الشّام زمن الحروب الصّليبيّة.

وتناول الفصل الثّاني تحليل الشعر الذي قاله شعراء تلك الأسر من الناحية المضمونية، وذلك ضمن اتجاهين كبيرين: أولهما، الاتجاه العام ثم الاتجاه الخاص وقد وقفت هذه الدّراسة في الاتجاه العام عند أبرز القضايا العامّة التي عالجها الشعراء في أشعارهم والتي كانت على ارتباط وثيق بالأحداث السائدة في تلك المرحلة .

أما الاتجاه الخاص ؛ فقد وقفت الدّراسة عند أبرز الموضوعات التي تعبر عمّا يعتل في قلوب الشعراء من المشاعر والأحاسيس في المواقف الوجدانية المتعدّدة.

أمّا الفصل الثّالث، فقد تناول الحديث عن أبرز الخصائص

الفنية التي تميّز بها شعر الأسر الشاميّة، وكشفت الدّراسة عن المستوى الفنيّ لشعر الأسر ومدى اتصاله بالموروث القديم، سواء أكان ذلك في بناء القصيدة، أو صورها الشعرية، أو لغتها وأساليبها كما وقفت الدراسة عند بعض الصور الجديدة التي تولدت من اشعار السّابقين مما أثار إعجاب معاصريّ تلك الحقبة. كما وقفت الدراسة عند بعض الزخارف البديعية التي استخدمها شعراء الأسر أمثال: الجناس ، الطباق ، والتصدير، وتناولت الدراسة الفنية الحديث عن اللغة الشعرية التي استخدمها شعراء الأسر ، وأهم أساليبها وعرضت لنماذج استخدم فيها الشعراء اللغة العامية ، والألفاظ الأعجمية، ووقفت الدراسة عند قضية تأثر الشعراء بالسابقين.

أمّا الخاتمة فقد تناولت الحديث عن أبرز النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة.

والله وليّ التوفيق

Abstract

This study deal with poetry of families of sham provinces during Crusador's Wars. Those families were Banu Mongeth, the Ma'aaris, Banu abi Jaradeh, Qudaht of Shahrzoois and the Ayyobi kings who wrote poetry .

The study consists of an introduction; three chapters and a conclusion.

The introduction includes a definition of the research in hand, its aims, the method being used, any previous studies and main resources of which the material being obtained.

Chapter One was dedicated for the social and political background of those families. It dealt with any relationships amongst the members of the same family. I referred to most outstanding poets within each family .This study showed what role those families had played to uphold the literary and intellectual movement in sham provinces at that era.

Chapter Two dealt with an analytical approach of that poetry that those families had composed; mainly content. This content indicated two dimensions: general and personal.

When dealing with the public attitudes, I referred to the most significant public issues that those poets used to write about in their poems and how such matters related closely to the prevailing events at that time. However; regarding the personal dimension, the study aimed at presenting the main topics that showed how those poets felt in different intuitional situations.

In chapter Three, I tried hard to present main technical characteristics that distinguished the poetry of Sham families.

This study revealed the technical level of this poetry, and to what range it related to inherited legacy. All that appeared in poem construction, Poetic images, its language and methods.

The study showed some of newly created images that generated from past poetry that impressed contemporary of that time. The study paused at

some rhetoric embroidery that the poets of those families used such as Pun, Antithesis, Hemistich and Decoration. The technical study stated poetic language being used, its main styles and that it provided some samples in which poets used slang language and jargons. The study showed how past poets had influenced the ones in question.

The conclusion stated the most significant results that I came to from this study.

المقدمة:

أشارت المصادر إلى العديد من الأسر الشامية التي شهّرت بقول الشعر زمن الحروب الصليبية ، وقد حفظت لنا هذه المصادر كثيراً من الأشعار التي قالها شعراء هذه الأسر أمثال : بني منقذ ، والمعرّيين، وبني أبي جرادة، والقضاة الشهرزوريين، والأيوبيين، غير أن أدب هذه الأسر وتاريخها الاجتماعي لم تُخصّص له دراسة مستقلة وافية تضمّ أشتاته، وتعالج فنونه ؛ لذا فإن هذه الدراسة سعت إلى دراسة التاريخ الاجتماعي والسياسي لهذه الأسر ، والاشارة إلى أبرز أعلام الشعر في كلّ أسرة، وبيان الدور الذي اضطلعت به في رفد الحركة الفكرية والأدبية في بلاد الشام في العصر المذكور ، وتحليل الشعر الذي قاله شعراؤها من الناحيتين : المضمونية والفنية للوقوف عند أبرز القضايا العامة والخاصة التي عالجوها في أشعارهم ، والسمات الفنية التي ميّزت ذلك الشعر

وقد ظهرت بعض الدراسات الحديثة التي عرضت لجانب من أدب بعض أشهر شعراء هذه الأسر بصورة عامة ، وأهم هذه الدراسات : " الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام " لأحمد بدوي: " الأدب في بلاد الشام ، عصور الزنكيين ، والأيوبيين والمماليك " لعمر موسى و " بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية " لعبد الجليل عبد المهدي و " الشعر في إمارة شيزر " لبهية رسلان ، وشفيق الرقب " الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس " وغيرها .

غير أن الدراسات السابقة لم تتناول الأسر بصورة مستقلة ؛ لذا فقد خصّصت هذا البحث لدراسة شعر الأسر الشامية ضمن إطار زمني

استغرق قرنين من الزمن هما القرنان السادس والسابع الهجريان ، بيد أنني لم أتقيد ببداية ونهاية زمنية على نحو حاسم وإنما على نحو مقارب، وهذا من طبيعة الدراسات الأدبية. وقد بذلت جهداً في جمع المادة وتنسيقها وترتيبها نظراً لكثرة عدد شعراء هذه الأسر ، واتساع مادة البحث، حتى أن بعض الشعراء يمكن ان يدرس أدبهم بصورة مستقلة ، لذلك اعتبر نفسي قد وضعت قدمي على أول السلم، وفتحت الطريق لمن أراد أن يتم هذه الدراسة، ويكمل ما قد يعثرها من نقص أو خطأ.

وقد احتوت هذه الدراسة على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة وتتضمن المقدمة التعريف بالبحث ، وأهدافه ، ومنهجه، والدراسات السابقة، وأهم المصادر التي استقت منها مادة البحث. وجاءت مضامين الفصول على النحو التالي:

الفصل الأول: خصص للوقوف عند التاريخ الاجتماعي والسياسي لهذه الأسر ، والصّلات التي تربط بين افراد الأسرة الواحدة .

الفصل الثاني: تناول تحليل الشعر الذي قاله شعراء تلك الأسر من الناحية المضمونية ، وذلك ضمن اتجاهين كبيرين أولهما: الاتجاه العام الذي يصور أبرز القضايا العامة التي عالجها الشعر والتي كانت على ارتباط وثيق بالأحداث السائدة في تلك المرحلة، وثانيهما: الاتجاه الخاص الذي يصور أبرز الموضوعات الخاصة التي تعبر عما يعتمل في قلوب الشعراء من المشاعر والاحاسيس.

وخصّص الفصل الثالث: لدراسة أبرز الخصائص الفنية التي تميز بها شعر الأسر وما فيه من عناصر التجديد؛ وتحليل الأدوات الفنية

التي استخدمها شعراء الأسر في أشعارهم ، وينتهي البحث بخاتمة تتناول الحديث عن أبرز النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة بشكل ملخص.

وقد أعتمدت هذه الدراسة منهجين: المنهج التاريخي الذي يقوم على ربط النص بظروفه التاريخية والاجتماعية والسياسية والفكرية لهذه الأسر في بلاد الشام ومن هنا فسيكون الاعتماد على التاريخ واضحاً في أجزاء متعددة من هذه الدراسة ، كما أفادت هذه الدراسة من المنهج الأدبي التحليلي الذي يقوم على تحليل الشعر ونقده، مضمونا وشكلاً لاستخلاص الأحكام الفنية منه.

وأفادت مادة الدراسة من مصادر متنوعة، أبرزها ، الدواوين الشعرية لبعض شعراء الأسر ، وقد بذلت الجهد في الحصول على بعض هذه الدواوين التي لم توجد في المكتبات الأردنية ، فسافرت إلى سوريا للاطلاع عليها، ومن هذه الدواوين " الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية" للملك الناصر داود.

ومن المصادر التي أفدت منها في هذه الدراسة ، " خريدة القصر وجريدة العصر " للعماد الأصفهاني، وفيه تراجم لكثير من شعراء الأسر ، و مادة شعرية وفيرة لبعض شعراء الأسر ، و : " فوات الوفيات " للكتبي وتضمن أيضاً مادة شعرية غزيرة ، " والوافي بالوفيات " للصفدي وقد أفدت منه كثيراً ، وكتاب " الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية " لابي شامة المقدسي ، و " بغية الطلب في تاريخ حلب " ، لابن العديم ، وفيه مادة غزيرة عن بعض شعراء الأسر ، وتراجم لعدد كبير من الشعراء . " والكامل في التاريخ " .

الفصل الأول

- ١ - بنو منقذ .
- ٢ - بنو تنوخ المعريون:
 - بنو سليمان
 - بنو أبي حصين .
 - بنو المذهب .
 - بنو الحواري المعريون.
- ٣ - بنو أبي جرادة .
- ٤ - الشهرزوريون.
- ٥ - بنو أيوب .

بنو منقذ:

ينتسب بنو منقذ إلى قبيلة كنانة العربية : " وهي بطن من عذرة بن زيد اللات من كلب من القحطانية،" ^(١) وقبيلة القحطانية كانت مساكنها قبل الإسلام حول مكة، وكباقي القبائل تفرقت هذه القبيلة بعد الفتح الإسلامي، فبعضها سكن العراق وبعضها سكن أعالي سوريا ومنهم بنو منقذ ^(٢) ، ومنقذ ^(٣) هو جدهم الذي اشتهرت به هذه الأسرة ^(٤) .

ويُعدّ بنو منقذ من أشهر الأسر التي حكمت في بلاد الشام زمن الحروب الصليبيّة، وقد بدأ النفوذ السياسي لهذه الأسرة ، ابتداء من سنة (٤٧٤هـ) حيث ملك الأمير أبو الحسن علي بن مقلد بن منقذ ^(٥) حصن

(١) القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ) ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، ط ٢ ، دار الكتاب المصري - القاهرة ، دار الكتاب اللبناني - بيروت ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨١م : ٤٢٦ .

(٢) جمال الدين، الألويسي، أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبيّة ، مطبعة أسعد ، بغداد، ١٩٦٧ : ٩ ، ١٠ .

(٣) هو مُنقذ بن محمد بن نصر بن هاشم بن سوار بن زياد بن رغيث بن مكحول ... آدم عليه السلام ، انظر نسب أسامة بن منقذ : العماد الأصفهاني ، محمد بن محمد (ت ٥٩٧هـ) ، خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء (الشام) ، تحقيق : شكري فيصل ، ط ١ ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م : ١/٤٩٨ .

(٤) ابن العديم ، كمال الدين عمر بن أحمد (ت ٦٦٠هـ) ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق : سهيل زكار ، دمشق ، ١٩٨٨ م : ١/١٣٥٩ .

(٥) مخلص الدولة أبو المتوج مقلد بن نصر بن منقذ الكنانيّ توفي (٤٥٠هـ) بحلب ، انظر: ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧م : ٥/٢٦٩ - ٢٧٠ .

شيزر^(١) " من الأسقف الذي كان فيه بمالٍ بذله له وأرغبه فيه إلى أن حصل في يده " ^(٢)، وقد شرع الأمير أبو الحسن في إعمار هذا الحصن وتقويته والممانعة عنه حتى صار من أقوى الحصون في بلاد الشام ، واتخذ هذا الأمير نقطة انطلاق للتوسع في المناطق المجاورة ، حتى تمكن من مد نفوذه إلى نهر العاصي^(٣)، وخلف الأمير أبا الحسن ابنه نصر بن علي بن المقلد ، أبو المرهف الكناني ، وقد حكم بعد أبيه مدة طويلة^(٤)، وهو من زهاد المسلمين ، وأهل القرآن^(٥)، وقالوا عنه: إنه كان

(١) شيزر : قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة ، انظر : ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ) ، معجم البلدان ، ط ٢ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٥ م : ٣/٣٨٢.

(٢) ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد (ت ٥٥٥هـ) ، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٩٠٨ م : ١١٣.

(٣) انظر مجموعة من المستشرقين ، دائرة المعارف الإسلامية ، أصدرها باللغة العربية: أحمد الشنتاوي وآخرون ، وزارة المعارف ، دار الفكر ، بلا تاريخ : ٤٢/١٤.

(٤) ابن عساكر ، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ) ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق : عمر بن غرامه العمروي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م : ٣٦/٦٢؛ انظر : ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن (ت ٦٣٠هـ) ، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، تحقيق : عبد القادر طليمات ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ومكتبة المثنى - بغداد ، ١٩٣٢ : ١١٠؛ أبو شامة ، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسي (ت ٦٦٥هـ) ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق : إبراهيم الزبيق ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ م : ٣٥٣/١ ؛ أبو الفداء ، عماد الدين اسماعيل (ت ٧٣٢هـ) ، تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر ، تحقيق محمود ديب ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٧ م : ١٠/٢.

(٥) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٣٦/٦٢.

دينياً ، عابداً خيراً ، سمحاً ، كريماً ، فارساً ، شاعراً^(١). وقد أشرف على تربية إخوته بعد والده وأحسن إليهم^(٢)، وفي عهده سنة (٤٧٩هـ) قدم إلى بلاد الشام ملكشاة^(٣)، فأرسل إليه الأمير نصر بن علي بالطاعة ، وسلم إليه اللاذقية^(٤)، وأفامية^(٥)، وكفر طاب^(٦)، وبقيت شيزر له^(٧)، توفي أبو المرفف في شيزر.

في جمادى الآخرة سنة (٤٩١هـ)^(٨)، وحين أدركته الوفاة عن غير عقب أوصى بالإمارة من بعده لمرشد بن علي فأباها؛ ولعله لم يشأ

(١) الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ) ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، حوادث وفيات (٤٩١-٥٠٠هـ) ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، ط ١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م : ١٠٩ .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٣٦/٦٢ ؛ الذهبي ، تاريخ الإسلام : ١٠٩ ؛ انظر ابن تغري بردي ، أبو المحاسن جمال الدين الأتباكي (ت ٨٧٤هـ) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، قدم له وعلق عليه : محمد حسين شمس الدين ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٣-١٩٩٢ : ١٦١/٥ .

(٣) أبو الفتح ملكشاة بن ألب أرسلان الملقب بجلال الدولة انظر ترجمته ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٢٨٣/٥ .

(٤) اللاذقية : مدينة في ساحل بحر الشام من أعمال حمص ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٥/٥ .

(٥) أفامية : مدينة حصينة من سواحل الشام ، انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٢٢٧/١ .

(٦) كفر طاب : بلدة بين المعرة ومدينة حلب انظر المصدر السابق : ٤٧٠/٤ .

(٧) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر : ١١/٢ .

(٨) الذهبي ، تاريخ الإسلام حوادث وفيات (٤٩١-٥٠٠هـ) : ١٠٩ ؛ انظر ، النجوم الزاهرة : ١٦١/٥ .

أن يغير نمط حياته بتبعات الرئاسة وأعباء الملك^(١). ولد مرشد بن علي بحلب^(٢) سنة (٤٦٠هـ) ولقب بمجد الدين^(٣)، ونشأ بشيزر وتلقى علومه فيها، وقرأ فتنقف على شيوخ عصره، وذكر ولده أسامة أن والده تأدب علي يد أبي الحسن التنوخي^(٤)، وحفظ القرآن وقرأ العربية على يد الشيخ أبي تراب حيدرة^(٥)، وروى عن سالم ابن هبة الله المعري^(٦) شيئاً من شعره ، وكانت تربطه علاقة مودة وصداقة بكثير من العلماء والأدباء والشعراء الذين يفدون على أسرته في شيزر يمدحونهم ويستترفدونهم ومنهم أبو عبد الله الطليطلي^(٧)، الذي نسخ لمرشد ختمتين^(٨).

(١) أسامة بن منقذ (٤٨٨-٥٨٤هـ) ، المنازل والديار ، تحقيق : مصطفى حجازي ، ط٢ ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م : ٣٥ .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٢١٥/٥٧ .

(٣) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٥٥٨/١ .

(٤) إبراهيم بن عبد الرحمن بن جعفر التنوخي ، من أهل معرة النعمان ، كان شاعراً ، أدبياً ، فاضلاً (ت٥٠٣هـ) بشيزر ، الصفي ، صلاح الدين خليل بن ابيك (ت٧٦٤هـ) ، الوافي بالوفيات ، ط٢ ، باعتناء س.ديدرينغ ، فرانز شتاينز ، فيسبادن ، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م : ٤٥/٦ ، ٤٦ .

(٥) الرئيس أبو تراب حيدرة بن قطر متر ، كان يرافق الأمير مرشد أثناء رحلاته للصيد ، أسامة ابن منقذ (ت ٥٨٤هـ) ؛ الاعتبار ، تحقيق : فيليب حتي ، مطبعة جامعة برنستون ، ١٩٣٠م : ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٦) أبو المجد الهاشمي الحارثي الحلبي ، ولد بحلب ، وكانت له حرمة عند ملوكها (ت٥١٢هـ) ، ابن العديم ، بغية الطلب : ٤١٧٢/٩ .

(٧) الشيخ النحوي أبو عبد الله الطليطلي ، متولى دار العلم بطرابلس ، أقام مدة بشيزر ثم انتقل الى مصر ، أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ٢٦٧ .

(٨) أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ٢٦٧ .

وتبدو النزعة الدينية قوية لدى الأمير مرشد فقد كان كثير الصوم ، حافظاً للقرآن، حسن التلاوة له^(١)، وهذا ما أكده أسامة حيث وصفه " صائم الدهر، مواظبٌ على تلاوة القرآن " ^(٢) .

وتتميز الأمير مرشد، بشدة البأس، والقوة ، والشجاعة ، والنجدة في الحروب^(٣)، وذكر ولده أسامة أنه " كثير المباشرة للحرب ، وفي بدنه جراح هائلة " ^(٤)، ولم يكن الأمير مرشد رجل حرب فحسب إنما تعلق بهواية الصيد، وشُغف بها ، وكان له بشيزر متصيدان متصيد للجل والأرانب في الجبل قبلي البلد، ومتصيد لطير الماء والدراج^(٥)، وكان يصطحب معه أولاده الأربعة حينما يخرج للصيد . ويقول لهم : كل من عليه قراءة يقرأها ، حتى يصير إلى مكان الصيد يستدعيهم ويسألهم كم قرأ كل واحدٍ منهم^(٦) .

وقد حرص الأمير مرشد بن علي على أن يقيم علاقة حسنة مع أخيه أبي العساكر سلطان؛ إذ " اصطحبا أجمل صحبة مدّة من الزمان " ^(٧) كانا خلالها يشتركان معاً في قتال الفرنج، ويخرجان للصيد ويصف ذلك أسامة قائلاً: " وكانا رحمهما الله من أشجع قومهما ، ولقد شهدتهما يوماً

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٢١٥/٥٧ .

(٢) أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ٢٤٧ .

(٣) ابن الجوزي ، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي (ت ٦٥٤هـ) ، مرآة

الزمان في تاريخ الأعيان ، وقائع سنة (٤٩٥-٥٨٩) ، ط١ ، مجلس دائرة المعارف

العثمانية ، حيدر آباد ، الدكن ، الهند ، ١٣٧٠-١٩٥١ : ق١ ج٨/١٦٢-١٦٣ .

(٤) أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ٦٦ .

(٥) أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ١٦١ ، ٢٥٥ .

(٦) المصدر نفسه : ٢٥٧-٢٥٨ .

(٧) ابن الأثير ، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل : ١١٠ .

وقد خرجا إلى الصيد " (١) بيد أن الوفاق بين الأخوين لم يدم ؛ إذ تغير أبو العساكر سلطان بن علي صاحب شيزر على أولاد أخيه مرشد ابن علي، ذلك أنه " رزق أولاداً صغاراً فصار كلما رأى صغره ورأى أولاد أخيه قد سدّوا مكان أبيهم تضاعف الحسد " (٢) .

وقد أشارت المصادر إلى دوره في مجال العلوم ولا سيّما الدينية ؛ إذ استطاع هذا الأمير أن ينسخ عدداً من الختمات التي بلغ عددها ثلاث وأربعون ومنها ختمة كبيرة جعلها لعلوم القرآن وقراءاته عُرِفَتْ بِـ (التفسير الكبير) وله ختمة أخرى بالذهب مجردة من التفسير (٣)، وقد وصف السّمّعاني (٤) إحدى ختماته قائلاً : " ما رأيت ولا أظن أن الرائيين رأوا مثله ، فقد جمع إلى فضائله حُسْن خطّه ، وتقدم بحسن تدبيره على رهطه " (٥)، وجاء في مرآة الزمان أنه كتب بخطه سبعين مصحفاً ، وكان عالماً بفنون العلوم الأخرى إذ كانت " له يد طائلة في علم العربية ،

(١) أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ٧١ .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٢١٦/٥٧ .

(٣) أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ٦٨ .

(٤) السّمّعاني : أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت ٥٦٢هـ) ، العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار أحياء التراث العربي ، بيروت : ٢٠٥/٤ .

(٥) ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ) ، معجم الأدياء ، تحقيق : إحسان عباس ، ط ١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٣ م : ٥٨٦/٢ .

والكتابة والشعر " (١)، وتوفي بشيزر يوم الإثنين من شهر رمضان سنة (٥٣١هـ) (٢).

ومن أعلام بني منقذ ، أبو العساكر، تاج الدولة ، سلطان بن علي (٣) ولد بطرابلس (٤) سنة (٤٦٤هـ) (٥) ، وتلقى ثقافته الأولى بشيزر (٦) ، فسمع صحيح البخاري من الفقيه أبي السّمح إبراهيم الحنفي (٧) ، وكانت له مشاركة في العلوم الأدبية والدينية ، إذ كان شاعراً ، فاضلاً ، راوياً للحديث (٨) وليّ شيزر بعد موت أخيه الأكبر نصر بن علي سنة (٤٩١هـ) وتنازل أخوه مرشد بن علي عن الإمارة (٩) ، وقد أظهر الأمير

-
- (١) ابن الجوزي ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان : ق ١ ج ٨ / ١٦٢-١٦٣ .
(٢) انظر خبر وفاته ؛ ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٢١٩/٥٧ ؛ ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ق ١ ج ١ : ١٦٣ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، : ٢٥٣/٥ .
(٣) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، هذبه : عبد القادر بدران ، ط ٢ ، دار التراث العربي ، بيروت ، لبنان ١٩٧٩ م : ١٨٩/٦ ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٢٩٧ / ١٥ .
(٤) طرابلس ، يقال أطرابلس ، تقع على شاطئ البحر ، عليها سور جليل ، وبها أسواق حافلة انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٢٥/٤ .
(٥) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٣٦٩/٢١ ؛ تهذيب تاريخ دمشق : ١٨٩/٦ .
(٦) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، باعتناء ، بيرنداتكة ، فرانز شتاينز ، فيسبادن ١٩٧٩ : ٢٩٧/١٥ .
(٧) إبراهيم بن عبد الله بن جعفر ، أبو السّمع التتوخيّ المَعري ، انظر : محي الدين القرشي (ت ٧٧٥ هـ) ، الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، ط ٢ ، هجر ، مصر ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م : ٨٧/١ .
(٨) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق : ١٨٩ / ٦ ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٢٩٧/١٥ .
(٩) انظر أبا شامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين : ٣٥٣/١ ؛ ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٣٦٩/٢١ ؛ ابن الأثير ، التاريخ الباهر : ١١٠ .

سلطان بن علي حنكة ساسية في إدارة شؤون شيزر والحفاظ عليها
" فكان في حكم الكهول وشجاعة الشبان " (١).

ويبدو أن شيزر في عهد أميرها سلطان بن علي حظيت بنوع من
الطمأنينة لم تشهده المناطق المجاورة لها في بلاد الشام؛ إذ شرع الأمير
سلطان في تحصينها وعمارتها ، وقد شهد له بذلك الأعداء ومنهم
(روجار) (٢) صاحب أنطاكية (٣) الذي شهد له قبل أن يعرفه فقال :
"لأنني رأيت البلاد التي مشيت فيها خربة وبلدك عامر ، فعرفت أنك ما
عمرتّه إلا بعقلك وسياستك " (٤)، ولا يعني هذا أن شيزر كانت واحة أمن
وسلام إذ كانت عرضة لغزوات متتابعة من الإسماعيلية ، ومن الإفرنج
الصلبيين والروم البيزنطيين ، ومن أمثلة ذلك ما حدث لها سنة
(٥٠٢هـ) حينما هاجمها الباطنية أثناء غياب الأمراء عنها ، وتمكنوا من
الإستيلاء على قلعتها ، إلا أن أمراء بني منقذ أدركوهم وقاتلوهم بالسيف،
فلم يسلم أحد منهم (٥) وعلى المستوى الخارجي ؛ فقد تعرضت شيزر ،
كغيرها من البلاد الإسلامية للعدوان الصليبي؛ ولعل الموقع الإستراتيجي

(١) الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٢٩٨/١٥.

(٢) روجار : ابن اخت تانكرد الذي رشحه ليكون وريثاً له في الحكم واتخذ لقب أمير ،
رنسمان ، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية ، مملكة بيت المقدس ، دار الثقافة ،
بيروت، ١٩٩٧م : م ٢، ق ١/٢٠٤، ٢٠٣.

(٣) أنطاكية : هي من الثغور الشامية ، وهي من أعيان البلاد وأمهااتها ، موصوفة بالنزاهة
والحسن بينها وبين حلب مسيرة يوم وليلة ، انظر، ياقوت الحموي ، معجم البلدان :
٢٦٦/١، ٢٦٧.

(٤) أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ١١٣.

(٥) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر : ٤٣/٢ ، ابن الوردي ، زين الدين عمر بن
مظفر (ت ٧٤٩هـ) ، تاريخ ابن الوردي ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،
١٤١٧هـ - ١٩٩٦ : ١٩/٢.

لقلعة شيزر وتوسطها البلاد جعلها هدفاً رئيسياً لهجمات الفرنجة في المراحل الأولى من الغزو الصليبي، فتتابعت غارات الفرنجة عليها في عهد أميرها سلطان ، وكان مرةً يبذل لهم الأموال ويصالحهم ، وأخرى يجاهددهم ويحاربهم ومن أمثله ذلك ما حدث سنة (٥٠٣هـ) حينما خرج طنكري^(١) صاحب أنطاكية إلى شيزر " وقرر عليها عشرة آلاف دينار مقاطعة تحمل إليه بعد أن عاث في عملها " ^(٢)، ثم سنة (٥٠٤هـ) حينما ملك الفرنج صيدا ^(٣) بالأمان، ثم ساروا نحو الأثارب ^(٤) وملكوها بالسيف ، فعظم خوف المسلمين منهم فشرع أصحاب البلاد الإسلامية بالشام في الهدنة معهم ، فصالحوهم على أموال تبذل لهم ومنهم صاحب شيزر الذي صالحهم على أربعة آلاف دينار ^(٥)، وفي سنة (٥٠٥هـ) بعث الأمير سلطان إلى أمراء المسلمين ^(٦) يعلمهم بنزول الفرنجة أرضه، ويستصرخهم للوصول إلى جهته وإقناعهم بضرورة الجهاد والوقوف

(١) تانكرد : ابن اخت يوهيمند الأول ، من أبرز قادة الحملة الصليبية الأولى ، ابن العديم، بغية الطلب، حاشية رقم ٤ : ١٦٦٤/٨ .

(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٦٧ .

(٣) صيداء : مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي صور بينهما ستة فراسخ : ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٤٣٧/٣ .

(٤) الأثارب ، قلعة معروفة بين حلب وإنطاكية ، وتحت جبلها قرية تسمى باسمها فيقال لها الأثارب . ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٨٩/١ .

(٥) ابن الأثير ، عز الدين علي أبي الكرم الجزري (ت ٦٣٠هـ) ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩م ، : ٤٨١/١٠ ، ٤٨٢ ؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر : ٤٤/٢ .

(٦) منهم الأمير قطب الدين سكران القطبي من بلاد أرمينية وديار بكر ، وشرف الدين مودود صاحب الموصل ، والأمير أحمدل ، انظر حول ذلك ، ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٧٤ .

صفاً واحداً أمام هجمات الغزاة، فوصلوا إليه في النصف من محرّم سنة (٥٠٥هـ) فقام على خدمتهم حتّى ضيقوا على الفرنج ومنعوا عنهم الماء فرحلوا عنها^(١)، كما تعرضت شيزر في عهد أميرها سلطان للخطر من قبل الروم الذين هاجموها سنة (٥٣٢هـ)^(٢)، ووصف ابن القلانسي هذا الحدث قائلاً "وردت الأخبار من ناحية الشمال بنزول ملك الروم في عسكره على شيزر محاصراً لها ومضايقاً عليها ونصب عليها عدة من المناجيق، واشتدت الحرب بينه وبين أهلها وقتل فيها جماعة من المسلمين"^(٣) وقد استنجد سلطان بن علي أمير شيزر بعماد الدين زنكي^(٤) الذي ماتوانى لحظة عن الجهاد، وجاء إليه ، واستطاع بدهاء وحنكة أن يقوم بعملية تضليل لملك الروم؛ إذ أوهمه بخوف فرنجة الشام منه ، في حين كان يرسل إلى فرنج الشام يخوفهم ملك الروم ، حتّى توجسّ الروم فرحلوا عن شيزر بعد حصار دام أربعة وعشرين يوماً^(٥) .

(١) انظر حول هذه الواقعة ، ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٧٤ .

(٢) أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ٢ ؛ انظر ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ٢١٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل : ٥٧/١١ ؛ التاريخ الباهر : ٥٥ ؛ ابن العديم ، كمال الدين عمر بن أحمد (ت ٦٦٠هـ) ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق : سامي الدّهان ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، ١٩٦٨م : ٦٣١/٢ .

(٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ٢٦٤ .

(٤) عماد الدين زنكي بن آق سنقر ، كان صارماً حازماً شجاعاً ، حسن السياسة ، قتل سنة (٥٤١هـ) انظر ، ابن واصل ، محمد بن سالم (ت ٦٦٧هـ) ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق : جمال الدين الشّيال ، القاهرة ، ١٣٧٢-١٩٥٣ : ٩٩/١ ، ١٠٠ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل : ٥٧/١١ .

توفي الأمير سلطان بن علي يوم السبت للنصف من شوال سنة (٥٤٣هـ) بشيزر^(١) .

وخلف بعده ابنه الأمير تاج الدولة ناصر الدين محمد بن سلطان^(٢)، وكان آخر الأمراء المنقذيين^(٣) الذين ولوا شيزر؛ إذ تعرضت البلاد أثناء حكمه سنة (٥٥٢هـ) لزلزل قوية ضربت البلاد ، وكان أشدها بحمأة وحصن شيزر^(٤)؛ الذي انقلب على صاحبه ، وأهله ، وكانوا مجتمعين في داره للاحتفال بختان ولده^(٥)؛ وبعد هلاكهم وجد نور الدين زنكي الفرصة ملائمة للاستيلاء على شيزر، فوجّه جيشه إليها ، وتمكّن من دخولها سنة (٥٥٣هـ) ، وشرع في إعمار " أسوارها ودورها وأعادها جديدة"^(٦).

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٣٧٠/٢١ .

(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين : ٣٥٧/١؛ ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ٣٤٤ .

(٣) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، المقدمة .

(٤) انظر أمر هذه الزلازل ، ابن الأثير ، التاريخ الباهر : ١١٠؛ الكامل : ٢٢١/١١؛ ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب : ٣٠٦/٢؛ مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب : ١٢٨/١؛ أبي الفداء ، المختصر في أخبار البشر : ١٠٢/٢-١٠٣؛ ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي : ٥٦-٥٧؛ المقرئ ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) ، اتعاظ الحنفاء ، تحقيق : محمد حلمي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية مصر : ٢٣١/٣؛ ابن سباط الغزي ، حمزة بن أحمد (ت ٩٢٦هـ) ، تاريخ ابن سباط المسمى صدق الأخبار ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، ط ١ ، جروس برس ، طرابلس ، لبنان ، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م : ١٠٤-١٠٥ .

(٥) انظر ابن العديم ، زبدة الحلب : ٣٠٦/٢؛ ابن الأثير ، الكامل : ٢٢١/١١؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر : ١٠٣/٢ .

(٦) ابن الأثير ، الكامل : ٢٢١/١١ .

ومن أعلام بني منقذ الأمير أبو الحسن ، عز الدولة ، علي ابن مرشد^(١) ولد بشيرز سنة (٤٨٧هـ) ^(٢) ونشأ بها ، عني والده بتعليمه وتنقيفه هو وإخوته فسمع عليه^(٣) وارتحل سنة (٥٢٠هـ) لأداء فريضة الحج، ودخل بغداد^(٤) ، وسمع الحديث بها على يد علمائها ، أمثال : أبو بكر محمد بن عبد الباقي، وأبو القاسم السمرقندي ، ودخل الأمير علي دمشق أكثر من مرة ، وسمع بها أبا العساكر وأخذ عنه كتاب (دلائل النبوة)، وكتاب (الجهاد) لابن المبارك ^(٥) ، كان الأمير علي ابن مرشد أكبر إخوته، وقد حظي بتقدير أهله وقومه فوصفه العماد الأصفهاني أنه " كان سيد بني منقذ ، وكبيرهم ، ذو بأس مرءٍ ، وندىً مُتقد" ^(٦)، وذكر أسامة بن مرشد أن أخاه كان من علماء المسلمين وفرسانهم وعُبادهم^(٧)، كما كان أديباً ، فاضلاً ، حسن الخط^(٨) ، وقد نوّهت المصادر بشاعريته فوصفت شعره بأنه " كالشعري علوًّ ، ونثره

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (الشّام) : ٥٤٨/١ .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٤٣ / ٢٣٨ .

(٣) انظر : أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ٢٥٧-٢٥٨ .

(٤) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشّام) : ٥٤٩/١ .

(٥) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٤٣ / ٢٣٨ .

(٦) العماد الأصفهاني ، الخريدة (الشّام) : ٥٤٨/١ .

(٧) أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ٢٢ .

(٨) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ٢٨٩/٥ .

كالنثرة سموّ" ^(١)، كما كان فارساً ، مجاهدا يقاتل للدين لا للدنيا، استشهد على عسقلان ^(٢)(٣) سنة (٥٤٥هـ) وقيل (٥٤٦هـ) ^(٤) .

وكان عدد من رجال بني منقذ خارج شيزر عندما ضربها الزلزال، ومن هؤلاء الأمير إسماعيل بن سلطان ، شرف الدولة ، أبو الفضل ^(٥)، ولد ونشأ بشيزر ، وبعد موت أبيه نشأ في كنف أخيه تاج الدولة ^(٦)، وكان محباً للعلم ، فاضلاً ، أديباً ، شاعراً ^(٧) ، وبعد أن ضربت الزلازل شيزر وما حولها سنة (٥٥٢هـ) رجع إليها وعين ما فعلته الزلازل بها ^(٨) فلم يحتمل الإقامة فيها ، فانتقل إلى دمشق وبقي بها الى أن مات سنة (٥٦١هـ) ^(٩).

(١) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم الشام) : ٥٤٩/١ .

(٢) عَسْقَلَانُ : مدينة بالشَّام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ويقال لها عروس الشَّام ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ١٢٢/٤ .

(٣) أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ٢٠ ، ٢٢ .

(٤) ياقوت الحموي ، معجم الأديباء : ٥٨٣/٢ .

(٥) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشَّام) : ٥٦٤/١ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب : ١٦٤٠/٤ .

(٦) ابن العديم ، بغية الطلب : ١٦٤٠/٤ .

(٧) الصفدي، الوافي بالوفيات، باعتناء يوسف فان إس فيسبادن، ١٤١١هـ — ١٩٩١م : ١١٨/٩ .

(٨) ابن العديم ، بغية الطلب : ١٦٤٠/٤ ؛ زبدة الحلب : ٣٠٧/٢ ، الكتبي ، محمد بن شاعر (ت ٧٦٤هـ)، فوات الوفيات ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣م : ١٧٨/١ .

(٩) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشَّام) : ٥٦٤/١ .

ومنهم أيضاً حميد بن مالك بن مغيث بن نصر بن منقذ ، أبو الغنائم الملقب بمكين الدولة^(١)، ولد بشيزر ، في التاسع من جمادى الآخرة سنة (٤٩١هـ) ونشأ بها على العلم والأدب ، فحفظ القرآن في مدة قريبة، وكان أديباً، شاعراً، فارساً ، قوياً^(٢)، فيه شجاعة وعفاف ، انتقل إلى دمشق وسكنها ، وكتب في العسكر^(٣)، توفي ليلة النصف من شعبان سنة (٥٦٤هـ) بحلب وهذا في أكثر الروايات^(٤) .

ومنهم الأمير بهاء الدولة منقذ بن مرشد بن علي أبو المغيث الكناني، ولد بشيزر سنة (٤٩٤هـ) ، ونشأ بها^(٥) . ويبدو أنه كان على درجة عالية من الثقافة ؛ فقد ذكر أن له كتاباً في التاريخ ؛ ذيل به على تاريخ أبي غالب همام بن المهذب المعري^(٦) وعلى الرغم من أن شهرته لم تصل لمرتبة أخيه أسامة إلا أن أبا عبد الله محمد بن المحسن السلمي يجعل ثقافته وفصاحته صنواً لثقافة أخيه أسامة وفصاحته فقال : " وأخوه الأمير بهاء الدولة نظيره في الفصاحة والفضل والصباحة والعقل

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٢٩٩/١٥ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب : ٢٩٧٥/٦ .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٢٩٩/١٥ ، ٣٠٠ ؛ ياقوت الحموي ، معجم الأدباء : ٥٨٨/٢ .

(٤) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق : ٤٦٧/٤ ؛ ياقوت الحموي ، معجم الأدباء : ٥٨٨/٢ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب : ٢٩٧٥/٦ .

(٥) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٣٦٢/٦٠ .

(٦) إحسان عباس ، شذرات من كتب مفقودة ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٨م : ١١٣ .

والشجاعة والبذل فهما إذا برزا كأنهما صقران قد حطّا إلى وكر وكذلك جميع إخوتهما " (١) .

ويبدو أنّ علاقته مع أخيه أسامة كانت قوية ، يذكر أسامة أنّه كان يرافقه في رحلات صيده وصد الغزاة عن شيزر (٢) ، توفي سنة (٥٧٣هـ) (٣) .

أما أشهر أعلام بني منقذ ، فهو الأمير أبو المظفر ، مؤيد الدولة أسامة بن مرشد (٤) ، الذي سُهر بنسبته إلى جدّه أكثر من نسبته إلى أبيه مرشد (٥) ، فعرف بأسامة بن منقذ ، ولد بشيزر في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة (٤٨٨هـ) (٦) ، وعكف الشاعر منذ نعومة أظفاره لدرس مختلف مجالات العلوم ؛ حفظ القرآن (٧) ، ودرس الحديث ، وأخذ علوم العربية من النحو واللغة والأدب ، وكان يحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من الشعر القديم (٨) ، وتلقى أسامة علومه على يد شيوخ العلم

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٣٦٣/٦٠ .

(٢) انظر حول ذلك ، أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٦ .

(٣) القرشي ، الجواهر المضيئة حاشية رقم ٤ : ٨٧/١ .

(٤) انظر نسبه كاملاً ، العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٤٩٨/١ .

(٥) محمّد قيطاز ، أسامة بن منقذ والجديد من آثاره ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٨م : ١١ .

(٦) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٤٩٩/١ ؛ المنذري ، زكي الدين أبو

محمد عبد العظيم (٥٨١-٦٥٦هـ) ، التكملة لوفيات النقلة ، تحقيق : بشار معروف ،

ط ٣ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م : ٩٥/١ .

(٧) انظر : أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ٢٥٨ .

(٨) ابن العديم ، بغية الطلب : ١٣٥٩/٣ .

في عصره، نذكر منهم : أبا عبد الله الطلطي الذي درس على يديه النحو، وتأدب على يد أبي عبد الله بن المنيرة الكفرطابي^(١)، وسمع الحديث مع الشيخ أبي الحسن علي السنّيسي ، وابنه كامل بن علي، ومن الخطيب يحيى بن سلامه الحصكفي^(٢)، وأبي القاسم الدوّلي^(٣)، وغيرهم^(٤)، فتضلّع في الأدب ، والكتابة ، والنظم ، واللغة^(٥).

ونوّه العماد الأصفهاني بتميزه في مجال الأدب والعلم فقال : إنه " كان في شبابه أديب الأمراء " ^(٦)، وفي موضع آخر أشاد العماد برفعة قدره في الأدب فقال: " أسامة كأسمه، في قوة نثره ونظمه، يلوح من كلامه أمارّة الإمارة ، ويؤسس بيت قريضه عمارّة العبارة، نُشر له علمُ العلم، ورقّي سلّم السلم، .. " ^(٧).

(١) هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن علي توفي سنة (٥٥٣هـ) ، العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٥٧٣/١.

(٢) انظر ؛ أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ٢٦٧، ١٠٩.

(٣) أبو الفضل، هو يحيى بن سلامة بن الحسين بن محمد ، معين الدين (ت ٥٥١هـ) وقيل (ت ٥٥٣هـ)؛ انظر ترجمته ، العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٤٧١/٢، ٥٦١/١.

(٤) جمال الدين خطيب جامع دمشق ، وهو منسوب إلى الدولعية قرية على باب الموصل، ابن واصل ، مفرّج الكروب : ٤٥/٥.

(٥) انظر حول ذلك ، ابن العديم ، بغية الطلب : ١٣٦٠/٣.

(٦) الصابوني ، جمال الدين أبي حامد محمد (ت ٦٨٠هـ) ، كتاب تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب ، ط ١ ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٦ م : ٢٨٦.

(٧) العماد الأصفهاني ، البرق الشامي ، تحقيق : مصطفى الحيارى ، ط ١، عمان ، الأردن ، ١٩٨٧ م : ١٠٤/٣.

(٨) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٤٩٨ / ١.

لم يكن أسامة شاعراً وكاتباً فحسب ، إنما كان بطلاً من أبطال الحروب الصليبية رُبي على الفروسية والشجاعة ، فشارك أهله في صد الغزاة عن بلاده وهو ابن الخامسة عشر وذلك سنة (٥١٣هـ) ^(١).

وقد حظي أسامة برعاية عمه صاحب شيزر ، وبقي في كنفه ورعايته حتى رُزق العم بالأولاد بعد أن تقدّمت به السن ، مما أثار مخاوفه اتجاه أولاد أخيه ولأسيما أسامة ؛ إذ خشى أن تؤول الإمارة إليه، فتغيّر عليه ^(٢)، ونفاه سنة (٥٢٥هـ) من شيزر ^(٣)، فتوجه إلى الموصل وانضوى تحت لواء عماد الدين زنكي وحارب تحت قيادته ^(٤)، واشترك في عدد من المصافات على تكريت ^(٥) وبغداد وآمد ^(٦) ^(٧)، وما أن سمع بالخطر الذي تعرضت له شيزر بلده من قبل الروم الذين هاجموها سنة (٥٣٢هـ) حتى عاد مسرعاً إليها وشارك في الدفاع عنها ^(٨)، غير أن شجاعته وقوّته في الدفاع عن شيزر لم تشفع له عند عمه سلطان الذي

(١) أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ٥١ .

(٢) انظر : ابن الأثير ، الكامل في التاريخ : ٢٣٠/١١ .

(٣) أسامة بن منقذ: الاعتبار ، المقدمة ، ح.

(٤) أحمد بدوي ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، ط ٢ ، دار النهضة ، مصر ، القاهرة، ١٩٧٩م : ١٧٢ .

(٥) تكريت : بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، لها قلعة حصينة ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٣٨/٢ .

(٦) آمد : هي من مُدن ديار بكر ، بلدٌ قديم حصين ، ياقوت الحموي، معجم البلدان : ٥٦/١ .

(٧) محمد قيطاز ، أسامة بن منقذ : ١٦ .

(٨) أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ٣٠٢ .

عادت إليه مخاوفه القديمة فجاهره بالعداوة ، وأخرجه من شيزر نهائياً مع إخوته^(١)، فتوجه الى دمشق ، وأقام في كنف وزيرها معين الدين أنر^(٢)، الذي قرّبه ، وأجزل له العطية والإقطاع ثم تغير عليه ، فتوجه إلى مصر في جمادى الآخرة سنة (٥٣٩هـ) في عهد الخليفة لدين الله الذي وجد عنده الاحترام والتقدير والإنعام المتواصل والاقطاع^(٣).

واشترك أثناء إقامته بمصر في الحملة على عسقلان سنة (٥٤٤هـ)^(٤)، وشهد أسامة في مصر اضطراباً سياسياً وفتناً على الخلافة لم يسلم منها^(٥)، مما اضطره إلى الرحيل إلى دمشق ، وأثناء سفره واجه العديد من المخاطر والأهوال أبرزها هجوم قبائل العرب عليه ومن معه، وعجزه عن حمل أهله معه فردّهم إلى مصر وهجوم جموع الإفرنج عليهم ، وقد استطاعوا أسر نجم الدولة محمد أخي أسامة^(٦)، وبعد وصوله دمشق سنة (٥٤٩هـ) اتصل بخدمة الملك العادل فأكرمه وأرسل في طلب أهله وأولاده من مصر بعد أن أخذ لهم الأمان من الفرنج، لكنهم غدروا بأهله ونهبوا المركب الذي يقلهم ، وأخذوا ما فيه

(١) ابن الأثير ، الكامل : ٢٣٠/١١ .

(٢) أنر بن عبد الله مملوك طغتكين ، وهو أتابك أبق بن محمد بن يوري صاحب دمشق (ت ٥٤٤هـ)، انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٢٩٧/١ ، ١٨٤/٥ .

(٣) أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ٤ ، ٥ ، ٦ .

(٤) أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ٢١ .

(٥) المصدر نفسه : ٢٥-٢٧؛ المقرئزي ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) ، المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي ، ط ١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩١م : ٤١، ٤٢/٢ .

(٦) انظر حول ذلك ، الاعتبار : ٣٢-٣٥ .

من الأموال والنفائس من الكتب الفاخرة التي بلغ عددها أربعة آلاف مجلد^(١)، والتي كان فقدانها غصة في قلبه^(٢)، ولعل أعظم ما واجه أسامة من النكبات والمصائب كانت سنة (٥٥٢هـ) حينما توالى إليه الأخبار عن الزلازل في بلاد الشام والتي أودت بجميع أهله وآل منقذ ، فأدمت فؤاده ، وبكى حتى غاضت بوارد الدموع^(٣) ، ورثى قومه بقصائد ذكرت في ديوانه ، وتحت وطأة النكبات والاحزان يلوذ الشاعر بالإيمان فيتوجه إلى الله بقلب مؤمن صابر لإداء فريضة الحج سنة (٥٥٥هـ)^(٤)، وبعد هذا التاريخ بعامين اشترك أسامة مع نور الدين زنكي في حصار قلعة حارم^{(٥)(٦)}.

ولم يُذكر لأسامة مشاركة في القتال بعد ذلك ، ولعل حزنه على أهله أضعف قواه ، وخاصة بعد أن تقدّمت به السن ، ويبدو أنه أثر العزلة والابتعاد بعد أن أحسّ بعجزه عن خدمة أولي الأمر ، وعبر أسامة عن ذلك قائلاً : " أعجزني وهن السنين ، عن خدمة السلاطين ، فهجرت مغشى أبوابهم ، وقطعت أسبابي من أسبابهم واستقلت من خدمتهم ... " ^(٧).

(١) أسامة بن منقذ، الاعتبار : ٤٣-٤٥.

(٢) انظر المصدر نفسه : ٤٥.

(٣) أسامة بن منقذ ، المنازل والديار : ٤.

(٤) انظر حول ذلك : ابن الأثير ، الكامل ٢٨٥/١١؛ ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ط ١ : ق ١ ج ٨/٢٤١.

(٥) حارم : حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية ، ياقوت : معجم البلدان : ٢/٢٠٥.

(٦) ابن الأثير ، الكامل : ٢٨٥/١١.

(٧) أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ١١٣.

فغادر الأمير أسامة البلاد متوجهاً إلى حصن كيفا^(١) سنة (٥٦٠هـ—)، ويفند أحد المحدثين سبب عزلة أسامة في حصن كيفا مخالفاً بذلك ما صورته الأقدمون ويذهب إلى أنّ عزلته كانت لدوافع سياسية سببها خلافه مع نور الدين ، الذي رفض مشروع الوحدة بين مصر والشّام لإنقاذ بيت المقدس وكان أسامة هو المفاوض له باسم القيادة المصرية^(٢).

بقي أسامة في حصن كيفا مشغلاً بالأدب^(٣)، حتى قامت دولة الأيوبيين فاستدعاه الملك الناصر صلاح الدين سنة (٥٧٠هـ—) فقطع عزلته وعاد إلى دمشق فأكرمه الملك الناصر وأجزل له العطاء^(٤) وبقي فيها إلى أن توفي في الثالث والعشرين من رمضان سنة (٥٨٤هـ—) ودفن بجبل قاسيون^(٥).

ترك أسامة خلال حياته الحافلة بالتجارب مصنفات هامة في مختلف مجالات العلوم الأدبية ، في التراجم ، وفنون الأدب : الشعر ،

(١) حصن كيفا : وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٢/٢٦٥.

(٢) عمر موسى باشا ، الأدب في بلاد الشّام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ، ط١، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م : ٢٧٧، ٢٧٨.

(٣) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ط٢ ، ترجمة يعقوب بكر ، رمضان عبد التواب ، دار المعارف : ٢٢/٦.

(٤) أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ٢١٣.

(٥) انظر خبر وفاته ، المنذري ، التكملة : ٩٥/١؛ ابن خلكان ، وفیات الأعيان : ١٩٩/١؛ اليافعي ، محمد بن عبد الله بن اسعد بن علي (ت ٧٦٨هـ) ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، وضع حواشيه خليل منصور، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م : ٣/٣٢٣؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب : ٤/٢٧٩.

النقد، البلاغة واللغة ، وقد احصى بعض المؤرخين القدامى والمحدثين مؤلفاته منهم: المقرئزي وقد ذكر له (٣٤) مصنفاً^(١) ، في حين جعلها أحد المحدثين أحمد شاكر في مقدمة لباب الآداب (١٨) مصنفاً^(٢)، كما أحصى أحمد قدرى الكيلاني له (٢٠) مصنفاً^(٣)، وتمكن محمد قيطاز من إحصاء (٤٢) كتاباً ذكرت في بطون المصادر، وأشهر هذه المصنفات كتاب (الاعتبار) وقد اشارت إحدى الدراسات إلى أهمية هذا الكتاب ، وذكرت أن الكتاب جاء بصورة مذكرات وقد برز فيها الشاعر " سيداً من سادات العرب " كما أشارت إلى أن الكتاب يتضمن خلاصة تجارب أسامة وختمت حديثها عن الكتاب قائلة " كان لهذا الكتاب أهمية بالغة القيمة في تطور العلاقات بين المسلمين والإفرنج ، لفترة تقرب من مائة عام " ^(٤).

ومن آثاره المطبوعة أيضاً كتابه (المنازل والديار) وذكر في مقدمته الباعث لتأليف هذا الكتاب ، ومنها أيضاً كتابه (العصا) و (لباب الآداب) الذي جمع فيه الكثير من الأقوال ، والأخبار ، والأشعار وكتاب (البديع في نقد الشعر) وقد جمع فيه مختلف أنواع البديع في

(١) انظر حول ذلك المقرئزي ، المقفى الكبير : ٤٨/٢ ، ٤٩ .

(٢) انظر أسامة بن منقذ ، لباب الآداب ، تحقيق : أحمد شاكر ، ط ١ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١١هـ - ١٩٩١ م : ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) انظر ، أحمد قدرى الكيلاني ، أسامة بن منقذ سيرة حياته ، قرأه وكتب مقدمته ، عبد الرزاق كيلاني، ط ١ ، المطبعة العلمية ، دمشق ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧ م : ٧٣-٧٧ .

(٤) يسري عبد الغنى عبد الله ، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١١هـ - ١٩٩٧ : ٣٨ ، ٣٩ .

كتب العلماء المتقدمين ، حتى بلغت (٩٥) نوعاً^(١)، وله ديوان شعر ذكره ابن خلكان^(٢).

ومن أعلام بني منقذ ، المبارك بن كامل بن مُقلد بن علي الكناني ، سيف الدولة أبو الميمون ، المُلقب بمجد الدين ، ولد بشيزر سنة (٥٢٦هـ)، سمع الحديث من أبي حفص الميانشي ، وحدث^(٣) عُرف بفضلهِ وعلمهِ وحُسن سياستهِ فذكر العماد إنه " من الكُفاة الكرماء، والدُّهاة ذوي الآراء. وهو فاضل من أهل بيت فضل "^(٤)، وكان من أمراء الدولة الصلاحية ، إذ وُلّي أمر الدواوين فيها^(٥)، وتوجه إلى زبيد^(٦) تحت إمرة شمس الدولة توران شاة^(٧)، فلما ملكها شمس الدولة قرب إليه المبارك وجعله نائباً له ، ولعل المقام بزبيد لم يرق له فاستأذن بالعودة

(١) انظر ، أسامة بن منقذ ، المنازل والديار ، المقدمة ، ٥٠-٥٢.

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ١/١٩٦.

(٣) ابن المستوفي ، شرف الدين أبي البركات المبارك بن أحمد (ت ٦٣٧هـ)، تاريخ إربل المسمى نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأمائل ، تحقيق : سامي الصّقار ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، العراق ١٩٨٠م : ٢/٦٧٤ ؛ المنذري ، التكملة : ١/١٩٠.

(٤) أبو شامة المقدسي ، الروضتين : ٢/٢٧٥.

(٥) انظر ، المنذري ، التكملة : ١/١٩٠.

(٦) زبيد : هي مدينة مشهورة باليمن ، ياقوت ، معجم البلدان ، ٣/١٣١.

(٧) شمس الدولة الملك المعظم ، توران شاة بن أيوب بن شاذي بن مروان الملقب فخر الدين أخو السلطان صلاح الدين ، وكان أكبر منه ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ١/٣٠٦.

إلى مصر فأذن له، وأتاب مكانه أخوه حطان بن كامل^(١) ، ويبدو أنه أصبح من المقربين في مجلس السلطان فكثروا عليه وسعوا به عنده ، وقيل له : إنه استولى على أموال البلاد التي ناب بها و " إن لم تدركه فات " ^(٢) فاعتقل وحُبس سنة (٥٧٧هـ) إلى أن أدرك السلطان المؤامرة، ضده فأطلقه من الحبس، وأعادته إلى منزلته معزراً مكرماً ، وزاد في إقطاعه^(٣) ، وتوفي في الثامن من شهر رمضان سنة (٥٨٩هـ) ^(٤) .

ومن هؤلاء عبد الرحمن بن محمد بن مرشد ، شمس الدولة ، أبو الحارث وأبو الحسين ، ولد بشيزر يوم الأحد سابع شهر رمضان سنة (٥٢٣هـ) وتوفي سنة (٦٠٠هـ) ^(٥) ، سمع بالاسكندرية من الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد الأصبهاني ، وبفاس من أبي الحسن علي بن محمد ابن فرحون القيسي القرطبي ، وكان أديباً ، شاعراً ، " صاحب نشر رائق، ونظم فائق " ^(٦) ، وهو من أمراء الدولة الصلاحية ؛ إذ اختاره السلطان صلاح الدين ليكون رسوله إلى المغرب عند حصار عكا^(٧) .

(١) أمير شجاع ولد بشيزر وخدم الملك الناصر توفي (٥٧٩هـ) ؛ ابن العديم ، بغية الطلب : ٢٨٤٢/٦ ، وانظر حول ذلك ، اليامي ، محمد بن حاتم ، السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن ، بيروت ، ١٩٧٤م : ١٥-٤٢ .

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ٩٣/٣ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل : ٤٧١/١١ ؛ أبو شامة ، الروضتين : ٩٣/٣ .

(٤) المنذري ، التكملة ، ١٩٠/١ .

(٥) المقرئزي ، المقفى الكبير : ٩٦/٤ .

(٦) المنذري ، التكملة : ٥٢/٢ .

(٧) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ١٩٠/٤ ؛ المنذري ، التكملة : ٥٢/٢ .

ومنهم الأمير مُرْهَف بن أسامة بن مرشد ، عَضُد الدَّولة ، أبو الفوارس ، ولد بشيزر سنة (٥٢٠هـ) ، وسمع من أبيه مؤيد الدولة أسامة وغيره^(١)، وكان كوالده ، شاعراً ، مليح المحاضرة ، جمع الكثير من الكتب^(٢)، حتى أنه باع منها أربعة آلاف مجلدٍ في نكبة لحقته فلم يؤثر فيها^(٣)، نوّه بفضله العماد الأصفهاني قائلاً : " ذو المجد الأثير ، والفخر الأثيل، والبيت الأصيل"^(٤).

ويعدُّ مُرْهَفاً أحد أمراء الدولة بمصر^(٥)، حظي بتقدير واحترام ملوك بني أيّوب ولا سيّما صلاح الدين الذي قرّبه إليه ، وكان مرهف يجالسه ويناديه ويروي له شعر أبيه^(٦)، واقطعه الملك الناصر صلاح الدين ضياعاً بمصر ، كما حظي بالتقدير والاحترام عند الملك العادل^(٧) ، وذكر ياقوت الحموي أنه التقاه بالقاهرة ونوّه بفضائله ووصفه بأنه " شيخٌ طريف ، واسع الخلق، شائع الكرم ، جمّاعة للكتب "^(٨) عُمّر حتى صار

(١) الذهبي ، تاريخ الإسلام حوادث (٦١١-٦٢٠) الطبقة (٦٣) : ١٦٥ .

(٢) المصدر نفسه : ١٦٥ ؛ الكتبي ، فوات الوفيات : ١٢٤/٤ .

(٣) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء : ٥٩٣/٢ .

(٤) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشّام) : ٥٧١/١ .

(٥) الكتبي ، فوات الوفيات : ١٢٤/٤ .

(٦) العماد الأصفهاني ، الخريدة (الشّام) : ٤٩٩/١ .

(٧) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء : ٥٩٣/٢ .

(٨) المصدر نفسه : ٥٩٣/٢ .

" لا يقدر على الحركة إلا أنه ظلّ صحيح العقل والذهن والفتنة والبصر" ^(١) ، توفي في ثاني صفر (٦١٣هـ) بالقاهرة ^(٢) .

ومنهم إسماعيل بن المبارك بن كامل، أبو الطاهر الكناني الشيزري جمال الدين ، ولد في العشرين من رجب سنة (٥٦٩هـ) ، سمع من الحافظ أبي طاهر الأصفهاني ، ومن والده سيف الدولة المبارك وكان كثير تلاوة القرآن ، وله أدب وشعر ^(٣) ، قيل عنه إنه : " أميرٌ كاملٌ ، وكبيرٌ فاضلٌ " ^(٤) ، لم يقتصر نشاط إسماعيل بن المبارك على العلم والشعر إنما شمل السياسة وكان من رجالها في الدولتين العادلية والكاملية، وأسند إليه أهم المناصب وأرفعها فترسّل إلى الملوك ، فقد أوكل إليه الملك الكامل مهمة السفارة؛ فأرسله رسولاً إلى الفرنج وهم بثغر دمياط ^(٥) ^(٦) ، كما أرسله رسولاً إلى الغرب " فأبان عن نهضة وكفاية ، وحسن سفارة لما كان جامعاً له من حسن صورة وسيرة ،

(١) ياقوت الحموي ، معجم الادباء : ٥٩٣/٢ .

(٢) أبو شامة المقدسي ، شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ) ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ، عني بنشره عزت الحسيني ، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م : ٩٣ .

(٣) المنذري ، التكملة : ٢٥٠/٣ .

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب : ١٨٠٤/٤ .

(٥) دمياط : مدينة قديمة بين تنيس ومصر ، وهي ثغر من ثغور الإسلام (ياقوت : ٤٧٢/٢) .

(٦) انظر المنذري ، التكملة : ٢٥٠/٣ .

وعذوبة لفظ ، وسداد عبارة ، وولاية مدينة حرّان وجمع له بين الولاية والإمارة " (١) .

كان لهذه الأسرة دورٌ واضحاً في مجالات العلوم المختلفة، ولا سيّما ما يتعلق بالأدب والشعر ؛ إذ كان جُلّ أمراء هذه الأسرة ، أدباء ، شعراء " ولشعرهم حظ من الأصالة والجزالة ندر أن يجتمع في أفراد أسرة واحدة " (٢) وقد نوّهت المصادر بهذه الأسرة وأشادت بدورها في الحركة الأدبية في بلاد الشّام فوصفتهم بأنهم : " كانوا من أهل بيت المجد والحسب ، والفضل والأدب .. أمّا الأدب فهم شموعُ المشرقة ، ورياضه المونقة ، وحياضه المغدقة ، وأمّا النظم فهم فرسان ميدانه ، وشُجّعان فرسانه وأرواح جُثمّانه " (٣) ، وفي موضع آخر أشاد العماد بهم " وكلهم من الأجواد الأمجاد ، وما فيهم إلّا ذو فضل، وبذل وإحسان وعدل، وما منهم إلّا من له نظمٌ مطبوع ، وشعرٌ مصنوع ، ومن له قصيدة وله مقطوع.." (٤)، وعزز ابن الاثير ما قيل عنهم ، فقال : " كانوا معدن العلم والشعر والفتوة " (٥) .

كما حرص بنو منقذ على تنقيف أنفسهم ، فسعوا لتحصيل الكتب واقتنائها وعُرف عن مرهف بن أسامة أنّه جمع أعداداً كبيرة من الكتب ، واضطر لبيع أربعة آلاف منها، فلم يؤثر ذلك فيها (٦)، وكان لهذه الأسرة

(١) ابن العديم، بغية الطلب: ١٨٠٧/٤.

(٢) إحسان عباس ، شذرات من كتب مفقوده في التاريخ : ١١٣ .

(٣) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشّام) : ٤٩٧/١ .

(٤) أبو شامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين : ٤٣٢/٢ - ٤٣٣ .

(٥) ابن الاثير، عز الدين أبو الحسن علي (ت ٦٣٠هـ) ، اللباب في تهذيب الأنساب ، دار

صادر ، بيروت، ١٩٨٠م : ٢٢٥/٢ .

(٦) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء : ٥٩٣/٢ .

تصانيف عديدة في مختلف مجالات العلوم الأدبية والدينية وقد أطلعنا أسامة بن منقذ خلال تصانيفه على بعضها فهذا والده مرشد قد نسخ أكثر من أربعين ختمة من كتاب الله بخطه وله (التفسير الكبير) الذي أورد فيه علوم القرآن وقرآته وغريبة وناسخة ومنسوخه وتفسيره وسبب نزوله وفقهه ^(١)، وهذا علي بن مرشد من علماء المسلمين ^(٢)، وكتب الحديث بخطه ^(٣) .

كما عُني بنو منقذ بتدوين التاريخ في فترة الحروب الصليبية وجاء كتاب الاعتبار من أهم المصادر التاريخية وأوثقها لتلك الفترة ^(٤)، وقيل أيضاً إن لأخيه منقذ بن مرشد كتاباً في التاريخ ذيل به على تاريخ أبي غالب همام بن المذهب المعري ^(٥).

كما شهدت شيزر حركة علمية واسعة في عهد بني منقذ ؛ إذ اتجه الكثير من الشعراء والأدباء إليها يمدحون أمراءها ويسترفدونهم ويقيمون في جنابهم ومن هؤلاء الوافدين إليها سالم بن هبة الله بن علي ابن المبارك ^(٦) ، وقد كانت تربطه علاقة مودة وصداقة بسديد الملك وأبناءه ، وقد مدح سديد الملك في شعره ومما قاله فيه ^(٧) :-

(١) أسامة بن منقذ ، الاعتبار : ٢٥٥ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٢ .

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٣٩/٤٣ .

(٤) الكيلاني ، أحمد قدرى ، أسامة بن منقذ سيرة حياته : ٧١ .

(٥) إحسان عباس ، شذرات من كتب مفقودة : ١١٣ ؛ القرشي ، الجواهر المضئية ،

حاشية رقم ٤ تشير انه نقل من هذا الكتاب : ٨٧/١

(٦) أبو المجد الهاشمي الحارثي الحلبي توفي (٥١٢هـ) ، ابن العديم ، بغية الطلب :

٤١٧٢/٩-٤١٧ .

(٧) نفسه ، ابن العديم ، بغية الطلب : ٤١٧٣/٩ ، ٤١٧٤ .

يا من حماة من النوائب مؤئلي وعليه إن جَارَ الزمانُ مُعَوّلي
ومعيدُ أيامي الذواهب بعدما هرمتُ تَبَخَّرَ في الشبابِ المقبلِ

ومن الوافدين على أمراء بني منقذ ، سالم بن عبد الجبار
المعري^(١) ، وكانت تربطه بهم علاقات مودة ، فمدح أمير شيزر نصر
بن علي^(٢) :-

أبا المرهف الباني من المجد منزلاً منيفاً له طنّب على النجم ممدودُ
ومن بات للعافين من جود كفه خضم ندى عذب المشارب مورودُ
لقد ضيم إلا في جنابك قاطن وأغورَ إلا من أناملك الجودُ

ومن الوافدين على بني منقذ مجد العرب العامري^(٣) الذي نعم
بقربهم وحظى برفدهم فقال : " أقمت في جنابهم مدة ، واتخذتهم في
الخطوب جنةً وللأمور عُدّة ، ولم ألق في جوارهم جوراً ولا شدة " ^(٤) .

ومنهم أيضاً ابن منير الطرابلسي^(٥) الذي أقام في جوار صاحبها
سلطان ابن علي، وقد ذكر ابنه أن والده سلطان بن علي عمل طستاً من
فضة فعمل ابن منير أبياتاً عليه منها^(٦) :

(١) أبو المعالي التتوخي المعري سالم (ت ٥١٢هـ) ، ابن العديم ، بغية الطلب :
٤١٤٦/٩ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب : ٤١٤٨/٩ ، ٤١٤٩ .

(٣) الأمير مصطفى الدولة أبو فراس علي بن محمد بن غالب العامري ، العماد
الأصفهاني ، الخريدة (قسم العراق) ، تحقيق : محمد الأثري ، المجمع العلمي
العراقي ، ١٩٦٤م : ١٤١/٢ .

(٤) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء : ٥٨٧/٢ .

(٥) أحمد بن منير بن مفلح أبو الحسين الطرابلسي (٤٧٣-٥٤٨) ، ابن عساكر ، تهذيب
دمشق : ١٠٠/٢ .

(٦) نفسه ، ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق : ١٠١/٢ ، ١٠٢ .

أيا صنو مائدةٍ لأكرمٍ مُطعمٍ مأهولة الأرجاء بالأضيافِ
جمعت أياديهِ إلى أيادي الـ آلافٍ بعدَ البذلِ لآلافِ
ومنَ العجائبِ راحتي من راحةٍ معروفةٍ المعروفِ بالإتلافِ

ولعل ما حضت به شيزر في عهد بني منقذ من الأمن والاستقرار
بفضل حصانة موقعها وسياسة رجالها وتعطشهم للعلم وتشجيعهم للعلماء
جعلت بلادهم محط انظار الشعراء والأدباء الذين وفدوا عليها من كل
حذب وصوب فكانوا " كعبة العلماء والأدباء والشعراء، ومأوى القصَّاد
وذوى الحاجات من أطراف البلاد، وكان لهم فيهم مدائح دَوَّنَتْها التواريخ،
وخلَّدَتْها الدَّوَائِين " (١).

(١) الكيلاني ، أحمد قدری ، أسامة بن منقذ ، سيرة حياته : ٣٢ .

بنو تنوخ المعريون :

ترتد أصول قبائل تنوخ إلى فهم بن تيم اللات بن أسد بن وبرة ابن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة بن مالك من قبائل اليمن ، وهذا في أكثر الروايات وأشهرها^(١) . وذهبت روايات أخرى إلى أن أصلهم يرتد لعدة قبائل اجتمعت قديماً بالبحرين ، وتحالفوا فسموا (تنوخ)^(٢) " لأنهم حلفوا على المقام بالشام " ^(٣) بعد أن أقطعهم ملك الروم هذه البلاد ، وأقاموا أول أمرهم في مكان واحد .

ثم تمكنوا من الحصول على العديد من الإقطاعات في بلاد الشام، تركزت بأرض معرة النعمان^(٤) وقنسرين^(٥) إلى أرض حمص ، فبنوا

(١) ابن العديم ، كمال الدين عمر بن أحمد (ت ٦٦١هـ) ، الإنصاف والتحري ، في كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء ، جمع وتحقيق: مصطفى السقا وآخرون ، ط ٣ ، دار الكتب العلمية ، مصر ، ١٩٨٦ م : ٤٨٦ ، ٤٨٧ ؛ انظر ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) ، تاريخ ابن خلدون ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت ، ١٩٧٩ م : ٢٤٧/٢ ، ٢٤٨ .

(٢) ابن الأثير ، اللباب في تهذيب الأنساب : ٢٢٥/٩ ؛ محي الدين القرشي ، الجواهر المضئية : ١٦٥/٤ .

(٣) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ط ٣ ، مكتبة النوري ، دمشق ، ١٩٨٣ م : ٢٢/١ .

(٤) معرة النعمان : تنسب إلى النعمان بن بشير ، وهي مدينة كبيرة من أعمال حمص بين حلب وحماة، ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ١٥٦/٥ .

(٥) قنسرين : مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص ، انظر حول تسميتها : ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٤٠٤/٤ .

خيامهم ومنازلهم بأرض قنسرين ، ثم نزلت جماعة منهم إلى معرّة النعمان . ومنهم النعمان ابن عديّ الملقب بالساطع لجماله وحسنه^(١).

وقد تناقضت الآراء حول ما إذا كانت معرّة النعمان منسوبة إلى النعمان هذا؛ لأن عامة أهلها من ولده ، ويذهب ابن العديم إلى خطأ هذا الرأي^(٢) ولعل استقرارهم بالمعرّة نسبهم إليها حتى عرفوا بالمعريين ، وقد تفرع آل تنوخ إلى عدّة أسر شاميّة تميزت بالعلم والفضل والرياسة ، وقد وصفهم ابن العديم قائلاً : " وما من بطن من هذه البطون إلا وقد خرج منها جماعة من العلماء والأدباء والشعراء والمحدثين " ^(٣) .

وسأقف هنا عند من اشتهر بقول الشعر ، وتحديدًا أولئك الذين هم من ولد النعمان بن عديّ (الساطع) الذين استقروا في بلاد الشام زمن الحروب الصليبيّة.

بنو سليمان :

تميز أفراد هذا البطن الذي هو من ولد (الساطع) بالعلم والفضل والأدب إلى جانب تولي أفراده القضاء في وقتٍ مبكرٍ يعود لسنة (٢٩٠هـ) ، وأوّل من وليه منهم سليمان بن أحمد أبو الحسن^(٤) ويبدو أنّ هذا البيت استطاع أن يحافظ على تولي هذا المنصب ، ولعل علمهم

(١) ابن العديم، بغية الطلب: ٥٦٥/١.

(٢) المصدر نفسه: ٥٦٢/١.

(٣) المصدر نفسه : ٥٦٥/١.

(٤) ابن العديم ، الإنصاف والتحري : ٤٨٩ ، ٤٩٠ .

وأدبهم أهلهم لذلك؛ فهم من أصحاب "البيت القديم، والمجد الصّميم" (١)
استمر القضاء بهذا البيت حتّى وصل إلى القاضي أبي المجد محمد بن
عبد الله (٢)، والعقب الموجود من هذا البيت له .

ومن أشهر أعلام هذا البيت أبو المجد (الثاني) محمد بن عبد الله
المعروف بـ (مجد القضاة)، ولد بمعرة النعمان ليلة الجمعة في خامس
شهر ربيع الآخر سنة (٤٤٠هـ) وتوفي في محرم سنة (٥٢٣هـ) وهو
حفيد أبي المجد الأول، روى عن أبيه عبد الله ، كما أدرك عم أبيه
الشاعر المعروف بأبي العلاء المعري (٣)، وقرأ عليه أشعاره ومصنّفاتة ،
فنشأ (مجد القضاة) على العلم والأدب وكان فاضلاً أديباً، له ديوان
شعر، ورسائل (٤)، كما كان راوياً للحديث فقيهاً على مذهب الشافعي (٥) ،
مما أهله لتولي القضاء في بلده ، غير أنّ هجوم الغزاة على المعرة سنة
(٤٩٢هـ) حمله على الرحيل ، فمضى إلى شيزر ، وأقام بها مدّة ، ثم
انتقل إلى حماه وأقام بها إلى أن مات (٦) .

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشّام) : ٢/٢ .

(٢) هو أبو المجد (الأول) كان فاضلاً ، اديباً ، شاعراً ، له ديوان شعر توفي سنة
(٤٣٠هـ)، انظر ابن العديم ، الإنصاف والتحري : ٤٩٥ ، ٤٩٦ .

(٣) هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان .. من ولد الساطع ، انظر ترجمته، ابن
العديم، الإنصاف والتحري : ٤٨٦ ، ٥١١ .

(٤) العماد الأصفهاني ، الخريدة (الشّام) : ٨/٢ .

(٥) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء : ١١٠/٣ .

(٦) العماد الأصفهاني ، الخريدة : ٨/٢ .

ومن أعلام هذا البيت ابن القاضي أبي المجد ويدعى عبد الله بن محمد أبو محمد التتوخي المعري^(١)، ولد بمعرّة النعمان يوم الأربعاء التاسع عشر من جمادي الآخرة سنة (٤٧٧هـ) وتوفي في حياة والده سنة (٥١٦هـ)^(٢) وكان قد سافر إلى مصر تاركاً وراءه ابنيه : أبي الفضائل عبد الكريم ، وتقي الدين أبي اليسر في كنف جدهما أبي المجد محمد بحماة، وقد أشرف الجد على تربيتهم^(٣)، وقد أقام عبد الله المعري عند الملك الأفضل^(٤) بمصر مُكرماً^(٥) ثم قدم دمشق سنة (٥١٤هـ)^(٦) لكنه سرعان ما عاد إلى مصر وتوفي فيها وله شعر^(٧).

ومن أعلام بني سليمان ، أبو عديّ النعمان بن واذع وهو ابن الرئيس شرف القضاة أبو مسلم واذع^(٨) ، ولد أبو عديّ بمعرّة النعمان

(١) الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٥٨٥/١٧.

(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الانصاري (ت ٧١١هـ) ، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: سكيّنة الشهابي ، ط ١، دار الفكر، دمشق ، ١٩٨٩م : ٢٩١/١٣.

(٣) ابن العديم ، الإنصاف و التحري : ٥٠٣.

(٤) الملك الأفضل، هو شاهنشاه أبو القاسم ابن أمير الجيوش بدر الجمالي قتل سنة (٥١٥هـ) انظر ترجمته ، الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٩٢/١٦.

(٥) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشّام) : ٣٣/٢.

(٦) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٢٣٢/٣٢.

(٧) ابن العديم الإنصاف والتحري : ٥٠٢.

(٨) أبو مسلم واذع ، هو ابن القاضي أبو محمد عبد الله بن محمد ، الأخ الأكبر لأبي المجد محمد ، كان رئيس المعرة وكبيرها ، كان عالماً ، أديباً فاضلاً ، له رسائل حسنة ، وديوان شعر (ت ٤٨٩هـ) . ابن العديم ، الإنصاف والتحري : ٤٩٩ ، ٥٠٠ .

وروى عنه ابن عمه شاعر بن عبد الله^(١) ، وذكر العماد أنه " معروف بالشعر " (٢) .

ومن أعلامهم القاضي أبو اليسر شاعر بن عبد الله بن محمد ابن أبي المجد..^(٣) المنعوت بـ الرئيس أبو اليسر التتوخي المعري الدمشقي^(٤) ولد (بشيزر) في جمادى الآخرة سنة (٤٩٦ هـ)^(٥) نشأ هو وأخوه عبد الكريم أبو الفضائل في كنف جدهما القاضي (مجد القضاة) نشأة حسنة^(٦) . ويبدو أن اسمه لمع في ميدان الأدب ، إذ نوهت المصادر بفضله ووصف بأنه " أديب " ، فاضل " ، جليل " ، ذكي " ، شاعر " (٧) كانت له " مقاصد حسنة في الكتب " (٨) ، ولّى ديوان الإنشاء سنين كثيرة أيام زنكي ، واستمر به أيام ولده نور الدين محمود إلى أن استعفى منه ، وقعد في بيته^(٩) ولعل ميل نور الدين للعماد الكاتب بالإضافة لكبر سنّه جعلت

(١) ابن العديم ، الإنصاف والتحري : ٥٠٠ .

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٤١/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٥/٢ .

(٤) ابن شاعر الكتبي ، فوات الوفيات : ٩٦/٢ .

(٥) العماد الأصفهاني ، الخريدة (الشام) : ٣٦/٢ .

(٦) ابن العديم ، الإنصاف والتحري : ٥٠٣ .

(٧) الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٨٦/١٦ .

(٨) العماد الأصفهاني ، الخريدة : ٣٧/٢ .

(٩) ابن العديم ، الإنصاف والتحري : ٥٠٥ .

نور الدين زنكي يعفيه من الديوان ليخالد إلى الراحة والتصنيف ، توفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة (٥٣١هـ) بدمشق^(١) .

وقد أنجب القاضي أبو اليسر شاکر أولاداً قالوا الشعر ، منهم : أبو البركات محمد ، ولد بحلب في ذي الحجة سنة (٥٤٥هـ) وذكر له العماد بيتين من الشعر^(٢)، وسليمان بن شاکر ، ولد بدمشق سنة (٥٥٠هـ) وذكر له العماد مقطوعة شعرية واحدة^(٣) ، ومنهم أبو العلاء أحمد بن شاکر ، ولد سنة (٥٥٤هـ) وقيل (٥٥٥هـ) وتوفي بمعرفة النعمان سنة (٦٣٨هـ)^(٤)، ومنهم ولده الأصغر أبو إسحاق إبراهيم ابن شاکر، الفقيه الخطيب^(٥) ولد بدمشق سنة (٥٦٥هـ) وتوفي بها في منتصف محرم يوم الأحد سنة (٦٣٠هـ)^(٦) وتفقه بالمذهب الشافعي ، سمع من أبيه شاکر ، ومن أبي اليُمن الكندي^(٧) ، وأبي حفص ابن

(١) ابن العديم ، الإنصاف والتحري : ٥٠٥ .

(٢) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم الشام) : ٣٨/٢؛ ابن العديم، الإنصاف والتحري : ٥٠٥ ، ٥٠٦ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٨/٢ .

(٤) ابن العديم ، الإنصاف والتحري : ٥٠٦ .

(٥) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، الطبقة (٦٣) : ٣٥٥ .

(٦) ابن العديم ، الإنصاف والتحري : ٥٠٧ .

(٧) أبي اليُمن الكندي ، هو زيد بن الحسن بن زيد الكندي (ت ٦١٣هـ) انظر ترجمته، بغية الطلب : ٤٠٠٢/٩ .

طبرزد^(١) ، وأسامة بن مرشد وغيرهم^(٢) وليّ القضاء بمعرّة النعمان وهو صغير السن^(٣) ، وولي منصب الخطابة بالمصلى وترسل بين الملوك ؛ إذ أرسله الملك العادل رسولاً إلى حلب والموصل^(٤) .

ومنهم تقي الدين إسماعيل بن إبراهيم بن شاكر ، مسند الشام أبو محمد التنوخي المعري^(٥) ، ولد في سنة (٥٨٩هـ) وتوفي يوم الأحد السادس والعشرين من صفر سنة (٦٧٢هـ)^(٦) ، واشتغل بالعلم على يد شيوخ عصره فسمع من والده إبراهيم ومن أبي زيد الكندي ، وأبي القاسم الحرستاني ، وأبي حفص بن طبرزد وغيرهم^(٧) .

كما حدّث بدمشق ومصر وغيرهما ، وتميز في كتابة الإنشاء والنظم ، وكان فاضلاً نبيلاً^(٨) فتبوأ عدّة مناصب في الدولة ، فولي كتابة

(١) أبو حفص ، هو عمر بن محمد بن معمر بن يحيى ، المعروف بأبي حفص ابن طبرزد البغدادي ، توفي سنة (٦٠٧هـ) انظر ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٤٥٢/٣ .

(٢) المنذري ، التكملة : ٣٢٩/٤ .

(٣) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، الطبقة (٦٣) : ٣٥٥ .

(٤) ابن العديم ، الإنصاف والتحري : ٥٠٦ .

(٥) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، الطبقة (٦٣) : ٣٥٥ .

(٦) ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن (٨٧٤هـ) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق: محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ، ١٩٨٤م : ٣٨٣/٢ .

(٧) اليونيني ، قطب الدين (٧٢٦هـ) ، ذيل مرآة الزمان ، حيدر آباد ، الهند ، ١٩٦٠م : ٣٨/٣ ، ٤٥ .

(٨) ابن العديم ، بغية الطلب : ١٦٠٨/٤ .

الإنشاء للملك الناصر صلاح الدين داود كما أسند إليه المهمات الكبيرة
فسفر من السفارة إلى مصر^(١) ، وولى نظر المارستان النوري ، ومشیخة
تربة أم الصالح ومشیخة الزاوية بدار الحديث والأشرفية^(٢) .

ومنهم أيضاً مدرك بن سليمان بن علي ، أبو سهل كان أديباً
شاعراً ، أنجب عدة أولاد وكانوا جميعاً ممن قالوا الشعر^(٣) ، ومنهم أبو
المعالي صاعد بن مدرك ، ولد ونشأ بشيزر وحماة وتوفي بمعرّة النعمان
وكان شاعراً أديباً^(٤) ، وأخوه عبد الرحمن بن مدرك أبو سهل التتوخي
المعري ولد ونشأ بشيزر^(٥) ، وصحب عمه القاضي أبا محمد عبد الله إلى
مصر ثم عاد إلى دمشق ومنها مضى إلى بلدة المعرة^(٦) ، توفي سنة
(٥٥٣هـ) في الزلزلة التي كانت بحماة ، فهلك تحت الردم^(٧) .

(١) ابن العديم ، بغية الطلب : ١٦٠٨/٤ .

(٢) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي : ٣٨٤/٢ .

(٣) ابن العديم ، الإنصاف والتحري : ٥٠٨ .

(٤) ابن العديم ، الإنصاف والتحري : ٥٠٨ .

(٥) المصدر نفسه : ٥٠٨ .

(٦) المقرئزي ، المقفى الكبير : ٩٩/٤ .

(٧) ابن العديم ، الإنصاف والتحري : ٥٠٨ ؛ انظر ، الصفدي ، الوافي بالوفيات :

٢٦٥/١٨ ، ٢٦٦ .

بنو أبي حصين:

من أهل معرّة النعمان ، وأبو حصين الذي عُرف به هذا البيت هو عبد الله ابن المُحَسَّن بن عبد الله بن محمد ... (١).

وقد نوّهت المصادر بفضل هذا البيت وأهميته وأشادت بدوره في الحركة الأدبية فوصفه ابن العديم بأنه بيت القضاء والعلم والرواية (٢) ، كما ذكر السمعاني أفراد هذا البيت مادحاً فقال : " وأكثرهم كانوا فضلاء علماء " (٣) وأشاد بهم العماد الأصفهاني قائلاً : " فمنهم الكبير السيّد ، والشاعر المجود " (٤) .

غير أنّ هذه المصادر التي أجمعت على أهميّة هذا البيت وأشادت به وبغيره من بيوت المعرّة الأخرى في فترة الحروب الصليبيّة لم تسعفنا بمعلومات شافية عنهم، ولا سيما أعلام الشعر والتي جاء الحديث عنها بشكل سريع ومقتضب ولعل ذلك يعود الى ضياع الكثير من المصادر والشعر في الفترة المذكورة ، ولا سيما بعد هجوم الغزاة على المعرّة مما أجبر كثير من ابناء هذا البيت المعرّي وغيره من البيوت الأخرى على ترك البلاد والسفر مما أدّى إلى ضياع كثير من أدبهم وشعرهم .

(١) ابن العديم ، بغية الطلب : ٥٦٥/١ ، ٤٤٢٦/١٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٤١٥٠/٩ .

(٣) السمعاني ، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت ٥٦٢هـ) ، الأنساب ، تحقيق : عبد الرحمن اليماني ، الناشر : محمد أمين ، ط٢ ، بيروت ، لبنان ، الفجر العربي ، ١٩٨٠م : ٩٠/٣ .

(٤) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٥٧/٢ .

ومن أعلام هذه الأسرة القاضي أبو يعلى عبد الباقي ابن أبي حصين^(١) ، كان شاعراً ، مجوّداً في شعره وقد مدحه العماد الأصفهاني وأشاد بشعره ، وقضى له بالتقدم على بيته في جودة الشعر فوصف شعره : " حسن السبك ، متسق السلك ، متفنن في ضروب الشعر ومعرفة صناعته ، ويكاد يقطر ماء اللطافة من شعره " ^(٢) ، وذكر ابن العديم أنه وقع له ديوان شعر القاضي أبي يعلى^(٣) .

ومنهم عبد الغالب بن أبي حصين ، أبو سعد ، كان شاعراً كثير الشعر قصده الشعراء لفضله فكانوا يستجدونه ويمدحونه . وقد تعرض لنيله شاعرٌ فمدحه قائلاً^(٤) :

يا منشدي شعراً يخبر أنه	يُبدِي قديمَ مفاخري ومآثري
لو زرتني آنأك ^(٥) كاره باطني	عني كما أدناك رونقُ ناظري
وجهلّتي فقدمتني وقرينة الـ	حرمان كدية ^(٦) شاعرٍ من شاعرٍ

(١) العماد الأصفهاني، الخريدة : ٥٨/٢؛ انظر الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٢١/١٨ .

(٢) المصدر نفسه ، (قسم الشام) : ٥٨/٢ .

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب : ٤٤٦٣/١٠ .

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب : ٤٤٦٠/١٠ .

(٥) أنأك : أي أبعدك .

(٦) الكدية : شدة الدهر .

ومنهم أبو البيان محمد بن أبي غانم بن أبي حصين^(١) ، ولد بعد سنة (٤٧٠هـ) وتوفي بعد (٥٤٠هـ) كان شاعراً ، عالماً ، فاضلاً^(٢) ، وذكر له القاضي أبو اليسر ديواناً وشعراً حسناً ، ولي القضاء بحمص^(٣).
ومنهم ساطع بن عبد الباقي ... التنوخي المعري ، أحد أعيان المعرة ربطته بالملك غازي بن يوسف علاقة مودة وصداقة ، فكان يتردد على بلاطه بحلب يمدحه ويسمعه من شعره^(٤) ، وأثناء وجوده بحلب مرض وحمل إلى بلده المعرة فمات في الطريق سنة (٦٢١هـ)^(٥).

بنو المذهب:

وصف العماد بيتهم قائلاً : " كانوا في المعرة ذوي الفضل المذهب ، والمذهب المذهب " ^(٦) ، ومن أعلامهم سالم بن عبد الجبار ابن محمد بن المذهب ، أبو المعافي وقيل أبو المعالي التنوخي المعري ، من أكابر بيوت المعرة^(٧) ، اشتهر بالعدل والأمانة والفضل والشعر الجيد^(٨) ، وكانت تربطه صداقة ببني منقذ ، وخاصة بسديد الملك أبي الحسن علي

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٦٧/٢ .

(٢) السمعاني ، الأنساب : ٩٤/٣ ، ٩٥ .

(٣) السابق ، الخريدة (قسم شعراء الشام) : ٦٧/٢ .

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب : ٤٠٩٥/٩ .

(٥) المصدر نفسه : ٤٠٩٩/٩ .

(٦) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ١٢٨/٢ .

(٧) ابن العديم ، بغية الطلب : ٤١٤٦/٩ .

(٨) الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٨١/١٥ .

ابن منقذ ، وكان بشير عند بني منقذ معظم أوقاته ، فإذا اشتاق أهله يمضي إليهم بمعرّة النعمان ثم يعود إلى شيزر ، توفي (٥١٢هـ) (١).

بنو الحواري المعريون:

وهم من البيوت المعريّة المعروفة بمعرّة النعمان ، وينسبون إلى الحواري ابن حطان بن المعلى بن حطان بن سعد بن زيد بن لوزان ابن غنم بن السّاطع (٢) ، وقيل إنهم ينسبون إلى الحواري خير بن محمد ابن علي بن محمد بن أحمد ابن الحواري أبو بشر التنوخي العميد المعريّ وهو من شعراء المعرّة ، ويبدو أنّ وفاته كانت بعد سنة (٤٩٢هـ) ، إذ وقف على داره بمعرّة النعمان بعد هجوم الفرنج على بلده وقد ضربت وقال فيها شعراً (٣) .

ومن أعلام هذا البيت أحمد بن محمد بن أحمد ، أبو اليقظان التنوخي المعريّ وقد ذكره ابن العديم مع من قرأ على أبي العلاء المعريّ ، وروى عنه من العلماء والأدباء والمحدثين (٤) ، ويُعدّ أبو يقظان المعريّ من علماء المعرّة ، انتقل بأولاده إلى حلب حينما هجم الغزاة على بلده معرّة النعمان (٥) .

(١) ابن العديم، بغية الطلب : ٤١٤٦/٩ ، ٤١٤٧ ، ٤١٤٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٥٦٥/١ : ٢٩٨٧/٦ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٩٨٧/٦ .

(٤) ابن العديم ، الإنصاف والتحري : ٥١٨ .

(٥) محمد راغب، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، صححه : محمد كمال ، ط٢ ، دار القلم العربي، حلب ، ١٩٨٩م : ١٠٤/٤ .

ومنهم أبو الحسن علي بن المؤيد بن حواري ، وهو من العلماء
والفقهاء العارفين بالأصول ومن الأدباء والشعراء ذوي الشعر الحسن ،
كان عالماً بالعروض، قتل على يد جماعة بداره بمعرّة النعمان سنة
(٥٥٨هـ) (١) .

ومنهم أبو جعفر محمد بن حواري وهو أخو أبي الحسن علي ابن
المؤيد (٢)، ولُقّبَ بـ مهذب الدين التنوخي المعري (٣)، توفي بالمعرّة
(٦٠٣هـ) (٤) .

ومنهم مُحمّد بن عبد المنعم بن نصر الله بن جعفر بن أحمد ابن
حواري، الشيخ تاج الدين أبو المكارم التنوخي المعري الأصل ،
الدمشقي، الحنفي ، ويُعرف بابن شقير الأديب الشاعر ، ويُلقب
بالهدهد (٥)، ولد بدمشق (٦٠٦هـ) وتوفي فيها يوم الثلاثاء التاسع عشر
من صفر في منزله بسفح قاسيون سنة (٦٦٩هـ) كان ابن شقير أديباً ،
فاضلاً ، محدثاً ، حدّث بدمشق والقاهرة ، ويبدو أنه كان من المقربين من
الملك الناصر صلاح الدين ، إذ عمل في خدمته ومدحه ، وكان الملك
الناصر يحبه ويقدمه على غيره (٦) ، وأعطاه ضيعة له (٧) .

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشّام) : ٨٩/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٨٩/٢ ، ٩١ .

(٣) الصفدي ، الوافي بالوفيات : ١٠٠/٥ ، ١٠١ .

(٤) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، الطبقة (٦١) : ١٤٤ .

(٥) الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٤٧/٤ ، ٤٩ ؛ محي الدين القرشي ، الجواهر المضيئة:
٢٤٠/٣ .

(٦) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان : ١٠٤/٣ .

(٧) الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٤٩/٤ .

ومنهم نصر الله بن عبد المنعم بن نصر الله بن أحمد بن أبي جعفر ابن حواري التنوخي الدمشقي، أبو الفتح^(١)، شرف الدين^(٢)، ولد بدمشق سنة (٦٠٦هـ) وتوفي سنة (٦٧٤هـ)، وتلقى ثقافته الأولى على يد والده وهو صغير، ثم رحل طلباً للعلم إلى إربل^(٣) سنة (٦٢١هـ) وسمع الحديث ببغداد وغيرها^(٤)، وكان أبو الفتح شرف الدين كبير النفس، كريماً، سخياً، حرّاً، لا يحب إحساناً أو منّة من أحد حتّى لا يسترقه بها، لذا فقد امتنع من أكل طعام غيره وقبول هديّته، كما كان أديباً فاضلاً ديناً ووصف بأنه " حلو النادرة، حسن المحاضرة، على ذهنه من الأشعار والحكايات والوقائع شيء كثير " ^(٥)، ومن مصنفاته كتاب " إيقاظ الوسنان في تفضيل دمشق على سائر البلدان "، قام بعمارة مسجد في آخر عمره وتأنق في عمارته ^(٦).

(١) ابن المستوفي، تاريخ إربل : ٤٥٤/١.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان : ١٠٤/٣.

(٣) إربل: قلعة حصينة، ومدينة كبيرة من أعمال الموصل، ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١٣٨/١.

(٤) ابن المستوفي، تاريخ إربل : ق ٤٥٤/١.

(٥) اليونيني، ذيل مرآة الزمان : ١٠٤/٣.

(٦) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب : ٣٤١/٥.

بنو أبي جرادة :

يعدُّ بيت بني أبي جرادة من البيوت الحليّة المشهورة^(١)، وقد اشتهر هذا البيت بجده الأعلى أبي جرادة عامر بن ربيعة صاحب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب^(٢). وترتدُّ أصول هذه الأسرة إلى قبيلة عَـقِيل الّتي كانت تسكن البصرة ، وهي من كبريات قبائل عامر بن صعصعة العدنانيّة^(٣)، ويبدو أنّ صلاتهم بمدينة حلب بدأت منذ وقت مبكر ، فقد كان بعضهم يقدِّم إليها تاجراً ، وربما استهوت هؤلاء الوافدين ، فأقاموا فيها واستوطنوها، ومن أوائل الذين اتخذوا حلب دار إقامة موسى ابن عيسى بن أبي جرادة، الذي ورد المدينة تاجراً بعد المائتين للهجرة^(٤)، وثمة رواية أخرى ينقلها كمال الدين بن العديم عن والده فيما تأثّره عن سلفه أنّه وقع طاعون بالبصرة^(٥)، فخرج منها جماعة من بني عقيل وقدموا الشام، فاستوطن جدُّهم موسى بن عيسى حلب، وقد أعقب موسى هذا ثلاثة أبناء هم: محمد، وهارون، وعبد الله^(٦)، ومن هارون وعبد الله انحدر فرعان كبيران ينتمي إليهما بيت بني أبي جرادة في حلب، وقد

(١) ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ) معجم الادباء ، ط ١، دار

الكتب العلمية، بيروت ١٩٩١م : ٤/٤٣٣.

(٢) المصدر نفسه : ٤/٤٣٣؛ ابن العديم ، بغية الطلب : ٩/١ .

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب : ٩/١ .

(٤) المصدر السابق ، معجم الادباء : ٤/٤٣٤.

(٥) البصرة : تقع في جنوب العراق ومعناها في كلام العرب الأرض الغليظة ، انظر

ياقوت الحموي، معجم البلدان : ١/٤٣٠.

(٦) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء : ٤/٤٣٤.

ذكرت المصادر أسماء العديد من الأدباء والعلماء من ولد عبد الله ومن هؤلاء أبو المجد عبد الله بن محمد " شيخ فاضل أديب ، شاعر " ، له معرفة باللغة العربية " (١) .

وولده الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد " صدر زمانه وفرد أوانه ، ذو فنون من العلوم ، وخطه مليح جداً ... " (٢) .

وقد عُرف الفرع الذي انحدر من نسل هارون بن موسى بـ (بني العديم) وقد ذكر ياقوت الحموي في كتابه (معجم الأدباء) أنه سأل كمال الدين بن العديم عن سبب هذه التسمية ، فأجابه بأنه اسم محدث سمّوا به لأنّ جدّ جدّه القاضي أبا الفضل هبة الله بن أحمد بن يحيى ابن زهير بن هارون ، كان يكثر في شعره من ذكر العُدم ، وشكوى الزمان ، مع أنّه كان ذا ثروة واسعة ونعمة شاملة (٣) .

ويبدو أنّ مشاركة بني العديم في مجالات العلم والأدب والسياسة كانت أوسع من مشاركة أبناء عموماتهم ، فقد تولّى الكثير منهم القضاء منهم : أحمد بن يحيى (٤) المتوفى بحلب سنة (٤٤٢هـ) (٥) ، وابنه القاضي أبو الفضل هبة الله بن أحمد ، تولّى القضاء في المدينة سنة (٤٧٣هـ)

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء : ٤/٤٣٥ .

(٢) المصدر نفسه: ٤/٤٣٦ .

(٣) المصدر نفسه: ٤/٤٣٣ .

(٤) أحمد بن يحيى بن زهير بن هارون بن موسى بن عيسى بن أبي جرادة ابن العديم ،

بغية الطلب : ٣/١٢٢٢ ؛ محي الدين القرشي ، الجواهر المضئية : ١/٣٥٠ .

(٥) ابن العديم ، بغية الطلب : ٣/١٢٢٣ .

إلى أن توفي سنة (٤٨٨هـ) ^(١)، ثم أبو غانم محمد بن هبة الله وقد بنى هذا مسجداً في حلب عرف بمسجد بني العديم ^(٢)، كما شارك في الدفاع عن المدينة عندما حاصرها الفرنجة سنة (٥١٨هـ) ^(٣)، والقاضي أبو الفضل هبة الله، تولى القضاء بعد وفاة والده أبي غانم بعهد من عماد الدين زنكي سنة (٥٣٤هـ)، إلا أنه استعفى في عهد نور الدين فأعفي ^(٤)، وعرض القضاء على ابنه جمال الدين فرفض وأثر الانقطاع للعبادة ^(٥).

وظهر بعد ذلك القاضي أبو الحسن أحمد والد كمال الدين، حيث تولى الخطابة في مسجد حلب أيام نور الدين محمود وابنه الملك الصالح إسماعيل، كما تولى خزانة بيت المال، وظهر فيها كفاءة كبيرة، ثم اسند إليه القضاء في عهد صلاح الدين سنة (٥٧٥هـ) ولكنه عُزل سنة (٥٧٨هـ) بسبب انتقال القضاء من الحنفية إلى الشافعية ^(٦).

ومن أعلام بني العديم القاضي ثقة الملك الحسن بن عليّ ابن عبد الله بن أبي جرادة، يكنى أبا عليّ ^(٧)، وأبا عبد الله، ويلقب بثقة

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٤/٤٤٣-٤٤٧.

(٢) المصدر نفسه : ٤/٤٤٧.

(٣) المصدر نفسه : ٤/٤٤٨.

(٤) المصدر نفسه : ٤/٤٤٨.

(٥) المصدر نفسه : ٤/٤٥٠.

(٦) المصدر نفسه : ٤/٤٥١.

(٧) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم الشام) : ٢/١٩٧.

الملك^(١) ولد بجلب سنة (٤٩٢هـ) في أكثر الروايات^(٢) ، وتوفي بمصر في جمادي الأولى سنة (٥٥١هـ)^(٣) ، ونشأ بجلب وسمع بها من أبيه وكان ثقة الملك كاتباً ، فاضلاً ، وأديباً ، شاعراً ، تميز بجمال خطه^(٤) ، أشاد العماد بفضله فوصفه بأنه " ذو فضل غزير وأدب " ^(٥)، رحل ثقة الملك إلى مصر واتصل بكبار رجال الدولة والأمراء بها أمثال العادل الذي وجد عنده الترحيب كما التقى الصالح بن رزيق فنال الحظوة عنده ، وخدمه في ديوان الجيش ومدحه ولعل شخصيته العلمية وأدبه جعلته يتقدم على وزراء مصر وينال احترام سلاطينها^(٦) .

ومن أعلامهم عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله ابن أحمد ابن يحيى بن زهير ... يكنى أبا القاسم^(٧) ، وأبا حفص^(٨) ، ويلقب

(١) محي الدين القرشي ، الجواهر المضيئة ، ٧٣/٢؛ المقريزي ، المقفى الكبير : ٤٠٩/٣ .

(٢) محي الدين القرشي ، الجواهر المضيئة : ٧٣/٢؛ التميمي ، تقي الدين عبد القادر (ت ١٠٠٥هـ) ، الطبقات السنّية في تراجم الحنفية ، تحقيق: : عبد الفتاح الحلو ، ط١ ، دار الرفاعي ، الرياض ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ : ٧٩/٣ .

(٣) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء : ٤٣٧/٤؛ العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشّام) : ١٩٨/٢؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات : ١٧٤/١٢؛ المقريزي ، المقفى الكبير : ٤٠٩/٣ .

(٤) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء : ٤٣٧/٤ .

(٥) العماد الأصفهاني : الخريدة (قسم الشّام) : ١٩٨/٢ .

(٦) انظر العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشّام) : ١٩٨ / ٢ ، ١٩٩ .

(٧) ياقوت الحموي : معجم الأدباء : ٤٣٣/٤ .

(٨) اسماعيل البغدادي ، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون ، دار الفكر ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م : ٧٨٧/٥ .

بكمال الدين المعروف بابن العديم^(١)، ولد بحلب في العشر الأول من ذي الحجة سنة (٥٨٨هـ)^(٢)، ونشأ بحلب في كنف والده الذي عني بتتقيفه وتعليمه منذ نعومة أظفاره فدفعه للعلم وهو في السابعة من عمره ، فأظهر نبوغاً وتميزاً، فختم القرآن وهو في التاسعة، وقرأ بالعشر وهو في العاشرة، سمع من أبيه أبي الحسن، وعمه أبي غانم محمد، وأبي هاشم^(٣) عبد المطلب، الهاشمي، وعمر ابن طبرزد، وأبي اليمن الكندي وعبد الصمد الحرستاني^(٤)، وكان والده يحثه على العلم ويشجعه في صغره قائلاً له: " احفظ اللّمغ حتّى أعطيك كذا وكذا " .

فحفظه وقرأه على شيخه بحلب، كما حرص والده على تعليمه أصول الخط حتّى أتقنه^(٥)، وشهد له بحسنه وجودته من رآه وكان في جودته وحسنه يباع على أنّه خط ابن البوّاب^(٦)^(٧)، وأشاد ياقوت الحموي بحسن خطه فقال : " وعُرف خطّه بين الحاضر والباد ، فتهداه الملوك ،

(١) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء : ٤/٤٣٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ٤/٣٥٣؛ الكتبي، فوات الوفيات : ٣/١٢٧؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان : ٢/١٧٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة : ٧/١٨٣؛ الحنفي، قاسم بن قَطْلُوبغا زين الدّين (ت ٨٧٩هـ)، تاج التراجم في من صنف من الحنفية، عني بتحقيقه، إبراهيم صالح، ط١، دار المأمون للتراث، دمشق ، ١٩٩٢م : ١٦٦ .

(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء : ٤/٤٥٣ .

(٤) اليونيني، ذيل مرآة الزمان : ٢/١٧٨ .

(٥) ياقوت الحموي، معجم الأدباء : ٤/٤٥٤، ٤٥٥ .

(٦) ابن البوّاب، أبو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البوّاب الكاتب المشهور (ت ٣٢٣هـ) ابن خلكان، وفيات الأعيان : ٣/٣٤٢ .

(٧) اليونيني، ذيل مرآة الزمان : ٢/١٧٨؛ العماد الحنبلي، شذرات الذهب : ٥/٣٠٣ .

وجُعِلَ مع اللالئ في السلوك، وضربتُ به في حياته الأمثال، وجعل للناس في زمانه حذواً ومثالاً^(١)، ولحرص والداه على تعليمه رحل به إلى بيت المقدس مرتين سنة (٦٠٣هـ) و(٦٠٨هـ) فسمع من شيوخ العلم هناك، واصطحبه إلى دمشق أيضاً^(٢).

وقد انتقل بين عدة بلدان فسمع من شيوخ العلم في العراق والحجاز، ومصر، وبغداد وغيرها^(٣)، وقد برع في مختلف مجالات العلوم الأدبية والدينية، فقد أتقن الأدب، ونظم الشعر وأنشأ النثر، ودرس الفقه، وقرأ الحديث وعرف علله ورجاله وتأويله وفروعه وأصوله فكان "كاسمه كمال في كل فضيلة، لم يعتني بشيء إلا وكان فيه بارزاً"^(٤)، ولعل معرفة ابن العديم واطلاعه الواسع في الحديث والتاريخ، والنظم، والنثر بالإضافة إلى صدقه في أقواله وأفعاله، جعلت المؤرخين يصفونه بأنه مؤرخ صادق، فقيه، مفتي، ومحدث منشئ بليغ، كاتب، مجود^(٥)، وكان عديم النظر فضلاً ورأياً، وحزماً، على حد تعبير أحد المؤرخين^(٦)، وزين كمال الدين حسن أدبه وعلمه بحسن خلقه؛ فهو لين الجانب، متواضع حسن الملتقى والبشر لسائر الناس وكثير البر والإحسان

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء : ٤/٤٥٦.

(٢) المصدر نفسه : ٤/٤٥٤.

(٣) الكتبي، فوات الوفيات : ٣/١٢٦، ١٢٧.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان : ٤/٤٥٢.

(٥) الكتبي، فوات الوفيات : ٣/١٢٦.

(٦) العماد الحنبلي، شذرات الذهب : ٥/٣٠٣.

إلى الفقراء والصالحين^(١)، وعلى الرغم من أن حلب كانت مقراً للعلماء وشيوخ العلم وأهل الفضل الكبار فقد استطاع ابن العديم وهو صغير السن أن يجد لنفسه منزلة بين أفاض العلماء، فقد رُئي أنه يستحق التدريس بمدرسة شاذ بخت^(٢) دون غيره فوّلّي التدريس في ذي الحجة سنة (٦١٦هـ)^(٣)، محققاً بذلك أمنية والده الذي أرادهُ مدرساً^(٤)، وقد أحيط كمال الدين بالتكريم والتقدير من أولي الأمر في عصره، ومنهم الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الذي كانت تربطه به مودة وصحبة، ويشير كمال الدين إلى ذلك قائلاً: "كان الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب رحمه الله كثير الإكرام لي، وما حضرت مجلسه قطُّ فأقبل عليّ أحد إقباله عليّ مع صغر السن"^(٥)، ثم توثقت صلته بالملك الأشرف ولا سيما بعدما صنف له كتاب "ضوء الصباح في الحث على السّماح" فلما وقف الأشرف على هذا الكتاب أحب أن يرى صاحبه فقدم ابن العديم عليه فأحسن الأشرف إليه وأكرمه وخلع عليه^(٦).

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان : ١٧٨/٢.

(٢) شاذ بخت : وهي من المدارس الحنفية ، انشأها الأمير جمال الدين شاذ بخت الخادم الهندي الأتابكي ، كان نائباً عن نور الدين بحلب ، ابن شداد عز الدين محمد بن علي ، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق: يحيى عبّارة ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٨٨م : ج ١ ق ١ / ٢٧١.

(٣) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء : ٤٥٦/٤.

(٤) المصدر نفسه : ٤٥٤/٤.

(٥) المصدر نفسه ، معجم الأدباء : ٤٥٥/٤.

(٦) المصدر نفسه : ٤٥٦/٤.

وربما كانت عراقة نسب ابن العديم ومكانة أسرته قد مهدت صلته بالملوك والخلفاء غير أنّ نبوغه في شتى ميادين العلم، وقوة شخصيته وفطنته بالإضافة إلى المزايا الخلقية التي تحلى بها فرضت حضور شخصيته بالمحافل وجعلت له الواجهة العظيمة والحرمة عند الملوك^(١)، فعندما انتقل إلى دمشق وأقام بها في الدولة الناصرية، نال إعجاب واحترام الملك الناصر وسمت منزلته عنده، فكان يحضر مجلسه بصحبة ابنه فلا يُقعدُ أحداً فوقهم في المجلس^(٢)، ولتقّة الملك الناصر به أسند إليه أسمى المناصب في الدولة وأجلّها، فناب عنه في سلطنة دمشق^(٣).

وقد ترسل إلى الملوك بمهام سياسية خطيرة ذكرها المؤرخون ففي سنة (٦٥٤هـ) أرسل إلى بغداد ليطلب خلعة من صاحبها فوجد التقدير والاحترام والحفاوة حينما خرج الموكب له، وبسطت له سجادة فصلّى عليها ركعتين وقيل له " نحن نعظم الرسل لأجل مرسلها ونحن نعظم مرسلك لأجلك " ^(٤).

كما أرسله الملك الناصر إلى مصر سنة ٦٥٧هـ رسولا يستتجد بهم حينما اقترب قدوم التتار إلى البلاد وكانوا قد استولوا على بلاد

(١) ابن كثير، أبو الفداء الحافظ بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تحقيق: أحمد ابو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت: م ٧ ج ١٣/٢٤٩.

(٢) الكتبي، محمد بن شاكر، عيون التواريخ، تحقيق: فيصل السّامر ونبيلة عبد المنعم، وزارة الثقافة و الإعلام العراقية ، بغداد ، ١٩٧٧م : ١٨٠/٢١.

(٣) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ)، العبر في خبر من غير، تحقيق: أبو هاجر زغلول، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥م : ٣/٣٠٠.

(٤) اليونيني، ذيل مرآة الزمان وقائع (٦٥٤-٦٦٢)، ١٩٥٤م : ١/٥١٠.

الجزيرة^(١)، غير انهم وصلوا إلى البلاد وخرّبوها وعندما عاد إليها ابن العديم فوجدها خراباً ، تأسف عليها ورثاها ، وعاد إلى مصر^(٢)، وبقي هناك إلى أن توفي و قيل إنه توفي سنة (٦٦٠هـ)^(٣)، وقيل أيضاً إنه توفي (٦٦٦هـ)^(٤) .

ترك ابن العديم مصنفات عديدة أشار ياقوت الحموي في معجمه إلى عدد منها ومن هذه المصنفات كتاب (الدراري في ذكر الذراري) جمعه للملك الظاهر غازي وكتاب (ضوء الصباح في الحث على السماح) صنّفه للملك الأشرف وكتاب (الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة) وكتاب في الخط وعُلُومه ، ووصف آدابه وأقلامه وطروسه^(٥) .

وكتاب (تاريخ حلب في أخبار مملوكها وابتداء عمارتها ومن كان بها من العلماء ومن دخلها من أهل الحديث والرواية والدراية ، والملوك

(١) العيني ، بدر الدين محمود (ت ٨٥٥هـ) ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، حوادث وتراجم (٦٤٨-٦٦٤هـ) حققه: محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ، ١٩٨٧م : ٢١٨ .

(٢) انظر ابن الوردي ، تاريخه : ٢٠٨ ؛ يسرى عبد الغني ، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر : ١٢٣ .

(٣) المقرئ ، تقي الدين المقرئ ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، وضع حواشيه: محمد مصطفى ، ط ٢ ، لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٧م ، ج ١ ، ق ٢ : ٤٧٦ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ١٨٣/٧ .

(٤) الكتبي ، فوات الوفيات : ١٢٦/٣ .

(٥) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء : ٤٥٦/٤ .

والأمراء (^(١))، وهو الكتاب المعروف باسم (بغية الطلب في تاريخ حلب) وكتاب (زبدة الحلب) وكتاب (الوصلة الى الحبيب في وصف الطيبات والطيب) وكتاب (تبريد حرارة الأكباد في الصبر على فقد الأولاد) وكتاب رفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري (وكتاب (تذكرة ابن العديم) وكتاب (منهاج في الأصول والفروع على مذهب أبي حنيفة) (^(٢)).

ومن أعلام بني العديم ، مجد الدين عبد الرحمن بن عمر بن أحمد أبو المجد، ولد بحلب في جمادي الأولى سنة (٦١٤ هـ) (^(٣))، ونشأ بها في بيت علم ووجاهة وقد عني والده بتعليمه وتشقيفة منذ صغره ففي سنة (٦١٧ هـ) احضر له المشايخ إلى حلب ليسمع عليهم ومنهم أبو العباس أحمد بن تميم الأندلسي (^(٤))، وسمع من عم أبيه القاضي أبي غانم هبة الله ، وغيره (^(٥))، ويذكر ان الظاهري (^(٦)) أخرج له معجماً في عشرة أجزاء ذكر فيه شيوخه (^(٧)) .

(١) ياقوت الحموي، معجم الادباء: ٤٥٦/٤.

(٢) اسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، دار الفكر، ١٩٨٢ : ٧٨٧/٥.

(٣) المقرئزي، المقفى الكبير : ٨٩/٤.

(٤) اليونيني، ذيل مرآة الزمان : ٣٠٧/٣.

(٥) انظر: شيوخه الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٢٠٠/١٨.

(٦) الظاهري، هو جمال الدين أحمد بن محمد (ت ٦٩٦ هـ)، انظر : محي الدين القرشي، الجواهر المضيئة : ٧٧٩/٢.

(٧) المقرئزي، المقفى الكبير : ٨٩/٤ .

وقد دفعه حبه للعلم إلى الارتحال في سن مبكرة من عمره ففي سنة (٦٢٣هـ) رحل إلى دمشق ليسمع من علمائها وفقهائها^(١)، ولم يقتصر في رحلاته على دمشق بل تنقل بين عدة بلدان فسمع بمكة والإسكندرية ، ومصر، وحلب، وبغداد^(٢)، درس الحديث وعرف الفقه، والأصول، واللغة، والأدب، والشعر^(٣)، وبلغ بعلمه مرتبة رفيعة فاستحق ثناء العلماء له ومما قيل فيه إنه كان " صدراً ، مهيباً ، وافر الحشمة والترفع"^(٤)، وكان " أوحده عصره في العلم والرئاسة وسعة الصدر والإقبال على أهل الخير وتقريبهم "^(٥)، وقد برع في مذهبه الحنفي وأتقنه وأسس قواعده في الدولة حتى انتهت إليه الرئاسة فيه^(٦)، وولى قضاء القضاة على مذهبه في دمشق، كما ولي التدريس بالمدرسة الحلاوية^(٧)؛ لما جُمع له من العلم والعمل^(٨)، وعين مدرساً بـ " المدرسة الأتابكية"^(٩) بحلب سنة

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٩٦٠م: ٣/٣٠٧.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٨/٢٠١.

(٣) المصدر السابق ، ذيل مرآة الزمان : ٣/٣١٠.

(٤) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب : ٥/٣٥٨.

(٥) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان : ٣/٣١٠.

(٦) انظر محي الدين القرشي، الجواهر المضيئة : ٢/٧٧٩.

(٧) المدرسة الحلاوية: وهي من المدارس الحنفية، كانت قديماً كنيسة ثم عرفت بمسجد السّرّاجين، ولما ملك نور الدين حلب وقفه مدرسة وجدّد فيه مساكن يأوي إليها الفقهاء، ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم (ت ٦٨٤هـ) ، الأعلّاق الخطيرة في ذكر أمراء الشّام والجزيرة : ج ١ ق ١ / ٢٦٤.

(٨) المصدر نفسه ، الأعلّاق الخطيرة : ج ١ ق ١ : ٢٧١.

(٩) المدرسة الأتابكية؛ وهي من المدارس الحنفية أنشأها شهاب الدين طغرل الأتابك عتيق الملك الظاهر غياث الدين غازي، انتهت عمارتها سنة (٦١٨هـ) ابن شداد ، الأعلّاق الخطيرة : ج ١ ق ١/٢٧١.

(٦٣٨هـ)، وبقي بها إلى أن هجم الغزاة على حلب سنة (٦٥٨هـ) فخرج منها ^(١)، وتوجه إلى مصر فقبل بالاحترام والتقدير، فولي سنة (٦٦٣هـ) خطابه جامع الحاكم، وكان أول حنفي وليّه ^(٢)، كما درّس بظاهرية القاهرة، ويبدو أنّ السلطان عرف له مكانته، فحينما حضره بظاهرية القاهرة، لم يكن قد تهيأ مع من وقف لاستقباله فطلبه السلطان ف قيل له: " حتّى يقضي ورد الضحى ، ثم جاء وقد تكامل الناس فقاموا كلهم ولم يقم هو لأحد " ^(٣)، ثم عاد إلى دمشق سنة (٦٧٣هـ) بزيّ الوزراء، فلم يغير زيّه ولا وسعّ كمه ولم يعبأ بالمنصب، ودرّس بعدّة مدارس وبقي بدمشق إلى أن توفي في ربيع الآخر سنة (٦٧٧هـ) بها ^(٤).

(١) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة : ج ١ ق ١ / ٢٧١.

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية : ٢٩٨/١٣؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٢٠٢/١٨؛ المقرئ : المقفى الكبير : ٩٠/٤.

(٣) الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٢٠٢/١٨؛ المقرئ : المقفى الكبير : ٩٠/٤.

(٤) المصدر نفسه : ٢٠٢/١٨؛ المقرئ : المقفى الكبير : ٩٠/٤.

الشهرزوريون :

أشارت المصادر إلى أعلام كثيرين ينسبون إلى (شهرزور)^(١) ، غير أن المقصود هنا أولئك الذين ينحدرون من نسل أبي أحمد القاسم ابن المظفر الشهرزوري ، الجد الأعلى للقضاة الشهرزوريين في بلاد الشام والموصل^(٢)، ولا نملك دليلاً بيناً على الأصول الأولى لهؤلاء ، أو ما إذا كانوا ينتسبون إلى أصول عربية أو أعجمية غير أن بعض المصادر كانت تذيّل أسماء بعض أعلامهم بلقب (الشيباني)^(٣)، فهل يدلّ هذا على أنهم ينحدرون من قبيلة شيبان العربية ؟

كما وصفت المصادر بعضهم بـ (الخراساني)^(٤)؛ لأنهم استوطنوا في بداية أمرهم هذا الإقليم ، فنسبوا إليه أمّا الكنية التي غلبت عليهم فهي (الشهرزوري ، والقضاة الشهرزوريّة)^(٥)، وقد حاول أحد الدارسين المحدثين أن يجد مخرجاً لهذا الاختلاف في النسبة ، فقال : " وتعود هذه العائلة في نسبها إلى بني شيبان الذين نزحوا من الجزيرة ،

(١) شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمدان ومعنى شهر بالفارسية المدينة وأهلها أكراد؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٣/٣٧٥.

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٤/٦٨؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب : ٤/١٢٣.

(٣) انظر الأسنوي ، عبد الرحيم جمال الدين (ت٧٧٢هـ) ، طبقات الشافعية ، ط١، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧م : ١٥/٢.

(٤) الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٣/٣٣١.

(٥) العماد الأصفهاني ، الخريدة (الشام) : ٢/٣٠٨.

واستقروا في جهات شهرزور ، ثم حملوا شرف انتسابهم إلى تلك المدينة، وعرفوا بالشهرزوريين " (١).

وقد نوّهت المصادر بهذا البيت وأشادت بدوره في الحركة الفكرية والأدبية في بلاد الشّام زمن الحروب الصليبية فوصفته بأنّه " بيتٌ معروفٌ بالعلم والقضاء والتقدّم " (٢) و " بيت العلم والقضاء والرياسة " (٣) ، " وهم أهل بيت مشهورون بالعلم والقضاء والفضل " (٤)، وأنهم " علماء نجباء كرماء نالوا المراتب العلية ، وتقدّموا عند الملوك وتحكموا وقضوا ونفقت أسواقهم " (٥) .

كما أشارت المصادر إلى المكانة التي تبوّءها هذا البيت في بلاد الشّام إذ " صاروا قضاة الشّام والجزيرة ، وبيت الشهرزورية معروف بتلك البلاد " (٦) كما وصفتهم بأنهم "قضاة الشّام " (٧) .

وقد أنجب جدّهم أبو أحمد القاسم عدّة أبناء أشهرهم القاضي المرتضى ، وأبو بكرٍ محمد المعروف بـ قاضي الخافقين (٨) .

(١) صادق جودة ، القضاة الشهرزوريون ، ط١ ، دار البشير ، عمان ، ١٩٨٦م : ٦ .

(٢) المنذري ، التكملة : ١٨٢/٣ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٩٨/٢ .

(٤) ابن الأثير ، اللباب في تهذيب الأنساب : ٢١٧/٢ .

(٥) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب : ١٢٣/٤ .

(٦) السّمعاني ، الأنساب، تحقيق : محمد عوامة ، ط١ ، شركة الفجر العربي ، ١٩٧٦م : ٤١٩/٧ .

(٧) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب : ١٢٣/٤ .

(٨) العماد الأصفهاني ، الخريدة (الشّام) ، ٣٢٢/٢ .

أمّا قاضي الخافقين فهو أبو بكر محمد بن القاسم ، ولد سنة (٤٥٣هـ) وتوفي سنة (٥٣٨هـ)^(١)، وقد درس على عددٍ من شيوخ عصره، فقد دخل بغداد في صباه، وتلقى العلم على يد عددٍ من علمائها مثل: أبي القاسم الأنماطي، وأبي نصر الزينبي وغيرهما، ثم رحل في شبابه إلى خراسان والشرق، وأخذ الحديث عن مشاهير علمائها أمثال: أبي بكر أحمد بن خلف الشيرازي، وأبي عدنان القاسم القرشي، والقاسم عبد العزيز الكازووني^(٢)، وقد أهّله هذه الشخصية العلميّة لأن يتولّى القضاء بعدّة بلدان من بلاد الشام والجزيرة وغيرها حتّى عرف بـ "قاضي الخافقين لكثرة البلاد التي وليها"^(٣)، كما أسند إليه القيام ببعض المهمات السياسيّة، حيث أرسله الخليفة العباسي إلى دمشق رسولا لأخذ البيعة له من الزنكيين^(٤)، ممّا يدل على المكانة الطيبة التي كان يحظى بها لدى الطرفين.

وأمّا القاضي المرتضى فهو عبد الله، وكنيته أبو محمد، ولد في السادس من شعبان سنة (٤٦٥هـ)، ومات لتسع بقين من ربيع الأول سنة (٥١١هـ)^(٥)، ويبدو أنّ ميوله كانت دينيّة منذ صباه، فاشتغل

(١) الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٣٣٩/٤.

(٢) السمعاني ، الأنساب : ٤١٨/٧ ، ٤١٩ ؛ ابن الأثير ، اللباب : ٢١٧/٢.

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٧٠/٤.

(٤) الأسنوي ، طبقات الشافعية : ١٧/٢.

(٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٤٩/٣؛ وقارن بما ورد عند السبكي ، عبد الوهاب ابن علي الكافي (ت ٧٧١هـ) ، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق: عبد الفتاح الحلو ، والطناحي، ط ١ ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩١٨م : ١٢٦/٧ ؛ الأسنوي، طبقات الشافعية : ١٦/٢.

بالحديث والفقه حتّى تمكّن فيهما، ورواية الحديث الشريف فيما بعد، ممّا أهله لتولي القضاء في دمشق زمن نور الدين زنكي^(١).

ويبدو أنّ هذا الأهتمام بالعلوم الدينيّة، بالإضافة إلى الاستعدادات الشخصية لديه، جعلته يجلس للناس للوعظ، وقد أشارت المصادر إلى تميزه في ذلك، فوصفت مدى تأثيره في النفوس، وذكرت أنه " كان مليح الوعظ، مع الرشاقة والتجنيس " ^(٢)، وتتمثل هذه الروح الدينيّة التي سرت في نفسه أوضح ما يكون في نزوعة إلى التصوف "كان يتكلم على القلوب " ^(٣)، ولعلّه تأثر بروح العصر الذي انتشرت فيه الطرق الصوفيّة المختلفة، وقد أثّرت هذه فيما نقل إلينا من شعره فجاء جلّه تعبيراً عن المعاني الدينيّة، ولا سيّما قصيدته التي قالها في علم التصوف، وسنعرض لها عند الحديث عن الموضوعات الشعرية.

وقد أنجب المرتضى عدداً من الابناء الذين أسندت إليهم مناصب القضاء، وترقّوا لدى الزنكيين والأيوبيين ونالوا لديهم المكانة الرفيعة ومن هؤلاء: كمال الدين أبو الفضل محمد، ولد سنة (٤٩٢هـ) بالموصل وتوفي سنة (٥٧٢هـ)^(٤)، وقد اعتنى به أبوه منذ نعومة أظفاره فعلمه العربية والعلوم الدينيّة، ثم دخل المدرسة النظاميّة ببغداد وتفقه على يد أسعد الميّهنيّ فقيه عصره، ونور الهدى الزينبيّ، وأبي البركات بن

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية : ٢٢٤/١٢.

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٤٩/٣.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية : ١٩٤/١١.

(٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٢٤١/٤، ٢٤٤.

خميس وغيرهم^(١)، وقد قرّبه الزنكيّون في الموصل إليهم لعلمه وفضله، فولّوه القضاء فيها، كما اعتمدوا عليه في سفاراتهم إلى الخليفة العباسيّ وكان يتردد بين الموصل و"بغداد رسولاً من صاحبها إلى الخليفة"^(٢)، وأظهر كمال الدين قدرات متميّزه في إدارة الأزمات؛ فعندما حاصر المسلمون الرها سنة (٥٣٩هـ) بقيادة عماد الدين زنكي، أشار عليه كمال الدين باللّجوء إلى الحيلة والخدعة في فتحها، ونصحه بالتظاهر لقصد غيرها فمدحه ابن القيسراني بقصيدة قال فيها^(٣):

ظَفَرٌ كَمالَ الدِّينِ كُنْتَ لِقاحَه كَمْ ناهضٍ بالحربِ غيرُ مُحاربِ

وعندما قتل عماد الدين زنكي على قلعة جعبر كان حاضراً في العسكر هو وأخوه تاج الدّين أبو طاهر، وتمكنا من تهدئة الجيش والعودة به إلى الموصل وخداع ألب أرسلان بن السلطان محمود الذي تطلّعت نفسه إلى الاستيلاء على الموصل بعد موت عماد الدين^(٤)، مما دفع سيف الدين غازي ولد عماد الدين إلى تفويض الأمور كلها إليه في جميع مملكته^(٥)، ويبدو أن هذه المزايّا التي تحلّى بها كمال الدين والمكانه التي حظي بها عند سيف الدين غازي جعلت بعض الخصوم يسعون فيه عنده، فاعتقله سنة (٥٤٢هـ) غير أن الخليفة العباسي شفع له، فأخرجه من

(١) السُّبُكي ، طبقات الشافعية الكبرى : ١١٧/٦ ، ١١٨ .

(٢) المصدر نفسه : ١١٨/٦ .

(٣) انظر : عادل جابر ، شعر ابن القيسراني ، ط ١ ، الوكالة العربية ، الزرقاء ، ١٩٩١م : ١٠٣ ، ٤٤٧ .

(٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٢٤١/٤ .

(٥) المصدر نفسه : ٢٤١/٤ .

الاعتقال ، وقعد في بيته وعليه الترسيم^(١)، ولم يُرفع عنهما ذلك إلا بعد وفاة سيف الدين غازي ثم انتقل كمال الدين إلى خدمة نور الدين محمود صاحب الشام سنة (٥٥٠هـ)، وهنا نجد نور الدين يعتمد عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شؤون الدولة، حتّى " ترقّى إلى درجة الوزارة ، وحكم في بلاد الشام الإسلامية في ذلك الوقت ... ولم يكن شيء من أمور الدولة يخرج عنه ، حتّى الولاية وشدّ الديوان وغير ذلك " (٢) كما اعتمد عليه في سفاراته إلى الخلافة العباسيّة ومراسلاته مع حكام المدن الإسلامية لتوحيد صفوفهم لمواجهة الخطر الصليبي^(٣)؛ ولعل هذه الرغبة في الحفاظ على وحدة الصف الإسلامي هي التي جعلته يشير على الأمراء بعد وفاة نور الدين زنكي بأن يستشيروا صلاح الدين الأيوبي فيما سيفعلونه لأنّه من ممالك نور الدين ونوابه، ولأنّه أقوى منهم ، وربّما أخرجهم وتولّى خدمة الملك الصالح بن نور الدين؛ غير أن الأمراء رفضوا ، في حين صدقت توقعات كمال الدين ، فأرسل اليهم صلاح الدين قائلاً: " أراكم قد تفردتم بخدمة مولاي ووليّ ، وسوف أصل إلى خدمته ، وأجازي إنعام والده بخدمة يظهر أثرها وأقابل كلّ منكم على سوء صنيعه " (٤) .

وربما تدل هذه الحادثة وغيرها على أنّ كمال الدين كان يحسن قراءة الأحداث ، لذا فعندما قدم صلاح الدين دمشق سنة (٥٧٠هـ) لأجل

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان : ٢٤٢/٤ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٤٢/٤ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٤٢/٤ .

(٤) ابن الأثير ، التاريخ الباهر : ١٦٢-١٦٣ .

أخذها " مشى بنفسه إلى دار قاضي القضاة كمال الدين زائراً مستبشراً ،
فتلقاه وجالسه وباسطه وقال : طب نفساً ، وقر عيناً ، فالأمر أمرك ،
والبلد بلدك " (١) .

ويبدو أن هذه المكانة التي حظي بها عند صلاح الدين جعلت بعض
رجال عصره يحسدونه، ومن هؤلاء القاضي الفاضل ؛ فقد قيل إنه كان
يكرهه ويسعى فيه عند صلاح الدين، مشيراً إلى الأموال الكثيرة التي
جمعها والضياع التي امتلكها^(٢)، غير أن الملك الناصر لم يأخذ بأقواله،
ورأى تعظيمه نظراً لمكانته بين علماء عصره.

وقد أشارت المصادر إلى الإصلاحات الكبيرة وأعمال البر الكثيرة
التي قام بها كمال الدين؛ فقد أصلح أمور القضاء فسنّ دار العدل لتنفيذ
أحكامه بحضرة السلطان، كما تولّى بناء أسوار دمشق ومدارسها
والبيمارستان^(٣)، وفتح المشاهد الأربعة في الجامع الأمويّ وأضاف إلى
أوقاف الجامع المعلومة الأوقاف التي لا يُعرف واقفوها، وسمّى مال
المصالح، ورتّب عليه لذوي الحاجات والفقراء والمساكين والأرامل
والإيتام^(٤)، ووقف أوقافاً في بلاد شتى منها مدرسته بالموصل ورباط
بالمدينة المنورة^(٥)، ومارستان بنصيبين^(٦).

(١) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى : ١١٨/٦ .

(٢) المصدر نفسه : ١١٨/٦ .

(٣) أبو شامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين : ٤٢٦/٢ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية : ٢٩٨/١٢ .

(٥) الأسنوي ، طبقات الشافعية : ١٨/٢ .

(٦) العماد الحنبلي ، شذرات الذهب : ٢٤٣/٤ .

ولم تكن اهتمامات كمال الدين مقصورة على القضاء، وإنما شملت مجالات أخرى من أهمها الشعر، فقد نوّهت المصادر بشاعريته وحفظت قدراً صالحاً من أشعاره، ووصفته بأنه كان " أديباً، شاعراً، طريفاً " (١).

رغب كمال الدين في أن يظلّ القضاء في آل بيته بعد وفاته ، فأوصى بولايته لابن أخيه ضياء الدين، فنّفذ السلطان وصيته، وفوّض القضاء إليه، غير أنّ ضياء الدين لاحظ ميل السلطان إلى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون فسأله الإقالة، فأقيل (٢)، وعوّض بالسفارة إلى الملوك (٣).

وقد كان لكمال الدين أخوة لم يبلغوا منزلته، منهم تاج الدين يحيى ابن عبد الله، ذكره العماد في الخريدة، وقال عنه إن له " المقطوعات المصنوعات المطبوعات، توفي سنة ست وستين " (٤) وخمسمائة .

ومن أعلام القضاة الشّهْرزُوريّة (أقضى القضاة) (٥) محي الدين أبو حامد محمد ابن القاضي كمال الدين الشهرزوري، اختلف في سنة

(١) السُّبُكِي ، طبقات الشافعية الكبرى : ١١٨/٦ ؛ وانظر، العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشّام) : ٣٢٣/٢ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب : ٢٤٣/٤ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٢٤٤/٤ .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية : ٣٨/١٣ .

(٤) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشّام) : ٣٤٢/٢ ؛ وقارن بما ورد في الأسنوي ، طبقات الشافعية : ١٨/٢ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٢٤٥/٤ .

(٥) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشّام) : ٣٢٩/٢ .

ولادته، وقد نقل ابن خلكان هذا الاختلاف، فقال: " وكانت ولادته سنة عشر وخمسمائه تقريباً، وقال العماد الكاتب .. مولده سنة تسع عشرة" (١). ولعلّ رواية العماد أقرب الى الصواب، فهو معاصر له، كما أنّهما درساً معاً حيث قال: " هو قرني، وفي سنّي، مولده سنة تسع عشرة وخمسمائة، سنة مولدي، ومورده في طلب العلم مؤردي " (٢).

دخل محي الدين المدرسة النظامية ببغداد، وتفقه فيها على يد ابن الرزّاز الشافعي البغدادي، ثمّ أّصعد إلى الشّام وولي قضاء دمشق نيابة عن والده، ثمّ انتقل إلى حلب سنة (٥٥٥هـ) وحكم نيابه عن أبيه (٣) أيضاً، وبعد وفاة أبيه أسند إليه القضاء، وتمكّن عند الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين غاية التمكن، وفوّض إليه أمور دولته ويبدو أنّ ذلك أثار بعض حساده، فوشوا به الى الصالح، فعزل عن القضاء ولزم بيته، ثمّ غادر حلب إلى الموصل، فتولّى قضاءها، ودرّس في مدارسها وتمكّن عند صاحبها عزّ الدين مسعود، واستولى على جميع الأمور في دولته وفي هذه الأثناء التقى بهاء الدين بن شدّاد قاضي حلب فيما بعد، الذي عمل على خدمة محي الدين عند توجهه إلى بغداد في إحدى

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٢٤٦/٤؛ وانظر العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشّام) : ٣٣٠/٢ .

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة : ٣٣٠/٢ وقارن بما ورد عند صادق جودة ، القضاة الشهرزوريون : ١٦-١٧ .

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٢٤٦/٤ ، ٢٤٧ .

الرسائل، وقد علّق ابن خلكان على ذلك قائلاً: " وناهيك بمن يكون في خدمة مثل هذا الرّجل" (١).

وقد حرص محي الدين مثل أبيه على وحدة الصف الإسلامي في مواجهة الخطر الصليبي، وعمل على فضّ الخصومات التي كانت تتشأ بين بعض الحكام آنذاك فتردّد غير مرّة بين الخليفة العباسي والزنكيين مقرباً بين وجهات نظرهم وكان يعمل في سفراته إلى بغداد على سلّ الضغائن وتأليف القلوب عن طريق الإنفاق السخي (٢)، وعندما نشب الخلاف بين الموصل وصالح الدين الأيوبي وجدنا أبا حامد ينهض بمهمة الإصلاح، وتسفر مساعيه عن توقيع اتفاق حرّان (٣).

نوّهت المصادر بشخصية محي الدين؛ فقد قرّضه العماد قائلًا :
" علمه حالٍ بالعفاف، وفضله كامل الأوصاف، .. له النظم الرائق، والنثر الموافق، واللفظ السهل، والمعنى البكر .. " (٤)، وذكر ابن خلكان أنه كان " من النجباء .. كريم الأخلاق، رقيق الحاشية، له في الأدب مشاركة حسنة وله أشعار جيّدة" (٥)، وقد توفي على أرجح الأقوال سنة (٥٨٦هـ) (٦).

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان : ٢٤٦/٤.

(٢) الأسنوي ، طبقات الشافعية : ١٩/٢.

(٣) ابن الأثير ، الكامل : ٥٠١/١١ ، ٥١٦.

(٤) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشّام) : ٣٣٠/٢.

(٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٢٤٧/٤.

(٦) المصدر نفسه : ٢٤٧/٤ ، ٢٤٨ ؛ المقرئزي ، المقفى الكبير ، ٣٢/٧.

بنو أيوب :

ثمة روايات متعددة حول الأصول الأولى لهذه الأسرة ، لعل أشهرها أن أصلهم من الأكراد الروادية من بلد دوين^(١)، وهم فخذ من الهذبانبة في حين أنكر جماعة من هذه الأسرة نسبتهم إلى الأكراد وقالوا: " إنما نحن عربٌ وتزوجنا من الأكراد " ^(٢)، كما راجت فكرة أنهم من رب بني أمية وأدعى ذلك إسماعيل بن طغتكين بن أيوب، وقد أنكر السلطان عماد الدين صاحب حماة في تاريخه ما ذهب إليه إسماعيل ونعته قائلاً: " إنه كان به هوجٌ فادعى أنه من بني أمية ولبس ثياب الخلافة " ^(٣)، كما أنكر الملك العادل أبو بكر ما ادّعه ابن أخيه إسماعيل بشأن هذه النسبة^(٤)، وينفي ابن أبي طي هذا النسب قائلاً: " وقد نقبتُ عن ذلك فأجمع الجماعة من آل أيوب أن هذا كذبٌ، وأن جميع آل أيوب لا يعرفون جداً فوق شاذي .. " ^(٥).

(١) دوين : بفتح أوله ، وكسر ثانيه ، وياء مثناة ، وآخره نون : بلدة من نواحي أران في آخر حدود أذربيجان بقرب من تغليس ، منها ملوك الشام بنو أيوب ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٤٩١/٢ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ٣٤١/١١ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية : ٢٧٨/١٢ ؛ ابن الوردي ، تاريخه : ٧٤/٢ .

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٢٥٦/١ .

(٤) القلقشندي ، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، علق عليه: محمد حسين شمس الدين ، ط ١ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٧م : ٢٩١/٣ .

(٥) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٤٠٣/١ .

(٦) أبو شامة المقدسي ، الروضتين : ٢٥٠/٢ .

ويبدو أن نسبتهم إلى الأكراد هي الأرجح والأقوى بإجماع معظم المصادر، ولعل فكرة نسبتهم إلى أصول عربية ظهرت بعد توليهم أمر السلطة بهدف التقرب للأمة الإسلامية بنسب عربي، ولعلها فكرة روجت لها بطانة سلاطين بني أيوب للتقرب منهم والاستفادة من مراكزهم في الدولة فوجدت استحساناً لدى بعضهم.

وقد حظي تاريخ أسرة بني أيوب ولا سيما صلاح الدين الأيوبي بدراسات تاريخية عديدة، قديمة وحديثة تناولت تاريخهم وإنجازاتهم الحضارية، وفصلت تاريخ صلاح الدين وجوانب حياته المختلفة وشخصيته وجهاده^(١)، وسأقف هنا عند من اشتهر بقول الشعر من ملوكهم، ومنهم:

(١) من هذه الدراسات، ابن شدّاد، بهاء الدين يوسف (ت ٦٣٢هـ)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، اختار النصوص محمد درويش، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٩م؛ والعماد الأصفهاني، البرق الشامي؛ وأبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، وابن الأثير، التاريخ الكامل؛ وابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر؛ من الدراسات الحديثة، أحمد الشامي، صلاح الدين والصليبيون، تاريخ الدولة الأيوبية، ط١، مكتبة النهضة العربية، القاهرة ١٩٩١م؛ د. محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين تركيبي، تنظيمه، أسلحته، تجربته، وأبرز المعارك التي خاضها، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

تاج الملوك بوري^(١) بن نجم الدين أيوب، المكنى بأبي سعيد، والمُلقب بـ مجد الدين^(٢)، أجمعت المصادر أنه ولد سنة (٥٥٦هـ) في ذي الحجة^(٣)، ويبدو أنه أطلع على فنون الثقافة في عصره واستوعبها في سن مبكرة؛ فكان أديباً، شاعراً، موفور الذكاء، عذب اللفظ، حلو الحديث^(٤)، له ديوان شعر^(٥)، نوّهت المصادر بشخصيته وعلمه وشجاعته فوصفه العماد قائلاً: "الأجلّ تاج الملوك .. ذو الكرم الظاهر، والمحتد الطاهر، والفخر الصادع فجره .. نشأ بالفضل مُتَشَبِّهاً، وبالفصل متحدثاً، وبالنبيل متبعثاً ... " ^(٦)، وهو إلى جانب هذه النشأة على الفضيلة والعلم والنبيل جمع إليها محاسن أخلاق، ولطف طباع، وفضلاً، وكرماً

(١) بُوزِي، بضم الباء، وسكون الواو، وكسر الراء، وبعدها ياء مثناة، لفظ تركي معناه بالعربية ذئب، ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ٢٩٢/١.

(٢) العماد الأصفهاني، الخريدة (بداية قسم الشام): ١٢٩؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢٩٢/١؛ انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، باعتناء جاكين سوبله، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م: ٣٢٠/١٠.

(٣) ابن الجوزي، مرآة الزمان، وقائع سنة (٤٩٥-٥٨٩)، ق ١ ج ٨: ٣٧٨؛ انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢٩٢/١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٨٧/٦؛ الحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت ٨٧٦هـ)، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، وزارة الثقافة، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨: ٥٦.

(٤) جمال الدين الشّيال، شاعر من البيت الأيوبي يموت في سن الشباب، مجلة الثقافة المصرية، العدد ١٣٠، حزيران، ١٩٤١م: ٨٢٥.

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢٩٠/١؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٣٧٨/٨.

(٦) العماد الأصفهاني، الخريدة (بداية قسم شعراء الشام): ١٣٤، ١٣٥.

وشجاعة^(١)، ولم يقتصر نشاطه على العلم والفضل والشعر إنما كان جندياً مقاتلاً، وقائداً شجاعاً، شارك أخاه القائد صلاح الدين الأيوبي في جهاده ضد الفرنجة على الرغم من صغر سنة ، وقاتل تحت لوائه ، ففي سنة (٥٧٨هـ) حينما قام صلاح الدين بالإغارة على بعض نواحي الفرنج كان بوري إلى جانبه ، وكان قد أمره على الناس وأمره أن يسير بهم يُمَنة منه^(٢) ، كما اشترك بوري سنة (٥٧٩هـ) في حصار حلب إلى جانب أخيه؛ وقاتل باندفاع الشباب ، وبقوة الفرسان وشجاعتهم^(٣) ، وأشاد العماد بشجاعته في هذه الواقعة قائلاً : " يشك بالرديني ردن الردى ، .. وهو مقدم متذمر ، متهور متمرن ، على حب الكريهة متتمر .. "^(٤)، وقد قاتل بوري بشجاعة فائقة واستمر في جهاده حتى قتل على حلب سنة (٥٧٩هـ)^(٥)، وكان شاباً صغير السن عمره ثلاثاً وعشرين سنة ، وحينما وصل نبأ مقتله لأخيه صلاح الدين قال : " ما وقعت حلب علينا رخيصة بموت بوري "^(٦).

(١) سبط الجوزي ، مرآة الزمان : ٣٧٨/٨؛ انظر العماد الحنبلي ، شذرات الذهب : ٢٦٥/٤.

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية : ٣٣١/١٢.

(٣) أبو شامة المقدسي ، الروضتين : ١٠٦/٣.

(٤) العماد الأصفهاني ، البرق الشامي ، تحقيق : فالح حسين ، ط ١ ، عمان ، الأردن، ١٩٨٧م : ١١٣/٥ ، ١١٤.

(٥) تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي (ت ٥٨٧هـ) ، مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق : حسن حبشي ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٨ : ١٤٤؛ انظر ابن خلكان ، وفيان الأعيان : ٢٩٢/١؛ ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٣٧٨/٨؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٣٢٠/١؛ ابن تغري بدري ، النجوم الزاهرة : ٨٧/٦.

(٦) ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي : ٩١/٢.

ومن أعلام بني أيوب، الملك المنصور، فرُّوخشاه بن شاهنشاه ابن أيوب وكنيته أبو سعد، ولقبه عز الدين^(١)، ولد بدمشق^(٢)، وكان كريماً، فاضلاً، شجاعاً، عالماً بالأدب وغيره، وله شعر جيد^(٣)، وكان يكثر مخالطة أهل الفضل والعلم، وتربطه بهم صلات حميمة ولا سيما الصدر الكبير أبو اليمن الكندي مشيره، ورفيقه، "ومن أخص خواصه"^(٤)، وكثيراً ما كان يجالس العماد الأصفهاني يحضره ويسامره^(٥).

وقد جمع فروخشاه إلى فضله وعلمه صفاتاً وأخلاقاً حميدة، فهو كثير التواضع والبر^(٦)، والصدقات، جواد مقدام، متصل من المظالم^(٧)، وكان رجل سياسة بارعاً، أظهر قدرات متميزة، وحنكة سياسية ودراية بأمور الدولة والجهاد ونوّه به العماد قائلاً: "لقد كان همّاماً، مقداماً،

(١) العماد الأصفهاني، الخريدة (بداية قسم الشام) : ١١٣؛ انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ : ٤٩١/١١؛ ابن الجوزي، مرآة الزمان : ٣٧٢/٨؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب : ٢٦٢/٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة : ٨٥/٦.

(٢) ويلقب أيضاً معز الدين؛ انظر أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين : ١٠٦/٣.

(٣) العماد الأصفهاني، الخريدة (بداية قسم الشام) : ١١٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ : ٤٩١/١١.

(٥) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين : ١٢٩/٣.

(٦) العماد الأصفهاني، البرق الشامي : ٨٥/٣.

(٧) العماد الحنبلي، شذرات الذهب : ٢٦٢/٤.

(٨) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان : ٣٧٢/٨.

سيداً، قمقاماً .. وتقياً وذكياً..^(١)، ولعل ما تميز به من صفات أهل الفضل والعلم وحنكة أهل السياسة جعلته أثيراً مقرباً لدى عمه السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي اعتمد عليه في إدارة شؤون دولته في غيابه؛ فعندما قصد صلاح الدين حلب سنة (٥٧٠هـ) أنابه عنه بدمشق لتسديد الأمور فيها وسد الثغور^(٢)، كما اعتمد عليه في آخر سنة (٥٧٤هـ) حينما وصلت الأنباء بخروج الفرنجة بجموعهم إلى دار الإسلام، فجهزه السلطان وولاه على عساكر دمشق فالتقى الغزاة، وقتل مقدمهم هنفري^(٣): " فجرى من النصر الذي لم يحتسب والنجح^(٤) الذي إلا بعون الله لم يكتسب " ^(٥)، ولتقة السلطان صلاح الدين به فقد أنعم عليه ببلبك، وفوض إليه أمورها وأعمالها سنة (٥٧٥هـ)^(٦)، فقام بضبطها، وإصلاح أحوالها أحسن قيام^(٧)، وتنسب إليه المدرسة الفروخ شاهية بالشرق الشمالي بدمشق^(٨) .

(١) العماد الأصفهاني ، البرق الشامي : ١٦١/٣ .

(٢) العماد الأصفهاني، البرق الشامي : ١٨/٥ .

(٣) هنفري ، هو صاحب الناصرة ، من أكابر ملوك الفرنج وشجعانهم قتل على يد فروخشاه في هذه الحملة، ابن كثير : البداية والنهاية : ٣٢٠/١٢ .

(٤) النجج : الظفر بالشئ، ابن منظور ، لسان العرب : ٤٤/١٤ .

(٥) العماد الأصفهاني، البرق الشامي : ١٤٩/٣ .

(٦) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر : ١٤٣/٢ .

(٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان : ٤٥٣/٢ .

(٨) ابن كثير، البداية والنهاية : ٣٣٢/١٢ .

أجمعت المصادر على أنه توفي سنة (٥٧٨هـ) ^(١)، في جمادي الأولى بدمشق ودفن في قبته التي بمدرسته المطلة على الميدان في الشرق الشمالي، وهو أخو صاحب حماة تقي الدين ^(٢).

ومنهم تقي الدين، عمر بن شاهنشاه ^(٣)، المكنى بأبي سعيد، ولد سنة (٥٣٤) ^(٤)، وسمع من الحافظ السلفي، وأبي طاهر بن عوف وغيرهم ^(٥)، وأظهر اهتماماً كبيراً في مجالات العلوم المختلفة، وخاصة أنه صاحب فضل وأدب وشعر حسن ^(٦)، وقد حفظت لنا المصادر قدراً من شعره ^(٧)، وذكر ابن تغري بردي أن له ديوان شعر ^(٨)، ونوه العماد به ووصفه أنه " ذو السيف والقلم، والبأس والكرم،.. يساجل العظماء، ويجالس العلماء،.. ولكثرة امتزاجه بهم، نظم الشعر طبعاً ... " ^(٩).

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ : ٤٩١/١١؛ انظر أبا شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين : ١٢٦/٣؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان : ٤٥٣/٢؛ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب : ١٧٤/٢؛ أبي الفداء، المختصر في أخبار البشر : ١٤٧/٢.

(٢) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب : ٢٦٢/٤.

(٣) العماد الأصفهاني، الخريدة (بداية قسم شعراء الشام) : ٨٠، ٨١.

(٤) أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين : ١٢٧/١.

(٥) المنذري، التكملة : ١٦٠/١؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى : ٢٤٢/٧.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب : ٣٧٦/٢.

(٧) العماد الأصفهاني، الخريدة (بداية قسم شعراء الشام) : ٨٥-١١٢.

(٨) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة : ١٠٣/٦.

(٩) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم الشام) : ٨١.

وكان رجل سياسة وحرب، انضوى تحت لواء عمه صلاح الدين، وشاركه في حروبه وقاتله الغزاة، فكانت له وقائع مشهورة، فقد أبلى بلاءً حسناً في نوبة الرملة^(١)، ووصف العماد شجاعته في هذه النوبة قائلاً : " كانت للملك المظفر تقي الدين في هذه الغزوة اليد البيضاء، وأفنت الأعداء منه المنية الحمراء " ^(٢)، وقد أقطعه عمه السلطان حماة سنة (٥٧٤هـ) ^(٣)، فساسها بالعدل حتى أمنت مسالكها^(٤)، وفي سنة (٥٧٥هـ) جهز السلطان العساكر تحت قيادة تقي الدين فتصدى لصاحب الروم^(٥)، الذي طمع بحصن رعبان^(٦)، وتقدم بعساكره إليه وقد بلغ عددهم عشرين ألفاً، وسار إليهم تقي الدين في ألف فارس، وكان النصر حليفه، وكان تقي الدين يفتخر بهذا النصر ويقول : " هزمت بألف عشرين ألفاً " ^(٧).

(١) انظر حول هذه النوبة، العماد الأصفهاني ، البرق الشامي: ٣٦/٣-٤١ .

(٢) العماد الأصفهاني ، البرق الشامي : ٣٩/٣ .

(٣) انظر ابن واصل ، مفرج الكروب : ٧٤/٢؛ أبا الفداء ، المختصر في أخبار البشر : ١٤١/٢

(٤) العماد الأصفهاني ، البرق الشامي : ١٤٥/٥ .

(٥) هو عز الدين قلج أرسلان بن مسعود السلجوقي ملك الروم (ت ٥٨٨هـ) ؛ الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، ط١، بيروت، ١٩٩١م : ١٢١/٣ .

(٦) رعبان : مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٥١/٣ .

(٧) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر : ١٤٢/٢ .

يبدو أنه تقدم عند عمه السلطان صلاح الدين، ونال الاحترام والتقدير وعلو الشأن؛ فسيرة سنة (٥٧٩هـ) إلى الديار المصرية للنيابة بها وأنعم عليه بإقطاعات عديدة^(١)، غير أنه عاد واستدعاه من مصر سنة (٥٨٢هـ) بعد أن رتب أمرها لولده الملك العزيز عثمان وأرسل معه الملك العادل^(٢)، الأمر الذي كدر صفو تقي الدين عمر، فعزم على المضي إلى بلاد المغرب يملكها، رافضاً الامتثال لأمر عمه بالعودة غير أنه ثنى عن عزمه وحضر إلى خدمة عمه، فصفح عنه، وأعطاه حماه^(٣)، ومدناً كثيرة حولها في بلاد الجزيرة فمضى إليها وطمع بما حولها فاستولى عليها^(٤)، ثم نازل منازل كرد^(٥)، فمرض أثناء حصارها، وتوفي سنة (٥٨٧هـ) الجمعة التاسع عشر من رمضان^(٦).

(١) العماد الأصفهاني، البرق الشامي: ١٥٥/٥، ١٥٦.

(٢) أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين: ٢٥٥/٣؛ انظر: أبا الفداء، المختصر في أخبار البشر: ١٥٣/٢، ١٥٤.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤٥٧/٣.

(٤) انظر ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٣٧٥/٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٣٦٩/١٢.

(٥) منازل جرد: وأهله يقولون منازل كرد، بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم يعد في أرمينية وأهله أرمن و روم، ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٢٠٢/٥.

(٦) أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين: ٢٩٠/٤؛ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٣٧٦/٢؛ المنذري، التكملة: ١٥٩/١؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٣٦٩/١٢؛ الذهبي، العبر: ٩٤/٣؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي: ١٠٢/٢.

ومن أعلام بني أيوب الملك المنصور، أبو المعالي محمد بن تقي الدين عمر^(١)، عُين بعد وفاة والده مكانه، وكاد أمره يضطرب مع السلطان صلاح الدين لولا تدخل وشفاعة الملك العادل فيه لدى السلطان^(٢)، وقرّر له حماة وسلمية^(٣)، والمعرّة، ومنبج^(٤)، وقلعة نجم^(٥)، وقد استطاع الملك المنصور محمد بعد ان تولّى أمر البلاد النهوض بأمور مملكته نهضة عظيمة تشهد له بحسن إدارته ورجاحة عقله، وعمل على ترسيخ أركان مملكته بما قام به من أعمال جليلة تمثلت بعمارة البلاد وتحصين أسوارها، فبنى الجسر المعروف بالحديد بظاهر حماة وأعاد بناء قلعة حماة كلها بالحجر والكس حتى أصبحت في غاية الحسن ووسّعها، وعمّق خنادقها، حتى ضاهت قلعة حلب^(٦)، واهتمّ بأمر عسكره، وخدمه أكابر الأمراء^(٧).

(١) ابن الشعار الموصلّي، المبارك بن أحمد بن حمدان (ت ٦٥٤هـ)، قلاند الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، عن مخطوطة رقم ٢٣٢٧، مكتبة السليمانية، استانبول: ٣٠٠/٦، ٣٠١.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب : ٣٧٧/٢، ٣٧٨؛ انظر أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر : ١٦٧/٢.

(٣) سلمية : بليدة في ناحية البرية من أعمال حماه، ياقوت الحموي، معجم البلدان : ٢٤٠/٣.

(٤) منبج : مدينة كبيرة، ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة، ياقوت، معجم البلدان : ٢٠٦/٥.

(٥) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر : ١٦٧/٢.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب : ٨٠/٤.

(٧) انظر، المصدر نفسه : ٧٨/٤.

ويبدي الملك المنصور اهتماماً واضحاً بأمر رعيته فلا يحتجب عنهم^(١) ، كما يبدي اهتماماً كبيراً بأمور القضاء، والتدريس، ويسند مناصبها لأهل الفضل والعلم المعروفين؛ فقد أسند القضاء في مملكته للقاضي ضياء الدين الشهرزوري وهو من بيت قضاء معروف ، كما ولّى هذا المنصب الهام للقاضي نجم الدين أبي البركات عبد الرحمن ابن عسرون^{(٢)(٣)}.

ومن مظاهر اهتمامه بالناحية الثقافية في بلاده، قيامه ببناء مدرسة بظاهر حماه عند قبر والده، ووقف عليها وقفاً جليلاً^(٤)، كما أبدى اهتماماً بقدوم الآمدي إلى حماة، فقام ببناء مدرسة له، وأجرى له الجامكية الكثيرة^(٥).

كان الملك المنصور محمد فاضلاً ، عالماً ، شاعراً ، ناثراً ، يحب أهل العلم حريصاً على استقطابهم إلى بلده ، وكان يُنيلهم الجوائز الكثيرة " فوفد إليه العلماء من كل قطر وأتوه من سائر البلاد ..."^(٦)، وكان في خدمته ما يناهز مائتا معمم من بين فقيه ، ونحوي ، ولغوي ، وشاعر ..،

(١) المقرئزي ، المقفى الكبير : ٤١٥/٦ .

(٢) نجم الدين عبد الرحمن بن أبي سعد شرف الدين عبد الله ابن ابي عسرون ؛ انظر ابن واصل ، مفرج الكروب : ٧٧/٤ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٧٩/٤؛ انظر المقرئزي، المقفى الكبير: ٤١٥/٦ .

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب : ٨٠/٤ .

(٥) المصدر نفسه : ٧٨/٤ .

(٦) المقرئزي ، المقفى الكبير : ٤١٤/٦ .

ومن المشتغلين بالعلوم الحكيمة ، والمهندسين وغيرهم^(١)، كما كان يكثر من مطالعه الكتب ومراجعتها وقد جمع في خزانته من كتب العلوم مالا مزيد عليه^(٢)، ولعل هذه البيئة التي كانت تحفل بالعلماء المتوافدين إليها ومخالطة المنصور لهم بالإضافة الى موهبته كشاعرٍ أهّلته للكتابة في مجالات العلوم ، فترك مصنفات هامة ، نذكر منها كتاب (مضمّار الحقائق في تاريخ الخلائق) وهو في عشرين مجلداً ، وكتاب (طبقات الشعراء) وكتاب (درر الآداب) في التاريخ وكتاب (شغف وطرب) وكتاب (روض العاشق والمعشوق) وكتاب (مختصر المسائل في الفقه لابن الصباغ)، وله ديوان شعر^(٣).

وتوفي في ذي القعدة سنة (٦١٧هـ) بقلعة حماة بعد أن مرض بحمى حادة فأدت به إلى أن ورم دماغه، واشتعل ذهنه^(٤).

ومن أعلام بني أيّوب ، الملك الأمجد بهرام شاة بن فرخشاة ابن شاهنشاة بن أيّوب ، أبو المظفر ، مجد الدين^(٥)، ويبدو أنّ المصادر التي

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٧٩/٤.

(٢) المصدر نفسه : ٨٠/٤.

(٣) المقرئزي ، المقفى الكبير : ٤١٤/٦ ، ٤١٥.

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٧٧/٤.

(٥) الكتبي ، فوات الوفيات والذيل عليها : ٢٢٦/١؛ انظر ابن الفوطي ، أبا الفضل عبد الرزاق (ت٧٢٣هـ) ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، تحقيق: مصطفى جواد ، المكتبة العربية ، بغداد ، ١٣٥١هـ : ٢٦ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، الطبقة (٦٣) : ٢٨١.

تحدثت عنه أغفلت الحديث عن نشأته الأولى وسنة ولادته ، ويتعجب ابن كثير من أبي شامة المقدسي الذي اغفل ذكره في الذيل^(١).

كان الملك الأمجد بطلاً من أبطال الحروب الصليبية، وقد شارك في صد غارات الإفرنج عن بلاده^(٢)، وقد أجمعت المصادر أن الملك الناصر صلاح الدين أسند إليه ولاية بعلبك^(٣) بعد موت أبيه فرخشة سنة (٥٧٨هـ)^(٤)، وكان ملكاً جليلاً، فاضلاً، يحب أهل الفضل، والعلم، والشعر، " ويجيزهم بالجوائز الكثيرة"^(٥)، وكان من خواصه المقربين تاج الدين أبو اليمن البغدادي^(٦).

واستمر حكمه في بعلبك حوالي خمسين سنة إلى أن انتزعت منه سنة (٦٢٧هـ)، وذلك حينما أخذها منه ابن عمه الأشرف موسى^(٧)، بعد

(١) انظر ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٤١/١٣.

(٢) انظر حول ذلك مجد الدين ، بهرام شاه الأيوبي (ت ٦٢٨هـ) ، ديوان الملك الأمجد بهرام شاه ، تحقيق : ناظم رشيد ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، بغداد ، ١٩٨٣ : ٣٠-٣٤.

(٣) بعلبك: مدينة قديمة فيها ابنية وآثار عظيمة قريبة من دمشق ، وهو اسم مركب من بعل اسم صنم، وبك أصله من بكَّ عنقه أي دقها ، وتباكَّ القوم أي ازدحموا ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٤٥٣/١.

(٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٤٥٣/٢؛ انظر ابن واصل ، مفرج الكروب : ٨٦/٢؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ٢٤٥/٦.

(٥) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢٨٥/٤.

(٦) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان : ٥٧٥/٨.

(٧) الملك الأشرف موسى بن العادل، أبو بكر محمد صاحب دمشق ، ملك بعد وفاة أبيه ديار الجزيرة (ت ٦٣٥هـ) واستولى أخوه الملك الصالح اسماعيل على دمشق بعده ، ابن الفوطي البغدادي ، الحوادث الجامعة : ١٠٥، ١٠٦.

مضايقة العسكر الدمشقي لها وحصار ضرب حولها استمر عشرة أشهر^(١)، وسلّمها الأشرف موسى ، الى أخيه الصالح إسماعيل^(٢)، وعوّضه الملك الأشرف عن بعلبك الزبداني^(٣)، وقصير دمشق ، ومواضع أخرى، وانتقل الأمجد من بعلبك، وأقام بداره المعروفة بدار السعادة بدمشق^(٤).

قتل الملك الأمجد سنة (٦٢٨هـ) على يد مملوك له في داره، وكان الأمجد قد حبسه في داره، فجلس ليلة يلعب بالنرد، ففتح المملوك الباب، وكان يحمل سيفاً، فقتل به الملك الأمجد، ثم طلع المملوك إلى سطح الدار، ورمى بنفسه فمات^(٥)، أما سبب حبس المملوك ذكر ابن واصل أنه سرق دواة محلات للملك الأمجد وألزمه الأمجد إحضارها ، فلم يعترف بها فأمر باعتقاله^(٦)، في حين ذكر ابن كثير أن الأمجد كان قد اتهم المملوك في صاحبة له وحبسه^(٧)، كان الأمجد شاعراً فصيحاً ، ترك ديوان شعر^(٨).

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢٨٤/٤.

(٢) الكتبي ، فوات الوفيات : ٢٢٦/١.

(٣) الزبداني : كورة مشهورة معروفة بين دمشق وبعلبك ، ياقوت الحموي : معجم البلدان : ١٣٠/٣.

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢٨٤/٤؛ أبو الفداء ، المختصر في اخبار البشر : ٢٤٤/٢.

(٥) المصدر نفسه : ٢٨٤/٤ ، ٢٨٥.

(٦) المصدر نفسه : ٢٨٤/٤.

(٧) ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٤١/١٣.

(٨) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ٢٤٥/٦.

ومنهم الملك الأفضل عليّ بن الملك الناصر يوسف بن أيّوب ،
المكنى بأبي الحسن، ولد بمصر سنة (٥٦٥هـ) ^(١)، ونشأ بها وسمع
على شيوخها أمثال: أبي الطاهر بن عوف، وأبي محمد عبد الله بن برّي
النحوي ^(٢)، وأجاز له أبو الحسين أحمد بن حمزة بن علي السلمي، وأبو
عبد الله محمد بن علي الحرّاني وغيرهم ^(٣)، فنشأ الملك الأفضل محباً
للعلم والعلماء، وفيه فضيلة، ومعرفة ونباهة ^(٤)، نوّه العماد بفضله قائلاً: "كان
الملك الأفضل رحمه الله فاضلاً، متأدباً ينظم الشعر الجيد" ^(٥).

انتقل الملك الأفضل إلى دمشق سنة (٥٨٢هـ) بناءً على رغبة
والده السلطان الذي أرسل يستدعيه بجميع أهله وأصحابه ^(٦)، ليكون وليّ
عهده في دمشق وأعمالها، والأرض المقدسة وأعمالها ^(٧)، وبعد وفاة والده
صلاح الدين الأيوبي استقل الملك الأفضل بدمشق وذلك سنة
(٥٨٩هـ) ^(٨)، أما باقي الولايات فقد وزّعت بين أبناء صلاح الدين
وأفراد أسرته، ولعل ذلك كان من أهم الأسباب التي أدّت فيما بعد لنشوب

(١) المنذري ، التكملة : ١٤/٣ .

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن بري بن عبد الجبار النحوي ، كان آية في علم النحو ثقة ،
عالمًا توفي (٥٨٢هـ) ؛ انظر أبا الفداء ، المختصر : ١٥٤/٢ ؛ ابن العماد الحنبلي ،
شذرات الذهب : ٢٧٣/٤ .

(٣) ابن خلّكان ، وفيات الأعيان : ٤١٩/٣ ؛ المنذري ، التكملة : ١٤٠/٣ .

(٤) ابن خلّكان ، وفيات الأعيان : ٤٢٠/٣ .

(٥) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٣٨/٣ .

(٦) أبو شامة المقدسي ، الروضتين : ٢٥٥/٣ .

(٧) أبو شامة المقدسي ، ذيل الروضتين : ١٤٥ .

(٨) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ : ٤٢٨/١٢ ؛ المقرئزي ، السلوك : ج ١ ق ١ : ٢١٦ .

فتنة بين أبناء هذا البيت؛ إذ أن الوحدة التي سعى الملك الناصر صلاح الدين جاهداً لتحقيقها، سرعان ما بدأت بالتفكك، بسبب الخلافات بين أبناء الأسرة الأيوبية^(١)، وعبر القاضي الفاضل عن هذا المعنى بدقة قائلاً: "أما هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا والأبناء اختلفوا فهلكوا.." ^(٢).

ويبدو أن إدارة الملك الأفضل للبلاد التي وليها تميّزت بالضعف ممّا أتاح الفرصة أمام الطامعين من آل بيته، أمثال أخيه العزيز^(٣)، وعمه العادل^(٤)، لشن الحرب ضده، فعندما تسلم الأفضل البلاد التي وليها فوض أمور دولته لوزيره ضياء الدين ابن الأثير^(٥) الذي حسن له إبعاد أكابر أمراء دمشق عنه فاستجاب له الأفضل ففارقوه إلى الديار المصرية عند الملك العزيز، و"حسنوا له الاستبداد بالملك والقيام بالسلطنة مقام أبيه"^(٦)، ولعل أهم أسباب الخلاف بين الأخوين الأفضل والعزيز هو رجوع

(١) حول خلافات بني أيوب انظر: هنرييت سابا، اتجاهات الشعر العربي في القرن السابع الهجري في بلاد الشام، رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة القاهرة، ١٩٨٠م: ١٥-٢٤.

(٢) ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٤٢٠/٣.

(٣) هو عماد الدين أبو الفتح عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف (ت ٥٩٥هـ)، ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٢٥١/٣.

(٤) العادل، هو محمد بن أيوب يكنى أبا بكر، ويلقب سيف الدين، وينعت بالملك العادل صاحب الديار المصرية، والشامية فيما بعد، ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ)، تاريخ ابن الفرات، تحقيق: حسن محمد الشماخ، دار الطباعة الحديثة، العراق - البصرة، ١٩٧٠م: ٥ ج ١: ٢٣٢.

(٥) ضياء الدين نصر الله محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت ٦٧٧هـ)، ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ١٥٨/٢.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب: ١٠/٣.

الأفضل عن قراره بالتخلي عن بيت المقدس لآخيه العزيز ، فاستمر النزاع بينهما^(١)، غير أن وقوف الملك العادل إلى جانب العزيز حسم أمر هذا الصراع لصالح العزيز ، فتسلم العزيز دمشق وجعل عليها عمه العادل نائباً عنه مع بقاء السكة والخطبة للعزيز^(٢) ، وبذلك أصبح العزيز سلطان البيت الأيوبي بالديار المصرية ، والعادل بدمشق^(٣) .

أما الأفضل فقد مضى بأهله إلى صرّخد^(٤)، وسكنها^(٥)، وبعد وفاة العزيز سنة (٥٩٥هـ)، وليّ ولده الصغير الملك المنصور امر مصر فطلبَ عمه الأفضل ليكون أتابكه^(٦)، غير أن العادل سبقه إليها وأرسل يقول له: " أنا لا أحب أن أكسر ناموس القاهرة ، لأنها أعظم معقل الإسلام ، ولا تحوجني إلى أخذها بالسيف واذهب إلى صرّخد وأنت آمن على نفسك " ^(٧)، وقبل الأفضل بذلك مقابل تعويضه بعدة بلاد بالشرق لم

(١) ابن واصل، مفرج الكروب : ١٤/٣ ، ١٥ .

(٢) المصدر نفسه: ٦٩/٣؛ ابن الوردي ، تاريخه : ١٠٩/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٧٦/٣ .

(٤) صرّخد : بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق ، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان: ٤٠١/٣ .

(٥) ابن واصل ، مفرج الكروب: ٦٧/٣ .

(٦) ابن خلّكان ، وفيات الأعيان: ٤٢٠/٣ ؛ المقريزي ، المقفى الكبير: ٢٢٠/٦؛ السلوك: ج ١ ق ١: ٢١٦؛ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقرئية ، تحقيق : محمد زينهم ، ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة ، ١٩٩٨ م : ١١٩/٣ .

(٧) ابن واصل ، مفرج الكروب : ١٠٩/٣ .

يحصل له منها سوى سُميساط^(١)، فأقام بها إلى أن مات فجأة في صفر سنة (٦٢٢هـ)^(٢).

ومن أعلام هذا البيت شرف الدين عيسى بن العادل سيف الدين أبي بكر ابن أيوب ، والملك المعظم، ولد بالقاهرة سنة (٥٧٨هـ)، وقيل (٥٧٦هـ)^(٣)، وقد نشأ بالشَّام، وحفظ القرآن^(٤)، وتتلذذ على مشايخ عصره في مجالات العلوم والفنون الأدبية ؛ فقد تفقه على يد الإمام جمال الدين الحَصِيرِي^(٥)^(٦)، وسمع من أبي علي حنبل بن عبد الله البغدادي ، وأبي حفص عمر بن طبرزد ، والقاضي أبي محمد عبد الله بن محمد المُجَلِّي^(٧)، فسمع (المُسند) لابن حنبل^(٨)، وحفظ المسعودي^(٩).

(١) سُميساط : مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات ولها قلعة في شقٍّ منها يسكنها الأرمن ، ملكها الأفضل علي بن الملك الناصر يوسف ابن أيوب ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٢٥٨/٣.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب : ١٥٥/٤؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ : ٤٢٨/١٢؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر : ٢٣٢/٢؛ الذهبي ، شمس الدين محمد ابن أحمد (ت ٧٤٨هـ) ، تهذيب سير أعلام النبلاء : ١٣٥/٣؛ أبو شامة المقدسي ، ذيل الروضتين : ١٤٥؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ٣٨٢/٦.

(٣) ابن خلّكان ، وفيات الأعيان : ٤٩٤/٣ ، ٤٩٥.

(٤) الذهبي ، العبر : ١٩٤/٣.

(٥) هو محمود بن أحمد بن عبد السيّد ، جمال الدين ، أبو المحامد المعروف بالحَصِيرِيّ، قدم الشَّام ، ودرّس بالنُّوريّة ، توفي (٦٣٦هـ) ؛ محي الدين القرشي ، الجواهر المضيئة : ٤٣١/٣.

(٦) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢١٠/٤؛ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر : ٢٣٦/٢.

(٧) المنذري ، التكملة : ٢١٢/٣.

(٨) العماد الحنبلي ، شذرات الذهب : ١١٥/٥.

(٩) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ٢٣٧/٦.

وشرح (الجامع الكبير) في عدة مجلدات^(١)، وقد انفرد المعظم عن آل بيته بالمذهب الحنفي، وكانوا كلهم شافعية^(٢)، وتعصب له، وبلغ في علمه به المنزلة الرفيعة، وكان بارعاً به، فتمكّن من تصنيف كتاب (السّهم المصيب في الردّ على الخطيب) رد فيه على (تاريخ بغداد) للشيخ أبي بكر أحمد بن ثابت الذي ورد فيه مطاعن على أبي حنيفة ، فرد المعظم عن كل مطعن ذكره بأحسن جواب^(٣)، فكان هذا المصنف برهاناً على علو كعبه في مجال الفقه، ولم يكتفِ المعظم بالعلوم الدينية إنّما اهتمّ بالأدب، والنحو، وكان شيخه تاج الدين الكندي قد لازمه مدة فقرأ عليه كتاب (سيبويه وشرحه) للسّيرافي، وأخذ عنه (الحجة في القراءات) لأبي عليّ الفارسيّ ، و (الحماسة)، وحفظ (الإيضاح) في النحو^(٤)، و (مفصل الزمخشري)^(٥) ، فكان " عالماً، فاضلاً ، متقناً في الفقه، والنحو، وغيرهما " ^(٦) ، كما صنف في العروض ، وله ديوان شعر^(٧) .

(١) الذهبي ، العبر : ٣/١٩٤؛ تاريخ الإسلام ، الطبقة (٦٣) حوادث (٦٢١-٦٣٠) : ١٨٦.

(٢) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر : ٢/٢٣٦؛ ابن الوردي ، تاريخه : ٢/١٤٥.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٤/٢١٢.

(٤) الذهبي ، تاريخ الاسلام ، الطبقة (٦٣) : ١٨٦.

(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٣/١٣١.

(٦) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٤/٢١٠.

(٧) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ٦/٢٣٧.

استقل المعظم بملك دمشق سنة (٦١٥هـ) بعد موت والده الملك الكامل^(١)، وكانت ولايته تضمّ دمشق ، وبيت المقدس ، والكرك ، والشوبك، والسواحل^(٢) وقد عُنِيَ المعظم بأمر دولته ، ولا سيّما القوة العسكرية التي تتمثل بأمر الجند ، وكانت عدّة جنده تبلغ حوالي ثلاثة آلاف فارس " لم يكن عند أحد من إخوته جند مثّلهم في فرط تجملهم ، وحسن زيّهم .. " ^(٣) .

كما قام بتحسين بلاده وعمارتها عن طريق بناء سورٍ حول دمشق^(٤) ، وقام بالعديد من الاصلاحات والأعمال الجليّة في البلاد، إذ أمر بمسح الطريق المؤدية إلى الحج، وتسهيل المناطق الوعرة منها^(٥)، وجدّد البرك والمصانع ، وقام ببناء مسجد عند جعفر الطيار، وعمل بمعان دار مضيف وحمّامين^(٦)، وبنى فيه بالحرم الشريف وعليها وقفٌ جليلٌ ، وشرط أن لا يصرف من وقفها شيءٌ إلا للحنفية^(٧).

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٣٠/١٣ .

(٢) ابن العميد ، جرجس (ت ٦٧٢هـ)، أخبار الأيوبيين ، مكتبة الثقافة الدّينيّة ، بور سعيد ، مصر: ٩.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢٠٩/٤ .

(٤) الذهبي ، تاريخ الاسلام الطبقة (٦٣): ١٨٦ .

(٥) أبو شامة المقدسي ، ذيل الروضتين : ١٥٢ .

(٦) الذهبي ، تاريخ الإسلام : ١٨٦ .

(٧) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢١١/٤ .

وتحلى المعظم بصفات العلماء وأخلاقهم ، فكان متواضعاً لم يلتفت إلى الأبهة، والتعظيم، والمدح، الذي يرغب به الملوك^(١)، ولم يركب في السناجق السلطانية في غالب أوقاته، وكان يخترق الأسواق من غير أن يطرق بين يديه^(٢).

كما أحاط به جماعة من الفضلاء، وأهل العلم، لا يفارقونه في سفر ولا حضر^(٣)، وعمل على استقطاب العلماء إلى بلده، ومن هؤلاء سيف الدين الأمدي^(٤)، إذ أرسل يستدعيه سنة (٦١٧هـ—)، ليكون عنده بدمشق،.. وولاه التدريس بالمدرسة العزيزية^(٥)، كما عمل على نشر العلم بين الرعية في بلاده ؛ إذ جعل لمن يعرض (المِفْصَل) للزمخشري مئة دينار وخلعة ، ولمن يحفظ (الجامع الكبير) مئتي دينار ، ولمن يحفظ الإيضاح ثلاثين ديناراً^(٦) وعلق ابن خلكان على ذلك قائلاً : " فحفظه لهذا السبب جماعة ، ورأيت بعضهم بدمشق والناس يقولون إن سبب حفظهم له كان هذا.."^(٧).

(١) أبو شامة المقدسي ، ذيل الروضتين : ١٥٢.

(٢) السابق ، مفرج الكروب : ٢١٠/٤؛ أبو الفداء ، المختصر في اخبار البشر : ٢٣٦/٢.

(٣) انظر حول ذلك : المصدر نفسه : ٢١٤/٤ ، ٢١٥.

(٤) سيف الدين الأمدي ، هو أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي، الملقب سيف الدين (ت ٦٣١هـ) ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٢٩٣/٣ ، ٢٩٤.

(٥) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٣٧/٥ ، ٣٨.

(٦) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب : ١١٥/٥؛ القرشي ، الجواهر المضئية : ٦٨٣/٢.

(٧) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٤٩٥/٣.

ولم يكن المعظم رجل علم فحسب بل كان رجل حرب ؛ فهو بطلٌ من أبطال الحروب الصليبيّة، فقد وقف ضد الغزاة، فكانت له غارات وحروب ولا سيّما في واقعة دميّاط^(١)، إذ لبّى نداء الجهاد حينما أرسل الكامل يستحثه وإخوته لقتال الفرنج ،.. فاستجاب لهذا النداء وكان النصر حليف المسلمين^(٢)، وقد أدرك المعظم أهمية واقعة دميّاط ؛ فكان يقول : " واقعة دميّاط أدخرها عند الله تعالى وأرجو ان يرحمني بها " ^(٣)، توفي المعظم في ذي القعدة سنة (٦٢٤هـ) بقلعة دمشق^(٤).

ومن أعلام بني أيّوب الملك الكامل ، محمد بن الملك العادل أبي بكر محمد ابن نجم الدين أيّوب ، أبو المظفر ، ولد سنة (٥٧٦هـ)، وحدث بالإجازة عن كبار علماء عصره في مصر والشّام ، منهم: العلامة أبو محمد عبد الله بن برّي النحوي، وأبو القاسم هبة الله بن علي الأنصاري، وعن أبي عبد الله محمد بن علي بن صدّقه الحرّاني ، وأبي محمد عبد الرحمن بن علي الخرقى، وأبي الفضل إسماعيل بن علي الجنزوي وغيرهم^(٥) .

(١) انظر اخبار هذه الواقعة، ابن العميد ، أخبار الأيوبيين : ١١/١٠ .

(٢) ابن إياس الحنفي، محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ) ، بدائع الزهور في وقائع الدّهور، تحقيق: محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٢م: ج ١ ق ١: ٢٥٩، ٢٦٢.

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٣/١٣١ .

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٤/٢٠٨ .

(٥) المنذري، التكملة : ٣/٤٨٥ ؛ انظر الذّهبي ، تاريخ الإسلام الطبقة (٦٤) : ٢٣٦ .

وقد أظهر اهتماماً بالحديث الشريف، وأهله وحرص على حفظه، ونقله^(١)، وكما له اهتمام بالأدب، والشعر؛ ولا سيّما أنّه كان أديباً، فاضلاً، متفقهاً، وله شعر جيد^(٢).

يبدو أنّ والده أدرك أن الملك الكامل محمد من بين أخوته هو الأنسب لحكم الديار المصرية؛ فهو أكبر أولاده بعد مودود^(٣)، وهو من أقران أخويه المعظم والأشرف لكنّه أرفعهم وأجلّهم رتبة^(٤)، ونوّه ابن واصل بأبناء العادل قائلاً: " ولم أجد في شيء من التواريخ أن ثلاثة إخوة من الملوك اجتمع لهم من الشجاعة، والنجابة، والفضائل، ما اجتمع في أولاد الملك العادل الثلاثة وهم: الملك الكامل، والملك المعظم، والملك الأشرف وكان الملك الكامل أحزمهم وأسوسهم، والملك المعظم أشجعهم وأعلمهم، والملك الأشرف اسمحهم، وأنداهم كفاً " ^(٥)، فجعله الملك العادل نائباً عنه بديار مصر ووليّ عهده، حتّى صار يحكمها خلال غيبة والده ببلاد الشام بمفرده، ثم استقل بحكمها سنة (٦١٥هـ) بعد موت والده^(٦)، وخطب له في بلاد إخوته، وضربوا السكة باسمه^(٧).

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، الطبقة (٦٤): ٢٣٧.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة: ١٠٧.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٥٩/١٣.

(٤) الذهبي، تهذيب سير أعلام النبلاء: ١٩٠/٣.

(٥) ابن واصل، مفرّج الكروب: ١٧٠/٥.

(٦) المقرئ، الخطط المقرئية: ٤٦٨/٣؛ ابن دقمان (ت ٨٠٩هـ)، الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق: محمد كمال علي، ط ١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م: ٢٨/٢.

(٧) ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٨٩/٥.

وقد ساس البلاد بعدلٍ وحكمة وحسن تدبير ، وشهد له المؤرخون بذلك، فوصفه ابن خلكان قائلاً : " كان سلطاناً عظيم القدر، جميل الذكر، محباً للعلماء، متمسكاً بالسنة النبوية ، حسن الاعتقاد ، معاشراً لأرباب الفضائل ، حازماً في أموره ، لا يضع الشيء إلا في موضعه من غير إسراف ولا إقتار .. " (١)، وأشاد به ابن واصل فوصفه بأنه " ملكٌ ، جليلٌ، حازمٌ ، مهيبٌ ، شديد الآراء، حسن التدبير لممالكه " (٢)، وعزّز ذلك ابن كثير فوصفه إنه ذكيٌ ، عادلٌ ، منصفٌ له حرمة وافرة ، وسطوة قوية (٣).

وقد أدرك الكامل الخطر الصليبي الذي يُهدد البلاد الإسلامية ولا سيّما الديار المصرية ، فالاستيلاء على ثغر دميّاط يعني الاستيلاء على بلاد الشام ، وغيرها من مدن العالم الإسلامي ، فكان له اليد البيضاء في ردّه من يد الغزاة (٤) ، بمساندة العساكر الشامية التي جاءت لنجدة (٥)، فرحل الغزاة عن ثغر دميّاط يوم الجمعة السابع من شهر رجب سنة (٦١٨هـ) بعد إقامة دامت حوالي اربعين شهراً وسبعة عشر يوماً (٦).

وبعد أن استقرت له الأحوال تفرغ لعمارة بلاده ، وأنشأ دار الحديث المعروفة به بالقاهرة، وعمّر القبة على ضريح الإمام الشافعي، وأجرى الماء إلى حوض السبيل، والسقاية للذين بظاهر ضريح الإمام

(١) ابن خلكان، وفيات الاعيان : ٨١/٥.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب : ١٥٦/٥.

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٦٠/١٣.

(٤) المصدر نفسه : ١٦٠/١٣.

(٥) محمد الحنفي ، بدائع الزهور : ج ١ ق ١ : ٢٦١.

(٦) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٨٠/٥.

الشّافعي^(١)، وكان يباشر شؤون بلاده بنفسه، فعند زيادة النيل يخرج وينظر في الجسور وإصلاحها^(٢)، وقد أمنت الطرق في أيامه؛ إذ رتب عليها من يحفظها^(٣)، وأتسعت بلاده، فملك بلاد الحجاز، واليمن، ومكة التي خطب له بها سنة (٦٢٠هـ)^(٤)، وبعد وفاة أخيه المعظم عيسى سنة (٦٢٤هـ) أتيحت له الفرصة لمد نفوذه إلى دمشق، فحاصرها وضيق على أهلها، حتى أخرج ابن أخيه الناصر داود بن المعظم منها على أن يقيم له ملكاً بمدينة الكرك، والشّوبك، ونابلس وغيرها، ثم دفع دمشق لأخيه الأشرف مقابل بلاد الشرق: حرّان^(٥)، والرّها^(٦)، وسروج^(٧)^(٨)، والرّقة، ورأس عين، واستمرت مملكته في التوسع ففتح آمد سنة (٦٣٠هـ)، وأخرج صاحبها منها بعد حصار طويل^(٩)، ولعل طموحه في التوسع أوقع بينه وبين أخيه الأشرف، فأستحكمت الوحشة بينهما، بسبب رفض الكامل إعطاء الرّقة للأشرف، ورده بشكل غير لائق حينما طلبها مما أغضبه، فتحالف مع ملوك حماه وحلب، وبلاد الشرق

(١) المنذري، التكملة: ٤٨٥/٣.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب: ١٥٧/٥؛ المقرئزي، الخطط المقرئزي: ٤٧٤/٣.

(٣) جرجس بن العميد، أخبار الأيوبيين: ٢٢.

(٤) ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٨٢/٥.

(٥) حرّان: هي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين

الرّها يوم وبين الرّقة يومان، وهي على طريق الموصل والشّام والروم؛ ياقوت الحموي،

معجم البلدان: ٢٣٥/٢.

(٦) الرّهاء: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشّام، ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١٠٦/٣.

(٧) سروج: بلدة قريبة من حرّان من ديار مضر، ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٢١٦/٣.

(٨) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٨٤/١٢؛ انظر ابن واصل، مفرج الكروب: ١٦٠/٥؛

الذهبي، تاريخ الاسلام، الطبقة (٦٤) حوادث (٦٣١-٦٤٠هـ): ٢٣٩؛ ابن العماد الحنبلي،

شذرات الذهب: ١٧٢/٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٢٠٥/٦.

(٩) ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٨٣/٥؛ انظر اليافعي، مرآة الجنان: ٥٥/٤.

للخروج على الكامل ، وحال دون ذلك مَرَضُ الأشرف ووفاته بدمشق (٦٣٥هـ-) ، " فلو طال عمر الأشرف لأفسد الملك على أخيه " (١) وبعد وفاته خرج الكامل بعساكره إلى دمشق ، وشدّد عليها الحصار وقاتلها ، حتّى تسلّمها من الملك الصالح إسماعيل (٢) بن العادل (٣) ، وعوّضه عنها بعلبك ، والبقاع ، وبصرى والسّواد (٤) ، ولم يلبث الكامل بعد أخذ دمشق إلّا مُدّة يسيرة حتّى مرض واشتد مرضه فمات لسبع بقين من شهر رجب سنة (٦٣٥هـ-) ، ودفن بقلعة دمشق يوم الخميس الثاني والعشرين من رجب (٥) ، وبوفاته اقتربت نهاية الأيوبيين بسبب نزاعهم على السلطة (٦) .

ومنهم أيضاً داود بن عيسى بن مُحمّد بن أيّوب ، الملك الناصر ، أبو المفاخر (٧) ، وكان يُلقب بالحاكم (٨) ، ثم بالملك الناصر ، ولد في جُمادى الآخرة سنة (٦٠٣هـ-) بدمشق (٩) ، ودرس على شيوخ العلم في

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٥٦/١٢ ؛ انظر اليافعي ، مرآة الجنان : ٦٩/٤ ، ٧٠ .

(٢) الملك الصالح هو عماد الدين إسماعيل بن العادل محمد بن أيّوب ، عهد إليه الأشرف أمر دمشق بعد وفاته (ت ٦٤٨هـ-) ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ١٩١/٣ .

(٣) جرجس بن العميد ، أخبار الأيوبيين : ٢١ .

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب : ١٥٠/٥ ، ١٥١ .

(٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٩٢/٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب : ١٥٥/٥ ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء : ١٩١/٣ .

(٦) محمد الحنفي ، بدائع الزهور : ق ١ ج ١ : ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(٧) الكتبي ، فوات الوفيات : ٤١٩/١ ؛ محي الدين القرشي ، الجواهر المضئية : ١٨٨/٢ .

(٨) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢١٨/٤ .

(٩) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٤٩٦/٣ .

عصره، فسمع ببغداد من القطيعي وغيره ، وبالكرك من ابن اللتي ، وغيره^(١)، ولا شك أنه التقى بعدد كبير من العلماء، والأدباء في دولة أبيه، وخاصة أن والده المعظم كان عالماً ، فاضلاً " نفق العلم في سوقه وقصده العلماء من الآفاق " ^(٢)، وعُني الناصر داود بعلم الأوائل فاشتغل بعلم الكلام على الشمس الخُشروشاھی^{(٣)(٤)}، فنشأ " محباً للعلماء ، مُقرباً لهم، مُحسناً إلى من يقدّم عليه منهم كثيرَ العطاء لهم " ^(٥)، وكان ممن وفد عليه ومدحه من الشعراء راجح الحلي^(٦)، فأجزل له العطاء^(٧).

ونوّعت المصادر بفضلَه، وعلمه، فوصفته بأنه كان " حنفيّاً ، فاضلاً ، مناظراً ، ذكياً ، بصيراً بالأدب، بديع النظم ، كثير المحاسن "^(٨)، و" له اليد البيضاء في الشعر، والأدب " ^(٩)، وذهب تقي الدين الحنفي إلى

(١) الكتبي ، فوات الوفيات والذيل عليها : ٤١٩/١.

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ : ٤٧٢/١٢.

(٣) الخُشروشاھی : هو شمس الدين عبد الحميد بن عيسى أحد مشاهير المتكلمين (ت ٦٥٢هـ) ، ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٩٨/١٣.

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية : ٢١١/١٣.

(٥) انظر ، تقي الدين الحنفي ، الطبقات السنية : ٢٢٥/٣.

(٦) هو شرف الدين راجح بن إسماعيل الجلي ، مدح الملوك بمصر والشام توفي (٦٢٧هـ) ، الكتبي ، فوات الوفيات ٢١٨/١.

(٧) انظر ، تقي الدين الحنفي ، الطبقات السنية : ٢٢٥/٣.

(٨) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب : ٢٧٥/٥.

(٩) الكتبي ، فوات الوفيات : ٤١٩/١.

أن أخباره وأشعاره " لا تدخل تحت الحَصْر ، ولا يتيسّر الإحاطة بها"^(١).
 ولي الناصر داود مملكة أبيه بعد موته سنة (٦٢٤هـ)، وهي ما
 بين حمص وعريش مصر^(٢)، غير أن أطماع الملك الكامل امتدت إليه
 ولا سيّما بعد موت المعظم^(٣)، ولعله أراد ذريعة للدخول إلى البلاد
 فأرسل إلى ابن أخيه الناصر داود يطلب منه الشوبك لتكون خزانة له ،
 فأبى الناصر ذلك وأعرض عن عمه، ممّا أوقع الوحشة بينه وبين عمه
 الكامل ، واستطاع الكامل أخذ دمشق وغيرها منه^(٤) بمساعدة أخيه الملك
 الأشرف وذلك سنة (٦٢٦هـ)، وعوّض الناصر بالكرك ، والغور ،
 وبيسان ، ونابلس^(٥)، ثم حدث أن ساءت العلاقة بين الكامل والأشرف؛
 فأرسل الأشرف للناصر داود يدعوّه إلى الوصول اليه والاتفاق معه
 مقابل أن يجعله ولي عهده بدمشق ويزوجه ابنته ، غير أنّه انحاز إلى
 عمه الكامل ومضى إليه في الديار المصرية^(٦)، وعقد عقده على ابنة
 الملك الكامل^(٧)، وأقام في خدمة عمه محفوفاً بالتقدير والاحترام^(٨)، بيد أن

(١) تقي الدين الحنفي ، الطبقات السنّية : ٢٣٠/٣.

(٢) ابن واصل ، مفرّج الكروب : ٢١٩/٤.

(٣) انظر ابن الأثير ، الكامل في التاريخ : ٤٨٢/١٢.

(٤) المصدر السابق : ٢٢٥/٤.

(٥) ابن الأثير ، الكامل : ٤٨٤/١٢؛ الكتبي ، فوات الوفيات : ٤١٩/٣.

(٦) ابن واصل ، مفرّج الكروب : ١٤٩/٥.

(٧) المصدر نفسه : ١٥/٥.

(٨) المصدر نفسه : ٣٥/٥.

الوفاق بينه وبين عمه لم يدم ؛ إذ تغير عليه وأمره بطلاق ابنته^(١)، فخاف الناصر على ما بقي بيده من الولايات ولاذ بالخليفة المستنصر بالله في العراق، وطلب الحضور بين يديه فلم يؤذن له رعاية لخاطر عمه الكامل فنظم الملك الناصر قصيدته البائية التي سيأتي الحديث عنها ومطلعها^(٢):

ودان ألت بالكتيب ذوائبه وجنح الدجى وحف تجول غياهبه

ويبدو أن القصيدة أعجبت الخليفة المستنصر ، فاستدعاه ليلاً وخلع عليه وعلى أصحابه ومماليكه الذين كانوا معه وأرسل يشفع فيه عند الملك الكامل فقبل شفاعته وأبقاه على مملكته وعاد الناصر داود الى الكرك وذلك سنة (٦٣٣هـ)^(٣)، وفي سنة (٦٣٤هـ) رأى الملك الكامل أن المصلحة تقتضي مصالحة ولد أخيه الناصر فصالحه واتفق معه على عمه الأشرف وملوك الشام ، وأعاد إليه مملكته ، وأركبه بصناجقه السلطانية ووعدته بدمشق^(٤) .

غير أن الأمور لم تنتظم للناصر بعد وفاة الأشرف واستيلاء الكامل على دمشق، ثم أعقبها وفاة الكامل فلم يحصل على بغيته في استرجاع أملاكه في بلاد الشام^(٥)، فبعد استقرار الصالح أيوب^(٦) على دمشق

(١) ابن واصل، مفرج الكروب : ٨٧/٥.

(٢) الملك الناصر داود بن عيسى ، ديوانه الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية ، تحقيق : عبد الحسين الخضر ، ط ١ ، مطبعة عكرمة ، دمشق ، ١٩٩٦م : ٢٢١.

(٣) الكتبي، فوات الوفيات : ٤١٩/١ ، ٤٢٢ ؛ انظر ابن الوردي ، تاريخه : ١٥٩/٢.

(٤) ابن الوردي ، تاريخه : ١٦١/٢.

(٥) المصدر نفسه : ١٦١/٢ ؛ انظر الكتبي ، فوات الوفيات : ٤٢٣/١.

(٦) هو الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل ، الزركلي ، خير الدين ، الاعلام ، ط ٨ ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٩م : ٣٨/٢.

وأعمالها مضى الناصر داود إلى مصر واتفق مع الملك العادل^(١) على قتال أخيه الملك الصالح أيوب^(٢)، ثم قام الناصر بالقبض على الملك الصالح في نابلس مبرراً ذلك بقوله : " إنما فعلت هذا احتياطاً لئلا يصل إليك مكروه من أخيك ولا من عمك ... " ^(٣).

وعلى الرغم من اشتعال الفتن بين أبناء البيت الأيوبي ، إلا أن الناصر لم ينقطع عن حركة الجهاد ضد الغزاة ، وتوج هذه الحركة بفتح بيت المقدس سنة (٦٣٧هـ) بعد أن كان عمه الكامل قد سلمها لهم (٦٢٦هـ) ^(٤).

ثم أخرج الناصر داود ابن عمه الصالح أيوب من حبسه على أن يعطيه دمشق والشرق إذا تملك الديار المصرية ، غير أن الصالح لم يف بوعده للملك الناصر ، بعد أن تمكن في الديار المصرية فخشيته الناصر ومضى عائداً إلى الكرك^(٥)، لكن الصالح أيوب ضيق عليه فمضى الناصر إلى حلب مستجيراً بصاحبها الناصر يوسف بن غازي ، بعد أن أناب ابنه المعظم عيسى مكانه على الكرك ، وقد استطاع الملك الصالح أخذ البلاد بمساعدة أبناء الناصر داود الأمجد حسن ، والظاهر شادي^(٦)،

(١) الملك العادل سيف الدين بن الملك الكامل ملك مصر بعد وفاة أبيه سنة (٦٣٥هـ)

لكنه خلع سنة (٦٣٧هـ) وقبض عليه حراسه ، ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ٢٣، ٢٥.

(٢) ابن الوردي ، تاريخه : ١٦٤/٢ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين : ٢٣.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢٤١/٥.

(٤) ابن الوردي ، تاريخه : ١٦٤/٢.

(٥) ابن واصل ، مفرج الكروب : ١٧١/٥ ؛ انظر ابن الوردي ، تاريخه : ١٧٦/٢ .

(٦) ابن الوردي ، تاريخه : ١٧٦/٢.

فزالت مملكة الناصر^(١)، وأقام الناصر داود في حلب عند صاحبها إلى أن ملك الناصر صلاح الدين (صاحب حلب) دمشق فقيل له: "إنّ الناصر يسعى في السلطنة فقبض عليه وحبسه بحمص ثم أفرج عنه بشفاعة الخليفة" ^(٢) سنة (٦٥١هـ)، وأمره إلّا يسكن بلاده^(٣)، فتوجه الناصر داود الى تيه بني إسرائيل فوصلت أخباره إلى صاحب الكرك عمر ابن العادل المغيـث " فخشى منه وأرسل إليه فقبض عليه، وحمله إلى بلد الشوبك، وأمر بحفر مطمورة ليحبسه فيها ... " ^(٤)، غير أنّ وصول رسول الخليفة المستعصم من بغداد إلى المغيـث يطلب منه جيشاً على رأسهم الناصر داود لمحاربة التتار الذي قصدوا بلاده أنقذه^(٥)، فمضى إلى بغداد بيد أن استيلاء التتار عليها وقتل الخليفة حالت دون الوصول إليهم، مضى الناصر داود إلى قرية البويعاء، وأقام بها إلى أن مات سنة (٦٥٦هـ)، ودفن عند والده بسفح قاسيون^(٦).

(١) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب : ٢٧/٥ .

(٢) الكتبي ، فوات الوفيات : ٤٢٥/١ .

(٣) الحنبلي ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : ٣٥٤ .

(٤) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر : ٣٠٤/٢؛ انظر الكتبي ، فوات الوفيات : ٤٢٥/١؛ ابن الوردي ، تاريخه : ١٩٢/٢ .

(٥) أبو الفداء ، المختصر : ٣٠٤/٢؛ انظر الكتبي ، فوات الوفيات : ٤٢٦/١؛ الذهبي ، العبر : ٢٨٠/٣؛ ابن الوردي ، تاريخه : ١٩٢/٢؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب : ٢٧٥/٥؛ تقي الدين الحنفي ، الطبقات السنية : ٢٢٤/٣ .

(٦) ابن كثير ، البداية والنهاية : ٢١١/١٣ .

ومن أعلام بني أيوب الملك المظفر غازي بن أبي بكر بن أيوب ،
شهاب الدين صاحب ميفارقين^(١)، وخلاط^(٢) ، وحصن منصور^(٣) ، وبيده
الرها وسرّوج^(٤) أنعم عليه الأشرف بخلاط^(٥) ، وجعله وليّ عهده ؛ إذ لم
يكن له ولد^(٦).

وكان الملك المظفر حازماً ، شجاعاً ، شهماً ، مهيباً ، جواداً ، حلو
المحاضرة ، كبير الشأن^(٧)، تأثر باضطراب الأحوال السياسيّة بين
المعظم عيسى وأخويه الكامل والأشرف التي حدثت سنة (٦٢٠هـ) ،
فحسن له المعظم عيسى عصيان عمه الأشرف والخروج عليه ، فجمع
الأشرف عساكره وقاتل المظفر غازي فهزمه، وقدم المظفر غازي

(١) ميفارقين : أشهر مدينة بديار بكر ، وفارقين هو الخلاف بالفارسية يقال له بالفارسية
يقال له بارجين ، لأنها كانت أحسن خندقها فسميت بذلك ، وسميت المدينة
مدورصالا ومعناه بالعربية مدينة الشهداء ، فعربت على تطاول الأيام حتى صارت
ميفارقين ، انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٢٣٥/٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٢) خلاط : بلدة مشهورة ذات خيرات واسعة ، وهي قسبة أرمنية الوسطى ، ياقوت ،
معجم البلدان : ٣٨٠/٤ ، ٣٨١ .

(٣) الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء : ١٩١/٣ .

(٤) الحنبلي ، شفاء القلوب : ٣٢٣ .

(٥) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر : ٢٣٠/٢ .

(٦) الحنبلي ، شفاء القلوب : ٣٢٣ .

(٧) الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء : ١٩١/٣ ؛ الحنبلي ، شفاء القلوب : ٣٢٢ .

اعتذاراً لعمه عن تصرفه فقبل الأشرف عذره، وعفا عنه وأقرّه على ميفارقين وأخذ منه باقي البلاد، وخرج المظفر هارباً من التتار^(١).

واختلف في تحديد سنة وفاته فقد ذكر ابن واصل أن وفاته كانت سنة (٦٤٢هـ)^(٢)، إلا أن الذهبي يذهب إلى أن وفاته كانت في رجب سنة (٦٤٥هـ)^(٣).

وثمة أسر أخرى أقل شهرة وأدباً برزت في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، برع بنوها باتقان إحدى مجالات العلوم فظهر بذلك: أسر الحفاظ، والفقهاء، والقضاة^(٤)، وأسر الأطباء. حتى قيل إنهم توارثوا مهنة واحدة وربما يمكننا تسمية هذا النوع من الأسر بأسر المهن، ولعل الأسباب التي أدت إلى ظهور هذه الأسر وتخصصها بمهنة معينة ما هي إلا محاولة لتمييز أبناء هذه الأسرة أو تلك لتبقى الوظائف بيدها و" لأنها السبيل الوحيد لدى أفراد المجتمع للبروز وتوطد المعاش وهكذا كان الآباء يحرصون على توريث ابنائهم عمائمهم، وما يتصل بها من الامتيازات الوظيفية " ^(٥).

(١) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر: ٢/٢٣٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٢٢٦/٦.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب: ٣١٧.

(٣) الذهبي، تهذيب سير أعلام النبلاء: ٣/١٩١.

(٤) بنو عسرون، بنو عساكر، آل الرحبي.

(٥) شاكّر مصطفى، موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، ط١، دار العلم، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م: ٢/٨٣٤.

الفصل الثاني

١ - الاتجاه العام:

- شعر الجهاد :

أ- الحث على الجهاد .

ب- تمجيد البطولات الإسلامية.

ت- وصف شجاعة المقاتلين وفتوحاتهم .

- رثاء المدن.

- الشعر الديني.

- النقد الاجتماعي.

- المدح التقليدي .

- مدح المدن.

٢ - الاتجاه الخاص :

- الغزل .

- الغربة والحنين .

- الإخوانيات .

- الفخر.

- رثاء الأهل والأقارب.

- الهجاء والشكوى.

- الشعر التأملي.

يمكن تقسيم مضامين شعر الأسر الشاميّة ضمن إطارين يمثلان اتجاهين كبيرين: الاتجاه العام ، الاتجاه الخاص.

أولاً- الاتجاه العام ويشمل:

شعر الجهاد :

كان للحروب الصليبيّة أصداء واضحة في شعر الأسر الشاميّة ، فقد سجّل الشعراء أحداث الصراع الكبرى ، ومجدّوا الانتصارات التي أحرزها المسلمون ، وتغنوا بالبطولات الإسلامية ، وحثوا على تحرير البلاد المحتلة ، وطرد الغزاة منها ، وهم في ذلك كلّهم يضعون الصراع في إطاره الإسلامي الشامل باعتباره صراعاً بين أمتين مختلفتين في العقيدة ، ومن ثمّ كثرت المعاني الدينيّة في هذا الشعر وقد تعددت الموضوعات التي تناولها الشعراء في شعرهم الجهاديّ ، وأقف هنا عند ثلاث قضايا بارزة هي :

١- الحث على الجهاد .

٢- تمجيد البطولات الإسلامية .

٣- وصف شجاعة المقاتلين وفتوحاتهم .

واكب الشعر حركة الجهاد ، وحثّ على استثارة الهمم والمشاعر ، وكان لأسامة بن منقذ دور بارز في ذلك ، ولا سيّما بعد اتصاله بعددٍ من القيادات البارزة في ذلك الوقت ، ومن الموضوعات التي دعا إليها الوحدة بين مصر والشّام ؛ إذ كانت تربطه بالملك الصالح طلائع بن رزيك علاقة مودة وصداقة وكانا يتبادلان الرسائل الشعرية

التي تحت على الجهاد ، ولثقة الملك الصالح به فقد أسند إليه بمهمة إلى نور الدين زنكي ، مؤتاهاً رغبة الملك الصالح طلائع بن رزيك في الانضمام إلى نور الدين زنكي كي يجتمعا معاً على حرب الصليبيين ، وتكشف الرسائل الشعرية التي أرسلها إلى أسامة بن منقذ عن هذه الرغبة منها يقول^(١) :

فانهض الآن مسرعاً ، فبأمثا لك ما زال يُدرك المظلوبُ
والق عنا رسالةً عند نور الدّين ، ما في إلقائها ما يُريبُ

وتوالت رسائله إلى أسامة بن منقذ التي عبّر فيها عن رغبته الصادقة في الاهتمام بقضية الجهاد ، والانضمام إلى نور الدين ، كما في قوله^(٢) :

فقولوا لنور الدين: لأفلّ حدهُ ولا حكمت فيه الليالي الغواشم^(٣)
تجهّز إلى أرض العدو، ولا تهين وتظهر فتوراً أن مضت منك حارمُ

وقد سعى أسامة بن منقذ بين الملك الصالح ونور الدين ، وأوصل ما وكل به ، ونستشف ذلك من خلال الأبيات التالية لأسامة^(٤) :

أسمعت دعوة الجهاد فلبّا ها مليك بالمكرّمات خليقُ

(١) طلائع بن رزيك ، ديوانه ، جمعه أحمد بدوي مطبعة الرسالة ، ١٣٧٧هـ ، ١٩٥٨م :

١٦؛ أسامة بن منقذ ، ديوانه : ٢١٦

(٢) طلائع بن رزيك ، ديوانه : ٩٩ ؛ أبو شامة المقدسي ، الروضتين : ٣٦٧/١

(٣) الغواشم ، الغشم : الظلم . ابن منظور ، لسان العرب : ٧٥/١٠ .

(٤) أسامة بن منقذ ، ديوانه ، تحقيق أحمد أحمد بدوي ، وحامد عبد المجيد ، ط ٢ ، عالم

الكتب ، بيروت ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م : ٢٣٨-٢٣٩ .

ملكٌ عادلٌ، أنارَ به الديــــ
ماله عن جهاده الكُفرَ والعد
نُ فَعَمَّ الإسلامَ منه الشُّروقُ
لِ وفعلِ الخيراتِ شغلٌ يَعُوقُ

ويبدو أن نور الدين زنكي لم يكن ليرغب بهذا التقارب وهذه الوحدة التي يدعو إليها الملك الصالح ، ولعل ذلك يرجع لبعد نظره ؛ لأنه أحس أن الفاطميين يسعون إلى مكاسب مؤقتة ، إضافة إلى أن " ربط مصر والشام في عمل مشترك قد يسيء إلى الخلافة العباسية ، ونور الدين مناوئ للإسماعيلية ، ولذلك فإن التعاون بينه وبين الفاطميين سيكون أنياً " (١) .

وقد كان تحرير بيت المقدس من أهم الأمور التي حث الشعراء نور الدين زنكي عليها ؛ لما لها من أهمية عظيمة عند المسلمين ؛ فهذا أسامة بن منقذ يتمنى أن يسترد المسلمون كل شبرٍ من أراضيه المقدسة ، ومما قاله في ذلك محرّضاً نور الدين زنكي لتحقيق هذه الأمنية (٢) :
كأفعلنّا في أرض من حان منهمُ فلم يبقَ منها في ممالكهم شبرُ
وفي موضع آخر يصوّر الشاعر أمانى الأمة الإسلامية في استعادة البيت المقدس ، وإقامة شعائر الإسلام في المسجد الأقصى قائلاً (٣) :
ونرتجّع القدسَ المطهرَ منهمُ ويتلى بإذنِ الله في الصخرة الذِكرُ

كما رصد الشعر اضطراب الأحوال السياسية والاجتماعية في بلاد الشام بعد موت نور الدين زنكي ، وتطلّع أبناء الأمة في بلاد الشام إلى

(١) شفيق الرقب ، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري ، ط ١ ، دار صفاء للطباعة والنشر ، عمان ، ١٩٩٣م : ١٢١ .

(٢) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ٢٥٤ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٥٤ .

منقذ لها ، ولا سيّما أن الغزاة يسعون للسيطرة على البلاد ، كما ضعفت مقاومة المسلمين فيها ، لذلك أرسل أهل الشّام إلى صلاح الدين الأيوبي للمبادرة إليهم ، وجمع شتات الأمة وتخليصها من الاضطرابات السياسيّة والاجتماعيّة^(١) .

فهذا أسامة بن منقذ يصرّ حاجة بلاد الشّام إلى صلاح الدين ، ويحثه على القدوم إليها^(٢) :

أبرارُ يلقاكَ جَمْعُهُم مَدَدًا	فَسِرْ إلى الشّامِ فالملائكةُ الـ
تُصلِحُ بالعدلِ منه ما فسدَا	فهو فقيرٌ إليك يأمل أن
صرّ كما في كتابه وعداً	والله يُعطيك فيه عاقبة النـ

وكان صلاح الدين الأمل المنتظر لابناء الأمة الذين يتطلعون بشوق لفتح بيت المقدس ، وخاصة بعد الانتصارات التي حققها في البلاد الشاميّة وغيرها .

وقد أدرك الغزاة ما يمثله صلاح الدين الأيوبي للأمة الإسلامية ، ولم يرتضوا حكمه؛ لأنهم " عدّوه بحق مصدر تهديد البيت المقدس " ^(٣).

وشارك الملوك من بني أيوب في الدعوة إلى تحرير البيت المقدس، كما في الأبيات التالية التي قالها تقي الدين عمر يخاطب صلاح

(١) انظر ابن كثير ، البداية والنهاية : ٣٠٣/١١ .

(٢) أبو شامة المقدسي : الروضتين : ٣٤٤/٢ .

(٣) مجموعة من المستشرقين ، دائرة المعارف الإسلامية : ٢٦٦/١٤ .

الدين، ويصور فيها القدس عروساً تنتظر كُفأها لكي يخطبها ويبني بها^(١):

جاءتْكَ أرضُ القدسِ تخطبُ ناكحاً ياكفأها ما العذر عن عذرائها
زُفَّتْ إليكِ عَروسُ خدرٍ تُجتَلَى ما بين أعبدها وبين إمائها
إيه صلاح الدين خُذها غادّةً بَكرًا ملوكُ الأرض من رُقبائها
كم خاطب لجمالها قد ردّه عن نيلها أن ليس من أكفائها

وبعد وفاة صلاح الدين ظلّ الشعر لدى بني أيوب عاملاً فنياً مهماً في التحريض على جهاد الفرنجة ، وتحرير بقية البلاد المحتلة منهم كما في الأبيات التالية التي قالها شرف الدين عيسى يمدح أباه ، وقد ضمّنها دعوة قوية لجهاد الأعداء ، وطردهم من البلاد المحتلة^(٢) :

اروِ رِماحك من دماءِ عداكا وانهبْ بخيلك من أطاع سواكا
واركب خيولاً كالسّعالِي شزباً واضربْ بسيفك من يشقُ عصاكا
وسرِ الغداةَ إلى العداةِ مُبادراً بالضرب في هام العدوِّ دراكا
وانكحْ رِماحك للثغور فإنّها مشتاقّةٌ أن تبتنى بعُلاكا
فالعزُّ في نصبِ الخيام على العدا تُردى الطغاة وتدفّعُ الملاكَا
والنصر مقرونٌ بهمتك التي قد أصبحت فوق السّمَاكِ سماكا

وبعد موت والده الملك العادل أكمل ابنه الملك الكامل مسيرته في جهاد الفرنجة في دمياط ، وقد واكب الشعر أحداث الصراع مع الغزاة ،

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشّام) : ٨٦/٢ .

(٢) الأزدي ، علي بن ظافر (ت ٦١٣ هـ) ، بدائع البدائ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠م : ٣٢١ .

وساهم في خدمة ملوك بني أيوب ، ولا سيّما بعد أن اشتدّ أمر الفرنجة على دمياط ، وتمت حروب كثيرة بينهم وبين المسلمين ، فبعد أن حاصروا المدينة عملوا حولها خندقاً كبيراً ، وقتلوا عدداً كبيراً ، من أهلها ، ووصف الياضي حال أهل دمياط قائلاً : " كثر فيهم القتل والجراح ، وهدمت الأقوات ، ثم سلموها بالأمان وتسارعت الفرنج من كل فج عميق ، وشرعوا في تحصينها ، وأصبحت دار هجرتهم وترجو أخذ ديار مصر ، وأقبل الإسلام على الانكسار والدمار .. " (١) .

أمام هذا الحشد الهائل من قوات الفرنجة لم يجد الملك الكامل بداً من الاستنجاد بإخوانه حاثاً إليّهم للمجيء ، وتقديم يد العون ، وأرسل إلى أخيه الملك الأشرف موسى أبياتا شعرية يحرضه فيها على القدوم لجهاد الفرنج (٢) :

يا مُسْعدي ، إن كنتَ حقاً مُسْعفي	فانهضْ بغيرِ تلبثٍ وتوقفٍ
واحثثْ قلوبك مُرَقِلاً أو مُوجِفاً	بتجشُمٍ في سيرها وتعسّفٍ
واطوِ المنازلَ ما استطعتَ ، ولا تُنخِ	إلاّ على بابِ المليكِ الأشرفِ
واقِرِ السلامِ عليه منْ عبدٍ له	متوقّعٍ لقدمه متشوقٍ
وإذا وصلتَ إلى حماة فقلْ له:	عني بحسّ توصلٍ وتلفٍ
إن تأتِ عبدك عن قليلٍ تلقّه	ما بين كلّ مُهندٍ ومُتقفٍ
أو تبطِ عن إنجاده فلقاؤه	بك في القيامة في عِراضِ الموقفِ

(١) الياضي ، مرآة الجنان وعبرة اليقضان : ٢٦/٤ .

(٢) المقرئزي ، خطط المقرئزي : ٤٦٩/٣ - ٤٧٠ .

فكان لهذه الأبيات " أثرٌ جميل في إنجاد أخيه إياه ، وفي بلوغه مناه،
من دحر الإفرنج وتحطيم جيشهم " ^(١)، ولا سيّما بعد أن تجهز إخوة
الكامل جميعاً إليه بجيش بلغت عدّته نحو أربعين ألف مقاتل قاتلت الفرنج
تحت إمرة الملك الكامل ^(٢)، وقد كان يوم دخول السلطان الكامل دميّاط "
يوماً مشهوداً ...؛ إذ عمت البشائر بلاد الإسلام بعد أن كادت تستأصل
بالفرنج ، فنصر الله المسلمين عليهم وكفاهم شرهم " ^(٣) وكان هذا النصر
الذي أحرزه ملوك بني أيّوب على الفرنج فرصة ثمينة للشعراء للتغني
بهذا النصر ومدح بني أيّوب ^(٤).

تمجيد البطولات الإسلامية :

برزت صورة البطل صلاح الدين الأيوبي كما أسلفنا في شعر
الأسر الشاميّة، وتحديدًا في أشعار أسامة بن منقذ ، والملوك الشعراء من
بني أيّوب ، في حين غابت اصوات باقي الأسر عن هذا الغرض ولعل
ذلك يعود الى مشاركة هؤلاء الشعراء بالجهاد مشاركةً فعلية الى جانب
الوطن ولا سمياً ان جلّهم أبطال حروب اضافةً الى تميز صلاح الدين
الأيوبي بحبه للجهاد الذي " استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً

(١) د. ناظم رشيد ، الأدب عند بني أيّوب ، مجلة المورد ، تصدرها وزارة الاعلام في
الجمهورية العراقية ، مجلد ٥ ، عدد ٣ ، خريف ، ١٩٧٦م : ٣٩.

(٢) ابن إياس الحنفي ، بدائع الزهور في وقائع الدهور : ج ١، ق ١ : ٢٦١.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب : ١٠٥/٤.

(٤) انظر : عبد اللطيف حمزة ، أدب الحروب الصليبيّة ، ط ٢ ، دار الفكر العربي ،
١٩٨٤م : ١٦٧.

عظيماً^(١)، واهتمامه بأمور دولته بعدما ولي أمرها ، إذ أبطل ما استجد في الدولة الفاطمية من المكوس والمظالم " فضجّ الناس له بالدعاء"^(٢) .

ولا تختلف الصورة التي رسمها الشعراء لصالح الدين عن تلك التي رسمها المؤرخون إلا في التفاصيل الفنية ، كما في الأبيات التالية التي قالها تقي الدين عمر وقد ميزه فيها عن الملوك السابقين في صفاته ، وجمعه بين صفتي الشجاعة والعدل^(٣):

خَيْرُ الْمُلُوكِ أَبُو الْمَظْفَرِ يُوسُفُ	مَا مِثْلُ سِيرَتِهِ الشَّرِيفَةِ تُعْرَفُ
لَوْ سَطَرَتْ سِيرُ الْمُلُوكِ رَأَيْتَهَا	دِيْوَانَ شَعْرِ وَهِيَ فِيهَا مُصْحَفُ
مَلِكٌ يَبِيتُ الْمَلِكُ يُرْعَدُ خِيفَةً	مِنْهُ وَلَيْسَ يَخَافُهُ مَنْ يُنْصَفُ

ويبدو حرص أسامة على تمجيد البطل صلاح الدين من خلال تتبعه لأعماله الجهادية في البلاد الإسلامية ، وكانت أولى هذه الأعمال حينما أسند الأمير زنكي إليه أمر مصر سنة (٥٦٥هـ)^(٤)، وقد استطاع بمشاركة عمه أسد الدين شيركوه القضاء على الفتنة التي أثارها شاور^(٥)، كما عمل على محاربة الغزاة في ذلك الوقت ، وقد صور لنا شعر أسامة

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية : ٢٢ .

(٢) ابن إياس الحنفي ، بدائع الزهور : ج١ ق١ : ٢٣٨ .

(٣) العماد الأصفهاني ، الخريدة (بداية قسم الشام) : ١٠١ - ١٠٢ .

(٤) انظر ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٤٨٠/٢ .

(٥) هو شاور بن مجير السعدي الهوازي وزير الديار المصرية قتل سنة (٥٦٤هـ) ، الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء : ٧٣/٣ .

أعمال صلاح الدين في مصر في أبيات نوّه فيها بجهاد صلاح الدين
للفرنجة وصدّهم عن مصر ، ودفاعه عن حوزة الإسلام^(١) :

أَقَمْتَ عَمُودَ الدِّينِ حِينَ أَمَالَهُ لَطَاغِي الْفَرَنْجِ الْغُتْمُ^(٢) طَاغِي بَنِي سَعْدِ^(٣)

وَجَاهَدْتَ حِزْبَ الْكُفْرِ حَتَّى رَدَدْتَهُمْ خَزَايَا عَلَيْهِمْ خَيْبَةُ الذِّلِّ وَالرَّدِّ
أَفَدْتَ بِمَا قَدِمْتَ مُلْكاً مُخَلِّداً وَذِكْراً مَدَى الْأَيَّامِ يُقَرَّنُ بِالْحَمْدِ
وَذِكْرُكَ فِي الْآفَاقِ يَسْرَى كَأَنَّهُ الصَّ بَاحُ لَهُ نَشْرُ الْأُلُوءِ^(٤) وَالنَّدِّ

ومن خلال الأبيات السابقة نلاحظ أنّ الشاعر أضفى على صورته
البطل المعاني الإسلامية، فقد اتكأ على القرآن الكريم ويظهر ذلك في
البيت الثاني الذي يشير إلى قوله تعالى: " الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ
اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ
كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً " ^(٥) .

كما رسم الشاعر ذاته لصلاح الدين صورة القائد المعطاء صاحب
الكرم والجود، وقد أعاد معالم الحياة ونضارتها لمصر بعدما هُرمت
وشاخت ، وقد اتخذت مصر صورة الحبيبة التي سعدت بلقاء فارسها
الكفاء الذي قام على أمر حمايتها بشجاعة وقوة ، فقال^(٦) :

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين : ٥٥،٥٤/٢

(٢) الغتم ، عجمة في المنطق .

(٣) إشارة إلى شاور السعدي السابق الذكر .

(٤) الألوة ، العود الذي يتبخر به .

(٥) سورة النساء ، آية ٧٦ .

(٦) أبو شامة المقدسي ، الروضتين : ١٢٦ ، ١٢٧ / ٢ .

دِيَارَ الْهَوَى حَيًّا مَعَالِمَكَ الْقَطْرُ
 بِهِ رَجَعْتُ فِي عُنُقِ الْوَانِ شَبَابِهَا
 وَكَمْ خَاطِبٍ رَدَّتْهُ لَمْ يَكُ كَفَاهَا
 حَمَاهَا حِمَى اللَّيْثِ الْغَرِينِ وَصَانَهَا
 وَكَانَ بِهَا بَحْرٌ أَجَاجٌ ، فَأَصْنَبَحْتُ
 وَجَادَكَ جُودُ النَّاصِرِ الْغَدَقُ الْهَمْرُ
 وَنُضِرْتَهَا مِنْ بَعْدِمَا هَرَمْتُ مِصْرُ
 إِلَى أَنْ أَتَاهَا خَاطِبٌ سَيْفُهُ الْمَهْرُ
 كَمَا صَانَ عَيْنًا مِنْ مُلَمِّ الْقَذَى شَفْرُ
 وَمِنْ جُودِهِ الْعَذْبِ النَّمِيرِ بِهَا بَحْرُ

ورسم الشاعر للبطل صورة الهادي الذي أخرج مصر من الظلمات إلى النور، وهو يشير هنا إلى دور صلاح الدين في نشر مذهب أهل السنة في مصر ومحاربة الفاطميين الإسماعيلية^(١) ، فقال^(٢):

فَمَا أَنْتَ إِلَّا الشَّمْسُ لَوْلَاكَ لَمْ تَزَلْ
 وَكَانَ بِهَا طُغْيَانُ فِرْعَوْنَ لَمْ يَزَلْ
 فَبَصَّرْتَهُمْ بَعْدَ الْغَوَايَةِ وَالْعَمَى
 عَلَى مِصْرَ ظِلْمَاءُ الضَّلَالَةِ سَرْمَدًا
 كَمَا كَانَ لَمَّا أَنْ طَغَى وَتَمَرَّدَا
 وَأَرْشَدْتَهُمْ بَعْدَ الضَّلَالِ إِلَى الْهُدَى

وكان من أهداف السيطرة على مصر ، الاستعانة بثرائها لإكمال مسيرة الجهاد، والاتفاق حول الغزاة والقضاء عليهم^(٣) ، وقد وجد بمصر بعد السيطرة عليها من قبل صلاح الدين من " السلاح والتحف ما لا يحصى " ^(٤) وهنا أيضاً لا تختلف الصورة التي رسمها الشعراء لصلاح الدين عن تلك التي رسمها المؤرخون إلا في التفاصيل الفنية كما في الأبيات التي قالها أسامة بن منقذ وقد أظهر صلاح الدين بصورة الباني

(١) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب : ٢١٩/٤ .

(٢) المصدر السابق ، الروضتين : ١٢٧/٢ .

(٣) أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ط٧ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦م : ١٨٧/٥ .

(٤) ابن إياس الحنفي ، بدائع الزهور : ج ١ ق ١ / ٢٣٧ .

الذي يعمل على توطيد أركان دولته باذلاً في سبيل ذلك ما وجده من الأموال لخدمة غرض الجهاد ، وإعداد المقاتلين والمجاهدين^(١):

وبذلت أموال الخزائن بَعْدَ مَا هَرِمَتْ وراءَ خواتمِ الخُزَانِ
في جَمْعِ كُلِّ مجَاهِدٍ ومَجَالِدٍ ومبارزٍ ومُنَازِلِ الأَقْرَانِ
من كُلِّ من يردُّ الحروبَ بأبيضٍ غضبٍ ، ويصدر وهو أحمرَ قَانِ
ويخوضُ نيرانَ الوغى وكأنَّهُ ظمآنُ خاضَ مواردَ الغدرانِ

كما ويصوّره بطلاً مسلماً مجاهداً ، لم يسع لمغنم دنيوي إنما هدفه من الجهاد طاعة الرحمن ، ومحاربة الشرك والطغيان :

جردتَ سيفك في العدى ، لا رغبةً في الملكِ ، بل في طاعة الرحمنِ
فضربتهم ضرب الغرائب واضعاً بالسيف ما رفعوا من الصلبانِ

ويتغنّى أسامة ببطولة صلاح الدين بعد مصاف عسقلان سنة ٥٨٣هـ، وقد زاوج في رسم شخصيته بين الفضائل التي تشكل المثل العليا للحاكم ، كالعدل والقوة ، والثناء ، والكرم ، وبين فضائل الفروسية التي تتغنّى بالبطولة والشجاعة في الحروب ، والجهاد في سبيل الله^(٢).

تَهَنَّ يَا أَطْوَلَ الملوِكِ يَدَا في بَسْطِ عَدْلٍ وَسَطْوَةٍ وَنَدَى
أَجْرًا وَذِكْرًا من ذلك الشكرُ في الد نيا ومن ذلك الجنانُ غدا
لا تستقلّ الذي صنعتَ فقد قُمتَ بفرضِ الجهادِ مجتهداً
وَجُسْتَ أرضَ العدى وأفْنيتَ من أبطالهم ما يجاوزُ العددا

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٥٣٢ .

(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين : ٣٤٤/٢ .

ولم يقتصر تمجيد الشاعر للبطولة والانتصارات على البطل صلاح الدين ، فقد هنا أسامة الأمير معين الدين أنر بمحاربة الإفرنج فمدحه بقصيدة طويلة ، افتتحها بإظهار المسرة لما حققه البطل من الانتصارات والفتح ، والقهر للأعداء كل يوم، يقول^(١) :

كل يوم فتح مبين، ونصرُ
واعتلاءً على الأعداء وقهرُ
قد أتاك الزمانُ بالعدوِّ والإعتـ^(٢)
اب^(٢) مما جناهُ، إذ هو غرُ
صدق النعت فيك، أنت معين الـ
دين، إنَّ النعوتَ فالْ وزجرُ

ومن الشعراء الذين مجّدوا الانتصارات والبطولات الملك الناصر داود وذلك بعد الانتصار الذي حققه الخليفة وجنده في بغداد على الغزاة من التتار الذين قصدوا البلاد سنة (٦٤٣هـ) لكنهم ما أن أدركوا قوة بغداد واستعداد عساكر الخليفة للقائهم وعلموا أنه " لا طاقة لهم بمن في بغداد من العسكر .. رحلوا تحت الليل ، ولما طلع الصباح لم يوجد منهم أحد فتبعتهم عساكر بغداد يقتلون من تخلف منهم ، وينهبون ، وعادوا إلى بغداد " ^(٣)، وقد كتب الملك الناصر داود قصيدة تهنئه بهذا الفتح للخليفة المستعصم بالله حينما وصله الخبر بذلك يقول^(٤):

كذا فليقم من قامَ لله بالأمرِ
وجاهد فيه بالرُّدنيّة السُّمرِ
تهن أمير المؤمنين بنصرةٍ
أتتك من الله القدير على قدرِ

(١) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ٢٢٠.

(٢) الإعتاب : اعتبه أي اعطاه العُتْبَى وهي الرضا ، ابن منظور ، لسان العرب : ٢٩/٩.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٣٥٤/٥-٣٥٥.

(٤) الملك الناصر داود ، ديوانه ، ٢٢٥-٢٢٦؛ انظر القصيدة ابن واصل، مفرج الكروب ٣٥٧-٣٥٥/٥ مع اختلافات قليلة.

ويشيد الشاعر ببطولة المستعصم ، ويصوّر قوة بأسه ، وانقضاضه
على جموع العدو حتّى شتّتهم ، وألحق الهزيمة بهم ، قارناً عزيمته
بعزيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصولاته بصولات الأبطال من
بني هاشم :

لقيت ملوك الترك إذ جاء جمعها	[تجالد ^(١) دين الله بالكبر والكفر
فللت ملوكاً ما تسى لهمة	ملوكية قصد لعسكرها المجر
وقابلتهم إذ قابلك بعزيمة	كعزم رسول الله في غزوتي بدر
وصلت عليهم صولة هاشمية	أذاقتهم كأساً أمر من الصبر

كما رسم الشاعر صورة لقتلى الغزاة وقد تناثرت أشلاؤهم
وتوزعت في كل مكان؛ إذ التقت حيتان البحر جزءاً منهم ، وذئاب البر
ونسور الجو أجزاء أخرى يقول:

تركتهم صرعى وأشلاء صيدهم	توزع بين النون والسيد والنسر
وحق لمن قد قام في نصر دينه	بصدق يقين أن يؤيد بالنصر

وتبدو بغداد بعد صدّ الأعداء عنها في صورة امرأة حسناء زُفّت
إلى هذا البطل المجاهد لأنّه يستحقها :

راك ولي الأمر كفوا فزفها	إليك تهادى حين أغليت في المهر
فجاءتك بكرة وأنثنت وهي ثيب	فأحسن بها في الدهر من ثيب بكر

ويشير الشاعر إلى إحساس الناس بالأمن ، وشعورهم بالطمأنينة
بعد هذا النصر ، فيقول :

(١) غير واضحة من الديوان لعلها [تجالد] انظر عند ابن واصل ، مفرج الكروب:

فيا وقعة أهدت إلى الناس كلهم أمانا أعاد اليسر في موضع العسر
ويتمنى الشاعر لو كان بين صفوف المقاتلين ؛ رغبة في نيل
الشهادة :

فيا ليتني لو كنت بين صفوفها لينبئ في الهيجاء عن خبري خبري
ولم يقتصر تمجيد الشاعر للبطولة والانتصارات على البطل صلاح
الدين إنما كان قد مجد انتصارات نور الدين زنكي قبله بقصيدة
مطلعها^(١):

أبى الله إلا أن يكون لنا الأمر لتحيا بنا الدنيا ، ويفتخر العصر
وقد قالها بعد سلسلة من الانتصارات التي حققها المسلمون بقيادة
نور الدين زنكي ، وهذا الإحساس بالبطولة الجماعية جعل الشاعر
يصوغ قصيدته بضمير (جماعة المتكلمين) ، وهنا يأخذ الشاعر
باستعراض الانتصارات التي حققتها جماعة المسلمين ، كما في قوله
يشير إلى أسر الفنش ، وقتل فرسانه :

وفي سجننا ابن الفنش^(٢) خير ملوكهم وإن لم يكن خير لديهم ولا بر

أسرناه من حصن الغريمة راغماً وقد قتلت فرسانه فهم جُزر
ويمتزج في الأبيات التالية الإحساس بنشوة الظفر والتفوق ومشاعر
السخرية من البغدوين الذي ضاقت عليه الأرض بما رحبت بعد كسرتة :

(١) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ٢٥١-٢٥٦ .

(٢) أسر فيما فتح المسلمون حصن الغريمة سنة (٥٤٣هـ) وكان بها ، انظر ، أبو شامة
الروضتين : ١٩٦/١ .

ونحن كسرنا البغدوين^(١) وما لمن كسرناه إبلالٌ يرجى ولا جبرُ

فسله اللعين الحائن الذي له الغدرُ دينٌ : ما به صنع الغدرُ
وقد ضاقت الدنيا عليه برخبها فلم ينجه برُّ ، ولم يحمه بحرُ

وحين يتحدث عن مقتل البرنس يُسند ذلك إلى ضمير الجماعة
(قتلنا) ، ثم يرسم صورة تفصيلية ساخرة لهزيمة هذا القائد ، والرعب
الذي دبّ في قلبه ، وكيفية مقتله :

قتلنا البرنس^(٢) ، حين سارَ بجهله تحفُّ به الفرسانُ والعسكرُ المجرُّ

ولم يبق إلا من أسرنا، وكيف بالـ
فولى يباري عائراتِ سهامنا
وخلّى لنا فرسانه وحُماته
وما تنثني عنه أعنة خيلنا
إلى أن يزورَ الجوسلين مساهما
لقاء لمن أخنت عليه الظُّبا البترُ
وفي سمعه من وقع أسيفنا وقرُ
فشطرَّ له قتلٌ ، وشطر له أسرُ
ولو طارَ في أفق السماء به النسرُ
له في دياجٍ ، ما ليلتها فجرُ

(١) انظر ترجمته ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، تحقيق : سهيل زكار، دمشق ، ١٩٩٥م - ١٤١٦هـ : ١١٨٣٢/٢٥.

(٢) البرنس صاحب انطاكية ، وكان عاتياً من عتاة الفرنج قتل في معركة (أنب) سنة (٥٤٤هـ) والتي انتصر فيها نور الدين على الصليبيين ، أبو شامة المقدسي ، الروضتين : ٢٠٦/١ ، ٢٠٧.

ويستعيد الشاعر في القصيدة ذكرى فتح الرُّها في عهد عماد الدين زنكي ، فتهيج نفسه لهذه الذكرى ، ويصوّر استسلام الفرنجة للمسلمين وتسليم المدينة لهم بالأمان :

فتحنا الرُّها حين استباحَ عِدائنا	حماها ، وسنّى ملكها لهم الختر
جعلنا طلى الفرسان أغماد بيضنا	وملّكنا أبكارها الفتكة البكر
ونحن فتحنا تل باشِرَ بعدها	وقد عجزت عنه الأكاسرة الغرُّ
أتى ساكنوها بالمفاتيح طاعةً	إلينا ، ومسراهم إلى بابنا شهر
وما كلّ ملكٍ قادرٍ ذو مهابةٍ	ولا كلّ ساعٍ يستتبُّ له الأمر

ويذكر الشاعر العديد من الحصون التي فتحوها ، كفرلاتا ، وهاب ، حصن بأسوطا ، وفامية ، اليارة ، وحصن بسر قود ، وأنب وغيرها حتى ويمكن القول بأن هذه القصيدة من أهم القصائد التي أرخت للأحداث الكبرى في عصر الحروب الصليبيّة ، وذهب أحد المحدثين إلى أنّ نهج هذه القصيدة في تصوير الأحداث الكبرى مختلف عمّن قبله ؛ إذ أنّ الأحداث الكبرى جرت في صورة واحدة على لسان بطلها نور الدين^(١).

وصف شجاعة المقاتلين:

ولم تكن البطولة في شعر الجهاد بطولة فرديّة ، وإنّما هي بطولة جماعيّة تتمثل في تصوير الشُّعراء لبطولات المجاهدين المسلمين في ساحات القتال ووصف شجاعتهم وقوة بأسهم والدور الذي نهضوا به في جهاد الأعداء ، ويبدو هذا واضحاً في شعر أسامة بن منقذ ، من ذلك قصيدته السابقة : والتي صوّر فيها جند نور الدين زنكي بالأسد أظفارها

(١) عمر موسى باشا ، الأدب في بلاد الشام : ٢٩٢.

وأنيابها القنا والصوارم . وسرعتها كالسهم، وهم يتسابقون إلى الموت^(١):

وجيشٌ إذا لاقى العدوَّ ظننتهم	أسودَّ الشرى عنت لها الأذم والعفر
ترى كلَّ شهمٍ في الوغى مثلَ سهمه	نفوذاً ، فما يثنيه خوفٌ ولا كثرُ
هم الأسدُّ من بيض الصّوارم والقنا	لهم في الوغى النَّابُ الحديد، والظفرُ
يروون لهم في القتل خُداً ، فكيف بالـ	لقاءٍ لقومٍ قتلهم عندهم عمرُ

كما وصف أسامة جند صلاح الدين وما هم عليه من القوة والبأس والشجاعة في قتال الغزاة مصوراً إياهم بالأسد التي تززع أركان الجبال، وهم (الذخيرة) التي يحارب بها ، ويتخذهم (لفتح ما استعصى من البلدان) يقول^(٢):

قومٌ إذا شهدوا الوغى قال الورى	ماذا أتى بالأسد من خفان ^(٣)
لو أنهم صدموا الجبال لززعوا	أركانها بالبيض والخرصان ^(٤)
فهم الذخيرة للوقائع بالعدى	ولفتح ما استعصى من البلدان

ولم يقتصر وصف أسامة لذكر المعارك التي دارت على البر بل نجد عنده ضرباً آخر من هذه المعارك إذ وصف معركة بحرية ، رسم

(١) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ٢٥٣ .

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٥٣٢/١ .

(٣) خفان: موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج أحياناً ، وهو مأسدة ، ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٣٧٦/٢ .

(٤) الخرصان : وهي الدروع لأنها حلق مثل الخرص الذي في الأذن ، لسان العرب : ٦٢/٤ .

فيها صورة فريدة لـ (فرسان البحر) وهم يحاربون في السفن
ويتصرفون بها بمهارة فائقة ، وذلك إذ يقول^(١) :

غزوتهم في البحر، حتى كأنما الـ	أساطيلُ فيه موجه المتلاطمُ
بفرسان بحرٍ فوق دُهمٍ، كأنها	على الماء، طيرٌ مألَهَن قِوادمُ
يصرفها فرسانها بأعنةٍ	جرت، حيث لم تُوصل بهن الشكائمُ
إذا دفعوها قلت : فرسانُ غارةٍ	سَرَوْا بجياد ، مألَهَن قِوائِمُ
يسوقُ أساطيلَ الفرنج إليهم	حمامٌ ، وطيْرٌ للفرنج أشائمُ

ويصف الشاعر دماء الأعداء التي امتزجت بالماء حتى غدا الماء
مسبوغاً باللون الأحمر ، كما يصف عودة المسلمين ظافرين، حاملين
معهم الأسرى :

دماؤهم في البحر حُمُرٌ سِوائِحُ	وهامهم في البر سُحُم جِوائِمُ
فَلَمْ يخف في فجٍ من الأرض هاربٌ	ولم ينجُ في لَجٍّ من الماء عائمُ
وعادَ الأسارى مُردِّفينَ، وسفَنهم	تُقَادُ ، كما قاد المَهاري الخزائمُ

كما رسم الملك الأمجد بهرام شاه ضمن غزلياته مشاهد حماسية
لأبطال المسلمين في ساحة المعركة، وقد صورَ الأمجد الفضائل العليا
التي يتميز بها الجند المسلم : الشجاعة، والفروسية، والقوة، والتفوق على
الغزاة على الرغم من قتلهم ، في مواجهة الموت، ويشهد لهم بهذه القوة
آثارهم بعد المعركة ؛ إذ يتركون الأسلحة، من السيوف والرماح محطمة،
كما يشهد لهم القلم الذي يصبح خطيباً مفوهاً على المنابر يقول^(٢):

(١) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ٢٧٦.

(٢) الملك الأمجد بهرام شاه ، ديوانه : ٣٣٩ ، ٣٤٠.

وأحماس^(١) حرب فوق كل طمرة^(٢)
 ليوث وغي يوم الكفاح تراهم
 مَعَوْدَةٌ أن تترك البيض في الوغى
 بحيث لسان السيف يصبح خاطباً
 وإن أقبلت زرق الأسنان شرعاً
 بأيدي رجال ما أخف إلى الوغى
 رأيتهم والموت مر مذاقه
 أسود تخال السمهرية في الوغى
 يبيعون في يوم النزال نفوسهم
 وأما دعا داعي الصريخ وأقبلت
 يحفون بالبزل الحراجيج^(٦) سُهْمًا
 ومن كان في يوم اللقاء ابن حرة
 بعزم يقل المرهفات بحده

مُضَبَّرَةٌ المتنين محبوكه القرا
 أقل عديداً في اللقاء وأكثر
 محطمة والسمهري مكسرا
 وحيث يكون الهام للسيف منبرا
 وعينت في أطرافها الموت أحمر
 إذا ما دعا داعي الجلال^(٣) وأصبرا
 يخوضون منه في الملمات أبحرا
 لها أجم^(٤) والمشرقية إظفرا
 إذا ما رأوا ابن المحامد يشتري
 كتائب يحملن القنا والسنورا^(٥)
 إليها وبالجرد العناجيج^(٧) ضمرا
 تقدم لا يختار أن يتأخرا
 ويهزم في يوم الكريهة عسكرا

(١) الأحماس : الشجعان .

(٢) الطمرة : الفرس الجواد .

(٣) الجلال : الضرب بالسيف في القتال .

(٤) وردت في الديوان (أجماً) .

(٥) السنور : الدروع .

(٦) العناجيج : جمع عنجوج ، وهو الخيل الجواد .

(٧) الحراجيج : جمع حرجوج ، وهي الناقة الطويلة ، وقيل : الضامرة .

ونلاحظ من خلال الأبيات السابقة تركيز الشاعر على أهم عناصر الحرب: الأسلحة ، والخيول ، كما ويذكر الشاعر الأسلحة التي يستخدمها الجيش في القتال، السهام ، والسمهرية ، والمشرفية ، والقنا ، كما يصف خيل الحرب فهي خيل قويّة أصيلة .

وفي مقطوعة أخرى نوّه الأمد بشجاعة المقاتلين وفروسيّتهم وضراوتهم في القتال ، وإقدامهم على جهاد الغزاة وتشوّقهم لذلك^(١):

وعند لقاء الخيل في الرّوع كلّما	تَقصّد ^(٢) في القرن ^(٣) الوشيح ^(٤) المقوم
وحيث الكماءُ الحمسُ في غمراتها	كأنّهم في محكم السرد ^(٥) عوم
يشوقهم في موقف الموت نثرة ^(٦)	وأسمرُ عسالُ ، وأبيضُ مخذم
وجرداءُ مثلُ الريح تسبق ظلّها	إلى الغاية القصوى ، وأجردُ شيطم

(١) الملك الأمد بهرام شاة ، ديوانه : ١١٢ .

(٢) تقصد : تكسر .

(٣) القرن : الكفاء والنظير في الشجاعة .

(٤) الوشيح : الرماح .

(٥) السرد : اسم جامع للدروع .

(٦) النثرة : الدروع السلسلة الملبس .

رثاء المدن:

كان رثاء المدن من الموضوعات التي تناولها شعراء الأسر الشامية في عصر الحروب الصليبية، ولا سيما أن المآسي التي خلفتها الحروب طالت كل بيت وزلزلت كل قلب، حتى غدا كل إنسان عربي ومسلم مهتداً بداره، ومن هنا رثى الشعراء الدول الزائلة في شعرهم الذي " انصبّ على المدن المنهارة ، وإثارة الهمم النائمة " (١)، ويبدو صدق العاطفة سمة واضحة نتلمسها من خلال استعراضنا لما قيل في هذا الغرض.

ومن المدن التي تعرّضت للغزو المعرة وذلك سنة (٤٩١هـ)، وهو - وقت مبكر نسبياً من هذه الفترة - وبدأ ذلك بعد حصار طويل للغزاة احتّمى الناس خلالها بدور المعرة ، فأمنهم الإفرنج ثم غدروا بهم حينما عمدوا إلى رفع صلبانهم فوقها ويذهب ابن القلانسي إلى أنهم: " قطعوا على أهل البلد القطائع ولم يفوا بشيء مما قرروه، ونهبوا ما وجدوه، وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به " (٢) ، ويشير ابن الأثير إلى كثرة ما قتل من أهل المعرة، والذي يزيد على مائة ألف (٣)؛ ولعل ذلك ما بعث الرعب في نفوس أهل المعرة، ودفع بأعداد كبيرة إلى تركها والرحيل عنها، وكان من بين المهاجرين عددٌ من شعراء الأسرة المعرية أمثال القاضي أبو المجد محمّد بن عبد الله بن محمد بن أبي المجد

(١) أمين ، بكري شيخ ، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، ط ٣ ، دار الافاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م : ١٠٨.

(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٣٦.

(٣) ابن الأثير ، الكامل : ٢٧٨/١٠.

التتوخي، وكان مفتياً وقاضياً بها إلى أن دخلها الفرنج فانتقل إلى شيزر^(١).

ويبدو أن معظم من ترك المعرة بما فيهم الشعراء توجه إلى شيزر، وقد ذكر أحد الدارسين المعاصرين أعداداً منهم ممن ترك بلاده من المعريين وهاجر إلى شيزر^(٢).

ويكشف القاضي أبو المجد المعري السابق الذكر عن اضطراب الأمور في المعرة نتيجة لتسلط الغزاة وغيرهم في البلاد، مشيراً إلى أثر ذلك على أهل البلاد ولا سيما (أهل الفضل)، وقال هذه الأبيات بعدما فارق أهله بالمعرة، وبقي وحيداً وله غلام اسمه شعياً فقال^(٣) :

زمانٌ غاضَ أهل الفضل فيه فسقيا للحمام به ورُعينا
أسارى بين أتراكٍ ورومٍ وفقد أحبةٍ ورفاقٍ شعياً

وصور العميد أبو بشر بن الحواري ما أصابه من الحيرة والإنكار بعدما رأى ما أصاب الديار من الخراب والدمار ولا سيما بعدما التفت الشاعر إلى بيته الخرب " فنفر منها ثعلب " ^(٤)، ويبدو لي أن تحديد صورة الثعلب هنا ربما حملت معنى مجازياً، لما رُكب في طبعه من المكر والدَّهاء التي توافق صفات الغزاة وخاصة أنه وظف في شعره صورة الوحش (مسارب الوحش) وهي صورة لها مدلولات نفسية

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٧ ، ٨ .

(٢) بهية فهد رسلان ، الشعر في إمارة شيزر أيام بني منقذ ، رسالة دكتوراه مخطوطة ، جامعة القديس يوسف ، بيروت ، ١٩٩٥م : ١٠٥ وما تلاها .

(٣) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ١١/٢ .

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب : ٣٣٩٧/٧ .

مختلفة لعل أبرزها ما تنشي به هذه الكلمة من معاني الخوف والرعب والمعنى يشير أيضاً إلى كل شيء لم يأنس به، ومعنى مكان وحش: خال، وأرض وحشة: أي قفر، وأوحش المكان من أهله وتوحش: خلا وذهب عنه الناس والوحشة: الخلوة والهم^(١)، وإذا سلّمنا بخلو المكان فإن عبارة (مسارب الوحش) توحى بالحركة والاندفاع وربما تشير إلى وحشية الغزاة بهذا المكان الذي غدا أطلالاً انمحت معالمه، وهو مكان صباه ومربع أحبابه، وهذا ما بعث الحزن والألم والحسرة في قلبه، وقد غني الشاعر بالتعبير عن انفعالاته أمام صورة المعرّة (الطلل) بعدما وجد نفسه "أمام صورة فناء شملت الإنسان والعمران معاً ويتعمق الإحساس بالزمن وتحولاته السلبية فهو الجائر الجاني"^(٢).

ويستلهم الشاعر وقائع التاريخ للالتكاء عليها لرسم مظاهر العظمة الزائلة كالإشارة إلى نوشرون (كسرى)، وسيف ذي يزن، وقصر غمدان في اليمن، وجُلّها صارت من ذكريات الماضي ومخلفاته على عظمتها وهو في ذلك يدل على النزعة التأملية لدى الأسرة المعريّة، وقد ذكر هذه المظاهر الزائلة لا على سبيل التأسّي وحسب؛ إنّما ليشير إلى ما حلّ بالمعرّة من الهدم الذي يمارسه الزمن على الحضارة الإنسانية^(٣) يقول^(٤):

(١) ابن منظور، لسان العرب مادة وحش: ٢٣٦/١٥.

(٢) شفيق الرقب، صورة المدينة المحتلة في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبيّة، مجلة المنارة، جامعة آل البيت، مج ٦، ع ١٤، أيلول ٢٠٠٠م: ٣٩.

(٣) نفسه: ٣٩.

(٤) ابن العديم، بغية الطلب: ٢٩٨٧/٦، العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام): ٨٧/٢.

أهذه بين إنكاري وعرفاني
جَهَلْتُهَا وَلَقَدْ أَبَدْتُ مَلَاغِبَهَا
فَعُجْتُ أَسْأَلُهَا وَالِدَمْعِ مَنْسَكِبُ
يَا دَارُ مَالِي أَرَى الْآيَامَ قَدْ حَكَمْتُ
فَلَوْ أَجَابْتُ لَقَالَتْ هَذَا فَعَلْتُ
وَفِي مَدَائِنَ نَوْشِرَوَانَ مُعْتَبَرُ
فَاذْهَبْ لَشَأْنِكَ فَالْدُّنْيَا لَهَا دَوْلُ
مَسَارِبُ الْوَحْشِ أَمْ دَارِي وَأَوْطَانِي
عَهْدُ الصَّبَا بَيْنَ إِخْوَانِي وَخَلَاتِي
وَالْقَلْبُ فِي لَوْعَةٍ مِنْ وَجْدِهِ عَانِ
فِينَا وَفِيكَ بِحُكْمِ الْجَائِرِ الْجَانِي
قَدْماً بِجِيرَةِ نِعْمَانٍ وَنُعْمَانِ
لِلسَّائِلِينَ وَفِي سَيْفٍ وَغُمْدَانِ
تَمْضِي وَتَأْتِي وَكُلُّ بَيْنِهَا فَانِ

كما أقام الشاعر من خلال الأبيات السابقة مقابلة واضحة بينه وبين
الديار المهدمة، فربطها بماضي عمره (عهد الصبا) ليدلّ على أنّ الفناء
شمل جزءاً من حياته ، وقرن تأثير الأيام في الديار بتأثيرها في نفسه
والآخرين (حكمت فينا وفيك) ، ولكنّ هذه المقابلة انتهت إلى انفصال
تنسحب فيه الديار إلى الفناء والتلاشي ويمضي الشاعر إلى العمل والحياة
(فاذهب لشأنك) لتبدأ دورة أخرى من دورات الوجود الإنساني^(١).

وصور أبو المجد محمد بن عبد الله مشاعر الألم والحزن والحسرة
على الديار الخالية التي غدت أطلالاً بعدما أصابها التبدل والتغير ، واندثرت
معالمها وتتصاعد مشاعر الحزن حينما يسائل الديار عما أصابها فتجيب هذه
الديار المقفرة الخالية بصمت الأموات (إن سكوتي عنك إقرار) وتصدر
الأبيات عن عاطفة صادقة ملتاعة ؛ لأنّه " لا يرثى أمجاداً رآها وقد بادت في

(١) شفيق الرقب ، صورة المدينة في الشعر الشامي : ٣٩.

المعرّة ، إنّما يتحسر على ماضي ذكرياته وعلى سكان المعرّة الذين ألفهم " (١)
يقول (٢) :

مَرَرْتُ بِالْدارِ وَقَدْ غُيِّرَتْ	مَعَالِمُ مِنْهَا وَآثَارُ
فَقُلْتُ وَالْقَلْبُ بِهِ لَوْعَةٌ	تَحْرِقُهُ ، وَالْدمْعُ مَذْرَارُ
أَيْنَ زَمَانٌ فِيكَ خَلْفَتُهُ	وَأَيْنَ سُكَانُكَ يَا دَارُ ؟!
أَجَابَتِ الدَّارُ عَلَى عِيْهَا	إِنَّ سُكُوتِي عَنْكَ إِقْرَارُ
أَمَا تَرَانِي الْيَوْمَ مِنْ بَعْدِهِمْ	مُقْفَرَةٌ مَا فِي دِيَّارُ ؟!

وقد وقف وجيه بن عبد الله بن مسعر أبو المقدم التتوخي على المعرّة (الأطلال) حزينا باكياً لما أصابها ، ويبدو إحساسه بالفجيعة حينما يأمر بالوقوف بها لبكاء الشيوخ والشباب والأحباب ، ويبدو أن صورة الموت الذي أحاط بالشاعر من كل جانب وأفقده الأهل والأوطان غرس بداخله النزعة التأملية التي ظهرت على لسانه بصورة عبر ومواعظ لأن "العبرة لا تقع إلا بحدوث مصاب عظيم" (٣) يقول (٤) :

هذه بلدة قضى الله يا صاح	عليها كما ترى بالخراب
فقف العيس وقفةً وابك من	كان بها من شيوخها والشباب
واعتر إن دخلت يوماً إليها	فهي كانت منازل الأحباب

(١) شفيق الرقب ، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري : ٢٩٣.

(٢) أسامة بن منقذ ، المنازل والديار : ١٩٤.

(٣) محمد الهرفي ، شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، بيروت ، مؤسسة

الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م : ١٨٨.

(٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٣٩٩/٦٢.

ومن المدن التي تعرّضت للخراب والدمار على يد الغزاة بيت المقدس الذي فتحه صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٨٣هـ) وبعد موته اتجه الأعداء بانظارهم إليه والمطالبة به مرة أخرى ساعدهم في ذلك الخلافات التي نشبت بين أبناء البيت الأيوبي فغدوا معترفين مختلفين ، وقد ساهمت الاضطرابات السياسية بين الملك الكامل محمد بن العادل والملك الناصر بشكل خاص وبني أيوب عامة في تسليم بيت المقدس للملك الفرنج سنة (٦٢٦هـ)^(١)، ويبدو أن هذا الأمر سبّب استياءً واضحاً لدى الأمة وعلّق أحد القدامى على هذا الحدث مبدئاً غضبه واستياءه قائلاً: " أعوذ بالله من سخط الله ، ومن انتهاك شعائر الله ، وموالاته أعداء الله ، فكم بين من طهره من نجاسات الشرك ، وبين من ساق إليه نجاسات الشرك ، ومن أعز دين الله ونصره ، وبين من أذله وحقره " ^(٢)، ولما وصل نبأ تسليم بيت المقدس إلى صاحب دمشق في ذلك الوقت الملك الناصر داود أخذ في التشنيع على عمه ، وأمر بإقامة مجلس وعظ لبيان فضل بيت المقدس ومصيبة المسلمين بتسليمه إلى الفرنج، وأرسل الملك الناصر داود أبيات شعر إلى شيخ الإسلام^(٣) متمنياً لو أنه لم يخلق ، ولم تلده أمه ، أو لحق بأسلافه الذين ماتوا على أن يرى ما حلّ بالإسلام من الضيم يقول^(٤):

(١) انظر حول تسليم الكامل لبيت المقدس ، ابن تغري بدري ، النجوم الزاهرة : ٢٤١/٦ ، ٢٤٢ .

(٢) اليافعي ، مرآة الجنان وعبرة اليقضان : ٤٧/٤ .

(٣) عز الدين بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي (ت ٦٦٠هـ) انظر : الذيل على الروضتين : ٢١٦ .

(٤) الملك الناصر داود ، ديوانه : ١٧١ ، ١٧٢ ، البيت الثالث ورد : ٧٧ .

أَلَا لَيْتَ أُمِّي أَيْمٌ^(١) طَوَّلَ عُمرَها
ويا لَيْتَها ، لما قضاها لَسَيْد
قضاها من اللَّاتِي خُلِقْنَ عَوَاقِرًا
ويا لَيْتَها لما غَدَتَ بِي حَامِلًا
ويا لَيْتَنِي لما وَلَدْتُ، وَأَصْبَحْتُ
لَحِقْتُ بِأَسْلافي فَكُنْتُ ضَجِيعَهُمْ
فَلَمْ يَقْضِها رَبِّي لِمَوْلَى وَلَا بَعْلٍ
لَبِيبٍ أَرِيبٍ طِيبٍ الْفِرْعَ وَالْأَصْلِ
فَمَا بُشِّرْتُ يَوْمًا بِأَنْثَى وَلَا فَحْلٍ
أَصِيبْتُ بِما اجْتَنَّتَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمْلِ
تَشَدُّ إِلَيَّ الشَّدَقِمِيَّاتُ بِالرَّحْلِ
وَلَمْ أَرَ فِي الْإِسْلامِ ما فِيهِ مِنْ خَبْلٍ

وتوصل أحد الباحثين إلى أن صدى التنازل عن بيت المقدس في الشعر العربي كان باهتاً " اقتصر على قصيدتين وعدد من المقطوعات"^(٢)، وأكاد اتفق مع ما ذهب إليه الباحث من قلة الشعر الذي قيل لهذا الغرض في - حدود ما اطلعت عليه من شعر الأسر الشامية - ؛ إذ لم أجد في شعرهم سوى المقطوعة السابقة الذكر، وربما كان تعليل هذه الظاهرة يحمل أكثر من إجابة محتملة ، فربما ضاع هذا الشعر بقصد أو بغير قصد نتيجة للأوضاع المضطربة في ذلك العصر، وربما أغفل لما فيه من معانٍ تضعف العزائم وتفتت الهمم .

لم تكن الحروب الصليبية هي الباعث الوحيد على رثاء المدن ، إنما تعرّضت البلاد الشامية والإسلامية إلى أخطار أخرى، منها تلك الزلازل التي قوضت أركان البلاد الشامية سنة (٥٥٢هـ)، ووصلت

(١) الأيم : التي لا زوج لها ، بكرًا أو ثيبًا ، لسان العرب : ٢٩٠/١ .

(٢) عبد الجليل عبد المهدي ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ط٢، دار البشير ، عمان ١٩٩٥م : ١٩٥

الأخبار بعظم تأثير هذه الزلازل إلى مدينة شيزر وما حولها^(١)، كما أسلفنا في بداية الدراسة .

وذكرنا أيضاً خبر هلاك معظم بني منقذ، وقد رثى من بقي منهم الديار والأهل الهالكين، ومنهم أسامة بن منقذ الذي وقف على الديار بعد خرابها فقال: "فما عرفت داري ، ولا دُورَ إخوتي ، ولا دورَ أعمامي وبني عمي وأسرتي ، فبُهِتُ متحيراً مستعيذاً بالله من عظيم بلائه ، وانتزاع ما خوله من نعمائه"^(٢)، وتحت وطأة الإحساس العميق بعظم الرزية ألف أسامة كتابه (المنازل والديار) وقد جعله بكاءً للديار والأحباب^(٣).

ورسم أسامة بن منقذ صورة لدياره، وقد خلت من الأهل، والسكان، وغدت موحشة مظلمة (أظلالاً) فقال^(٤):

هذي ديارُ بني أبي ومعاشري	قفرٌ عليها وحشة وظلامُ
درستُ محافظةً لهم ، وتوحشتُ	من بعدهم ، وتعفتُ الأعلامُ
فإذا مررتُ بها فقل - متمثلاً	: "يا دارُ ما صنعتُ بكِ الأيامُ"

ويكشف الشاعر عن عمق حزنه، وعظيم ألمه لهلاك الديار التي محلت من كل شيء وماتت ، يظهر ذلك من خلال تكراره لصورة البكاء

(١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ٤٣ ؛ ابن الأثير ، التاريخ الباهر : ١١٠ .

(٢) أسامة بن منقذ ، المنازل والديار : ٧ .

(٣) المصدر نفسه : ٧ .

(٤) المصدر نفسه : ٧٦ .

وأداة العطف (أم) وهذا ما حمل النص دلالة نفسية تصوّر توجع الشاعر وتفجعه العميق فقال^(١) :

سارى الغمام بكلّ هامٍ هامِلٍ	حيّ ربوعك من ربّى ومنازلٍ
وطفاء ^(٢) تسفح بالهتُون ^(٣) الهاطل	وسقتك يا دارَ الهوى بعد النوى
عاف ^(٤) ، وتروى كلّ ذاوٍ ذابلٍ	حتى تروضَ كلّ ماحٍ ماحِلٍ ^(٥)
أهليك ، أم شرخَ الشبابِ الزائلِ	أبكىك ، أم أبكىَ زماني فيك ، أم
والوجدُ بين أحبةٍ ومنازلٍ ؟	ما قدرُ دمعِي إن تقسمه الجوى
في ماحِلٍ أبكى بجفنٍ ماحِلٍ	أنفقته سرفاً وهائاً ماثِلٌ
لا يستجيب ، ورمّت نصرة خاذلٍ	وإذا فرغتُ إلى العزاء دعوتُ من

ويصور شرف الدولة اسماعيل بن سلطان، ما حلّ بشيزر من الدمار والخراب من خلال مقطوعة تعبر عن تفجعه وحزنه ، وجاء تكراره لنداء أخيه الهالك تحت الانقاض، وهو أمير شيزر، كناية عن التفجع والتحسر يقول^(٦) :

يجانِ بلّ يا قصدَ كلِّ مؤملٍ	يا (تاج دولة هاشم) بل يا أبا التـ
والسترُ دونَ نساها لم يسبلٍ	لو عاينت عيناك (قلعة شيزر)

(١) أسامة بن منقذ ، المنازل والديار : ٢٧ ؛ الديوان : ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٢) سحابة وطفاء : مسترضية لكثرة مائها .

(٣) الهتون : الكثير القطر .

(٤) عاف : دارس .

(٥) تروض المكان الماحل : تجعله روضة . عاف : دارس .

(٦) ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب : ٦٧١/٢-٦٧٢ .

لرأيت حصناً هائل المرأى غداً متلهلاً مثل النقا المتلهل
لا يهتدي فيه السعاة لمسلك فكأنما تسري بقاع مهول

ومن النكبات التي حلت ببلاد الإسلام نكبة بغداد، حينما هاجمها التتار بقيادة هولاكو^(١) سنة (٦٥٦هـ)، وقد بذل فيها السيف فقتل الفقهاء، والأماثل، وسادات بغداد، والمدرسين، وهاجم دار الخلافة وقتل كل من فيها من الأشراف، و"دام القتل والنهب في بغداد أربعين يوماً"^(٢).

وكان أخطر ما في الأمر انهيار الخلافة في بغداد؛ إذ لم يقتصر خطر هذه الحادثة على بغداد وإنما كان لهذا الحادث خطره في حياة الدول الإسلامية عامة؛ لانتقال السلطة الدينية من بغداد.

وقد صور الشعراء آلامهم وأحزانهم لما حلّ ببغداد من القتل والدمار وتوجعوا على ما أصاب دار الخلافة ومن بين هؤلاء الشعراء الشاعر المعري إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر التتوخي الذي رثاها بقصيدة بلغت ستاً وستين بيتاً وصلنا منه اثنان وعشرون بيتاً^(٣).

بدأ الشاعر قصيدته بمقدمة باكية حزينة تصور ما حلّ ببغداد من تخريب وتدمير ولا يملك الشاعر إزاء ذلك إلا البكاء والوقوف على أطلال بغداد التي لم يعد يرى فيها إلا الدمار الذي تهب عليه أثار الغبار

(١) هولاكو خان بن تولي خان بن جنكيز خان ملك التتار، كان جبّاراً فاجراً، قتل من المسلمين عدداً كبيراً (ت ٦٦٤هـ) وقيل (٦٦٣هـ) ابن كثير، البداية والنهاية: ٢٦٢/١٣.

(٢) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر: ٣٠٢/٢، ٣٠٣.

(٣) مأمون فريز جرّار، الغزو المغولي أحداث وأشعار، ط ١، دار البشير، عمان ١٩٨٤م: ٣٨.

والرياح السوافي وفي هذا المعنى دلالة واضحة على هول ما ارتكبه التتار بها فالمكان خالٍ من معالم الحياة. ويطلب الشاعر من زائري بغداد أن لا يفدوا، لأن المكان غداً أطلالاً بالية ويبدو أن الشاعر لا يقصد المعنى المباشر وهو عدم القدوم ، إنما هو أسلوب يهدف إلى الاستثارة والتعبير عن الحزن ، والنداء هنا يحمل دلالة الحسرة والتوجع ، ويعرج الشاعر من خلال هذه المقدمة على عنصر هام من عناصر بغداد الطلل وهو (تاج الخلافة) ذلك الحمى الإسلامي الذي لم يعد يسمع له صوتاً، ولم يعد له أثر، ويرسم الشاعر صورة لما تمثله الخلافة الإسلامية من المعاني الحضارية فهي " التاج العريق ، والأرض الخصيبة ، ومواطن الشرف والكرامة ، والمعالم التي تتير الدنيا " (١) بيد أنها تولت بعد أن رماها الدهر بالمصائب ولم يبق منها سوى الآثار التي يبكي الشاعر فوقها (وللدموع على الآثار آثار) يقول (٢) :

لَسائلِ الدمع عن بغداد إخبارُ	فما وقوفك والأحبابُ قد ساروا ؟
يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا	فما بذاك الحمى والدارِ ديارُ
تاجُ الخلافةِ والرَّبعُ الذي شرفتُ	به المعالمُ قد عَفَّاهُ إقفارُ
أضحى لعطفِ البلى في ربعه أثرُ	وللدموع على الآثارِ آثارُ
تسفي السوافي عليه بعد ساكنه	نجل الخلائف من يخشى ويختار

ويرسم الشاعر بعد المقدمة السابقة صورة لما حلَّ ببغداد من أهوال ومصائب خلفها الغزو الظالم، والشاعر يصور أحزانه، ولوعة قلبه

(١) بكري شيخ أمين ، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني : ١٠٦ .

(٢) مأمون جرّار، الغزو المغولي أحداث وأشعار، ط١، دار البشير، عمان : ٣٨-٤٠ نقلاً عن مجلة نشرها المستشرق سوموغي .

المحترق ألباً، وكان أعظم ما حل ببغداد هو اعتلاء الكفر على الإسلام،
وقيام التتار على أمور المسلمين، وهذا يثبت أن الحرب كانت حرباً
عقائدية دينية بين أمتين مختلفتين ، المسلمين والمشركين .

علا الصليبُ على أعلى منابرِها وقامَ بالأمر من يحويه زنارُ
ومن أعمالهم الوحشية التي قاموا بها سبي النساء المصونات ،
وقتل العلماء الفضلاء ، ونهب الأموال :

وكم حريمٍ سبته الترك غاصبة وكان من دون ذاك السترِ أسترُ
وكم بدورٍ على البدرية انخسفت ولم يعدْ لبذورٍ منه إبدارُ
وكم ذخائرٌ اضحتْ وهي شائعة من النهاب وقد حازته كفّارُ

ويرسم الشاعر صورة مؤثرة تستثير الوجدان لا يملك السكوت
أمامها فينادي مستصرخاً بمرأى الحرائر التي تجر إلى السفاح بوحشية،
بينما الرجال يساقون للموت :

ناديتُ والسبيُّ مهتوكٌ يجرُّهمُ إلى السفاح من الأعداء دُعارُ
وهم يساقون للموت الذي شهدوا الموت يا رب من هذا ولا العارُ

وفي نهاية الأبيات يعود الشاعر مرة أخرى لتصوير ما حل ببغداد
من هولٍ عظيم ، أشبه بيوم القيامة، لعظم ما ارتكبه الغزاة من المجازر،
والسبي، وأفدح الأعمال التي تؤكد وحشيتهم، غير أن هذا اليوم حل
ببغداد وهو يوم عظيم ارتكبت فيه الغزاة أعظم المجازر وأفدح الأعمال،
فيعبر الشاعر عن جزعه وحزنه حيال ما حصل في بغداد متمنياً لو أنه
ذهب مع الذين قتلوا لكن هكذا جاء القدر :

إنَّ القيامةَ في بغدادٍ قد وجدتُ وحدها حين للإقبال إدمارُ
آل النبي وأهل العلم قد سُبوا ؟ فمن ترى بعدهم تحويه أمصارُ !

ما كنتُ آملُ أن أبقى وقد ذهبوا لكن أتى دون ما أختارُ أقدارُ

ومن بغداد تقدمت جيوش هولاء صوب بلاد الشام سنة (٦٥٨هـ) وحاصرت البلاد نحو سبعة أيّام ثم فتحوها بالأمان ولم يكن وجودهم في حلب أرحم من بغداد أو أقلّ قسوة إنّما " قتلوا منهم خلقاً لا يعلمهم إلاّ الله عز وجل" ^(١) وامتألت الشوارع بالقتلى وكانت خيول الغزاة تمشي عليهم ، كما ظهرت وحشيتهم مع النساء والصبيان وقد أسروا منهم " ما يزيد عن مائة ألف نفس وأكثرهم بيعوا في بلاد الفرنج وبلاد الأرمن... وكان فيهم من بنات الملوك، والأمراء، وأعيان، الناس الحلبيين المتنعمين خلق كثير .. " ^(٢).

ومن الشعراء الذين رثوا حلب ابن العديم كمال الدين ، وقد بدأ قصيدته بمقدمة تتضمن شكوى من الدهر وظلمه ، مُجسداً من خلالها صورة لفناء الأمم السابقة، وقد استلهم من وقائع التاريخ صورة اتكأ عليها كالإشارة إلى فناء الأمم العظيمة، التي كانت في الأرض من فرس وعرب ، إذ أباد الدهر ملوك الأرض كسرى وقيصر ، كما زال ملك بني العباس، وهنا إشارة إلى الخلافة العباسية التي هاجمها الغزاة فانقرض ملكهم "ونزل الذل والهوان بقصورهم التي كان الملوك يقبلون أعتابها" ^(٣)، كما زال ملك بني أيوب على عظمة ملوكه ومن الملاحظ أنّ جميع الأمثلة التي ساقها الشاعر تحمل صورة الفناء، وكلّها من ذكريات

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية : ٢٣١/١٣ - ٢٣٢.

(٢) ابن سباط الغزي، صدق الأخبار : ٣٨٥/١.

(٣) مأمون جرّار ، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٣م : ١٥٩.

الماضي الحزين على عظمتها ، ولعل مرأى انكسار حلب وخرابها اسلمت الشاعر للحظة تأملية استدعت في ذهنه صورة فناء الأمم السابقة على عظمتها يقول^(١):

هو الدهرُ ما تبنيه كفاك يَهْدِمُ	وإن رُمْتَ إنصافاً لديه فيظلمُ
أبادَ ملوكَ الأرض كسرى وقيصرا	وأصمت لدى فرسانها منه أسهم
وملكُ بني العباس زال ولم يدعْ	لهم أثراً من بعدهم وهمُ همُ
وأعتابهم أضحت تداسُ وعهدها	تبأسُ بأفواه الملوك وتلثمُ
وأفنى بني أيوب كثرَ جميعهم	وما منهم إلا مليكٌ معظمُ

وبعد هذه المقدمة التي تراءت من خلالها تلك النظرة التأملية لما سبق من فناء الحضارات الإنسانية والإسلامية القوية ، رسم الشاعر صورة لدخول جيش الغزاة إلى حلب وتكشف الأبيات الشعرية عن صورة هذا الجيش العرمرم كالسحاب ، وكأمواج البحار الزواجر ، وما جُبِل عليه هذا الجيش من الغدر ، والقسوة ؛ إذ لم يكتف بعنصر المفاجأة في الدخول لمدينة حلب (غداة أتاها للمنية بغتة) إنما تعدى ذلك ليشمل التنكيل بشعب أعزل (مالهم من الموت واقٍ) .

وتتضح سمة الغدر مرة أخرى عند جيوش التتار التي استمر حصارها للمدينة ستة أيام فدخلوها بالأمان - فعملوا على التنكيل بأهلها . ويدلل الشاعر على مقدار العذاب والخراب الذي حلّ بالبلاد حينما يفسح

(١) العيني ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان تراجم (٦٤٨-٦٦٤هـ) : ٣٤٠/١ -

المجال لذهن السّامع ليتصور أنواع العذاب، "وكل ما يتوقعه الإنسان من العجائب " (١) يقول:

أحلّ بها يا صاح إن كنت تعلمُ	وعن حلبٍ ما شئت قل من عجائب
من المغل جيش كالسحاب عرمرمُ	غداة أتاها للمنيّة بغتةٌ
على سبقٍ جردٍ من الخيل طهمُ	أحاطوا كأسراب القطا بربوعها
من الموت واقٍ لا ولا منه معصمُ	ومن بعد ستٍ هاجموها وما لهم
دهاهم ولا ما شيدوه ورمموا	فما دفعت أسوارها عنهم الذي
ببيضٍ وسمرٍ والقتامُ مخيمُ	أتوها كأمواج البحار زواخر

ولم يجد ابن العديم أبلغ من الوصف القرآني ليوم القيامة ليتحدث عن أهوال ذلك اليوم الذي غزاهم به هولاء قال تعالى " وإذا الجبالُ سُيِّرَتْ، وإذا العِشَارُ عُطِّلَتْ، وإذا الوحوشُ حُشِرَتْ، وإذا البحارُ سُجِّرَتْ " (٢):

وقد عنّدم الفضّي من تربها الدّم	فلو حلب البيضاء عاينت تربها
بهنّ بحار الموت والجو أقتم	وقد سِيرَتْ تلك الجبالُ وسُجِّرَتْ
مراضع عما أرضعت وهي هيّم	وقد عطلت تلك العِشَارُ وأذهلت

ويصور ابن العديم ما لحق بأهل حلب من الفواجع التي لم تقتصر على النواحي الاجتماعية المتمثلة بالقتل والسبي إنما تعدّت ذلك لتشمل النواحي الحضارية والدينية ، وكأنّ الغزاة أخذوا على عاتقهم إبادة كلّ ما تختص به أمة الإسلام ، فتمثّل خطرهم على الإنسان، الدّين، الحضارة ،

(١) مأمون جرار ، أصداء الغزو المغولي : ١٥٩ .

(٢) سورة التكوير ، آية ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ .

وقد صور الشعر ذلك حينما وصف فعل هذه الجيوش وعلى رأسها هولاء في حلب: فهي " تقتل بلا رحمة ، وتريق الدماء، ويعبث بكل المقدسات فيهدم المساجد ، ويمزق المصاحف، مبعثراً أوراقها المطهرة، ثم يتجه إلى النساء فيجزّ منهنّ الشعور ، ويأخذ السبايا لا يرق للوجوه الجميلة تلطخت بالدماء ، ولا يلين للأصوات الضعيفة تستغيث مولولة شاكية" ^(١)، وهذه هي آثار الغزو على حلب كما وصفها ابن العديم:

فيا لك من يومٍ شديدٍ لغامه	وقد أصبحت فيه المساجد تُهدمُ
وقد دُرست تلك المدارسُ وارتمتْ	مصاحفها فوق الثرى وهي تُهضمُ
وقد جُرزت تلك الشعور وضُمّتْ	وجوهٌ بأمواءِ الدماءِ وهي تلطمُ
وكلُّ مهابةٍ قد أهينت سبيّة	وقد طال ما كانت تُعزُّ وتُكرمُ
تُنادي إلى مَنْ لا يجيبُ نداءها	وتشكو إلى مَنْ لا يرقُّ ويرحمُ

ولا شك أن هذه الأبيات التي تصف أحوال المسلمين في حلب تحمل نوعاً من الاستثارة الوجدانية لكل مسلم حريص على دينه وعرضه.

ويصور ابن العديم إحساسه وانفعالاته أمام صورة الفناء التي حلت بحلب من خلال تجسيد حلب بصورة أطلال أقفرت من أهلها ، ويتجلى الإحساس العميق بعظم الفاجعة حينما عمد الشاعر إلى إقامة حوار بينه وبين حلب (الأطلال) بيد أنّها (أعيت جواباً فهي لا تتكلّم) :

وأقوتُ رسوّمَ كنّ فيها وأقفرت ربوعٌ بهم كانت تنهرُ وترسّمُ

(١) فوزي محمد أمين ، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول (٦٤٨ - ٧٨٤)

دار المعارف، ١٩٨٢م: ٩٢

فأيقنتُ أن الأرض مادتْ وأقبلتْ بها الصاخة الكبرى والآن التنقُمُ
فيا حلباً أنى ربوعك أقفرتْ وأعيت جواباً فهي لا تتكلمُ

وعمد الشاعر إلى إقامة مقابلة بين حال المدينة قبل الغزو وبين حالها بعد الغزو ليدلّ على هول الفاجعة التي أصابت البلاد ، فقد كانت في الماضي جنةً ، وملجأ لمن خاف ، وغوثاً للوفود ، ومقصداً لكل معدم أما بعد الغزو فقد تحولت من الجنة إلى جهنم ، وتحولت من كل ذلك إلى أطلالٍ ولعل في هذا التصوير وهذه المفارقة استثارة للمشاعر والوجدان .

وكنْتُ لمن وافاك بالأمس جنّةً فما بالُ هذا اليوم أنت جهنّمُ
بأيّ جنّا منك استحقّيتُ ذي الذي أصابك والأعداءُ فيك تحكّموا
وكيف أصابتك الحوادث غيرةً بعين الردى والبؤسُ عنك يترجّمُ
أما كنْتُ ملجأ لمن خاف حايراً وفيك لذي البأساءِ والضررِ أنعمُ
أما كنْتُ غوثاً للوفود ومقصداً يخافك ذو شرٍ ويرجوك مُعدمُ
أما كنت للداعي إذا ما دعى جداً وفيك لمن يبغي من البغي مقدّمُ

والشاعر في الأبيات السابقة عمد إلى التكرار لبيان عظم الفجيعة وحمل التكرار معنى التوجّع إضافة إلى الاستثارة والاستغاثة . ويصور الشاعر مرة أخرى إحساسه بالحزن فالمدينة غدت أطلالاً قفراً خالية من الأهل والأحباب ويتساءل الشاعر بنبرة تحمل الحسرة عما أصاب الأهل والأحباب :

يعزُّ على قلبي المعنى بأنني أرى ربّك المأنوس قفراً ويعظمُ
فأين أحبائي الذين عهدتهم برّبك والقُطانُ فيك مخيمُ
وأين شמושٌ كن بالأمس طلّعاً فأين استقلّوا بالركابِ ويمّموا

بدا لك سرّ طال عنك اكتنامهُ
فأنت حجابُ القلب عن سرّ غيبه
وإن غبت عنه حلّ فيه وطنبت^(١)
وجاء حديث لا يملّ سماعهُ
ولاح صباح كان منك ظلامهُ
ولولاك لم يطبع عليه ختامهُ
على منكب الكشف المصون خيامهُ
شهّي إلينا نشره ونظامهُ

وصور القاضي المرتضى مجاهدات المتصوفة التي يمرُّ بها
أصحاب الطريقة متكناً فيها على الرمز الصوفي ، إذ صور نفسه ، ذليلاً ،
تائهاً ، جائعاً ، حائراً ، مختبطاً من الإعراض ، وظلمة الصد فقال^(٢):

قد جاءكم برداء الذلّ مشتملاً
أسكنتموه زماناً أرض هجركم
وظلّ من وحشة الإعراض مختبطاً
قتلتموني وأنتم أولياء دمي
عبدّ لكم ما له من أسره فاد
فتّاه فيها بلا ماء ولا زاد
في ظلمة الصدّ من وادٍ إلى وادٍ
فمن يطالب والفادي هو العادي

ومن الرموز التي اتكأ عليها القاضي المرتضى لتصوير شوقه
للمعرفة ومجاهداته في الوصول إليها الشمعة ، فحاله من حالها وكأنها
ذوب روحه تشاركه شوقه وحرقته ، وبكائه وكأنه أراد القول : إنه لا بد
لمن يريد الوصول إلى معرفة الذات الإلهية من الاصطلاء بنار الشوق
يقول^(٣):

إذا صال البلا وسطاً عليها
إذا خضعت تُقطّ بحسن مسنّ
تلقّته بذلّ في التّواني
فتحيا في المقام بلا تّوان

(١) طنبت : من طنّب : حبّل الخباء والسرداق، ابن منظور ، لسان العرب : ٢٠٥/٨.

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٣١٦/٢.

(٣) المصدر نفسه : ٣١٨/٢.

كأنّي مثلها في كل حال أموت بكم وتُحييني الأمانى

وقد اتكأ القاضي المرتضى على الرمز الغزلي للتعبير عن مواجد الصوفية والشوق للذات الآلهية ، ولعل انتقال صورة الغزل من الشكل المباشر المعهود إلى معاني صوفية غزلية حملها دلالات رمزية في التفسير والتأويل ، وقد رسم القاضي المرتضى صورة لما حلّ بقلبه من لذة الوصل والشوق ، ونشوة الحب الآلهي يقول^(١):

هَبَّتْ رياح وصالهم سَحَرًا	بحدائقِ الشَّوقِ في قلبي
واهتزَّ عود الوصلِ من طرب	وتساقطتْ ثمرٌ من الحبِّ
ومضتْ خيول الهجر شاردةً	مطرودةً بعساكر القُرب
وبدتْ شمس الوصل خارقةً	بشعاعها لسُرادق ^(٢) الحُجب
وصفا لنا وقت أضاء به	وجه الرضا عن ظلمة العتب
وبقيتْ ما شيءٌ أشاهده	إلا ضننتُ بأنّه حبي

ومن أشهر القصائد الصوفيّة التي قالها القاضي المرتضى مستلهماً من خلالها نهج القصيدة الغزليّة التقليديّة تلك القصيدة المسماة بالقصيدة الموصلية والتي روي عن بعض المشايخ " إنه رأى في النوم قائلاً يقول: ما قيل في الطريق مثل القصيدة الموصليّة " ^(٣) ، وسنوردها كاملة لأهميتها في رسم معالم القصيدة الصوفية ذات البناء الرمزي المتكامل. كما ذهب د. أمين يوسف عودة حيث يرى أن رحلة القاضي المرتضى

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٣٢١.

(٢) السُرادق: كل ما أحاط بشيءٍ من حائط أو مضرب أو خباء ، لسان العرب ، ٢٣٤/٦.

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٥١/٣.

الشهرزوري الصوفية المستوحاة من الشعر الجاهلي قد تحولت إلى " معادل رمزي لرحلة الصوفي إلى الحق عز وجل " ويقول : إنها " تولّد الرغبة الداخلية في طلب الله تعالى ، مُكْنِيّاً عن ذلك بالتمتع النار من بعيد كما لو أنها تشير إلى نداء خفي قادم من غيب مجهول يدعو الرائي للاستطلاع ثم يأتي ركوب الطريق ، والسير إلى طلب هذه النار كناية عن قطع المقامات " (١) يقول (٢):

لَمَعَتْ نارهم وقد عَسَعَسَ الليـ	لُ وَمَلَّ الحادي وحارَ الدليلُ
فتأملتُها وفكري من البيـ	نِ عليلٌ ولحظ عيني كليل
وفؤادي ذاك الفؤادُ المعنى	وغرامي ذاك الغرامُ الدخيل
ثم قابلتُها وقلتُ لصحبي	هذه النارُ نار ليلي فميلوا
فرموا نحوها لحاظاً صحيحاً	ت فعادت خواسئاً وهي حُول
ثم مالوا إلى الملام وقالوا	خَلَبٌ ما رأيتُ أم تخييل
فتجنبتهم وملتُ إليها	والهوى مركبي وشوقي الزميل
ومعي صاحب أتى يقتفي الآ	ثار والحبُّ شرطُه التطفيل
وهي تعلو ونحن ندنو إلى أن	حجرتُ دونها طُلُولٌ مُحُول

ومن خلال الأبيات السابقة نجد أن الشهرزوري اتكأ على الآيات القرآنية التي تصور رحلة سيدنا موسى عليه السلام في طلب قبس من النار ليصطلي هو وأهله بها حين واجه الذات الإلهية قال تعالى : " إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمُ مِنْهَا بِقَبْسٍ أَوْ أَجِدُ

(١) أمين عودة ، تجليات الشعر الصوفي ، ط ١ ، دار فارس - عمان ، ٢٠٠١ : ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٤٩/٣ - ٥١ .

على النار هُدى" (١)، وفي قول الشهرزوري (لمعت نارهم وقد عسس الليل) ولكنه يزواج بين ما جاء في القرآن وبين ما يرد في الشعر العربي الجاهلي من عناصر القصيدة الطليّة وما فيها من غزل وحوار مع الزميل (الرفيق) ورحلة الصحراء في طلب الممدوح غير أن الممدوح عند الشهرزوري هو الذات الإلهية وهو ذاته الذي عبّر عنه من خلال المعادل الرمزي (نار المحبوبة ليلي) التي لم يستطع هو أو رفاقه أن يلحظوها لارتداد أبصارهم عنها (خواسئاً وهي حُول) متكنّاً على موضع آخر من مواضع الاستشهاد في القرآن الكريم قال تعالى : " ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ " (٢).

ثم يصف كيف دفعه الحب الإلهي إلى الاقتراب من نار ليلي، رغم حُرقتها ورغم تحذير رفاقه بأنها ما هي إلا محض خَلَبٍ وخيالات لكنه يمضي في رحلته واصفاً ما صادفه من أحوال المتصوفة (عُشاق ليلي)، وقد ارتموا في الطريق ما بين جريح وأسيرٍ ومكبلٍ وقتيلٍ لا تسمع خلال الرحلة غير زفراتهم وآهاتهم:

فدنونا من الطلولِ فحالت	زفراتٌ من دونها وغليلُ
قلت : مَنْ بالديار ؟ قالوا : جريحُ	وأسيرٌ مكبَّلٌ وقتيلُ
ما الذي جئتَ تبتغي ؟ قلت : ضيف	جاء يبغي القرى فأين النزول
فأشارت بالرحبِ دونك فاعقر	ها فما عندنا لضيفٍ رحيل
مَنْ أتانَا ألقى عصا السير عنه	قلتُ: مَنْ لي بها وأين السبيل؟
فحططنا إلى منازل قومٍ	صرعتهم قبل المذاق الشمول

(١) سورة طه ، آية ١٠ .

(٢) سورة الملك ، آية ٤ .

درسَ الوجدُ منهم كلَّ رَسَمٍ
منهم من عفا ولم يبق للشك—
ليس إلا الأنفاسُ تخبر عنه
ومن القوم من يشير إلى وجب—
ولكل رأيت منهم مقاماً
قلت أهل الهوى سلامٌ عليكم
وجفونٌ قد أقرحتها من الدم—
لم يزل حافز من الشوق يحدو
واعذارى ذنبٌ فهل عند من
جئت كي أصطلي فهل لي إلى نا
فأجابت شواهدُ الحال عنهم
لا تروقنك الرياضُ الأنيقا
كم أتاها قومٌ على غرةٍ من—
وقفوا شاخصين حتى إذا ما
وبدت راية الوفا بيد الوجد—
أين من كان يدعينا فهذا الـ
حملوا حملة الفحول ولا يصـ
بذلوا أنفساً سَخَتْ حين شَحَّتْ
ثم غابوا من بعد ما اقتحموها
قذفتهم إلى الرسوم فكلُّ
نارنا هذه تضيء لمن يسـ
منتهى الحظ ما تزود منها اللحـ

فهو رَسَمٌ والقومُ فيه حلول
وى ولا للدموع فيه مقيـ
وهو عنها مبرراً معزول
دِ تبقي عليه منه القليل
شرحه في الكتاب مما يطول
لي فؤادٌ عنكم بكم مشغول
ع حثيثاً إلى لقاءكم سؤل
ني إليكم والحادثات تحول
يعلم عذري في ترك عذري قبول
ركم هذه الغداة سبيل
كل حدٍّ من دونها مقلول
تُ فمن دونها ربي ودُحُول
ها وراموا أمراً فعزَّ الوصول
لاح للوصل غرةً وحجُول
دِ ونادى أهل الحقائق جولوا
يومٌ فيه صبغُ الدعاوي يحُول
رَعُ يوم اللقاء إلا الفحول
بوصالٍ واستصغِرَ المبذول
بين أمواجها وجاءت سيول
دمه في طولها مظلُول
ري بليل لكنها لا تنيل
ظ والمدركون ذاك قليل

جاءها مَنْ عرفتَ يبغي اقتباساً
 فتعلّتْ عن المنالِ وعَزَّتْ
 فوقفنا كما عهدت حيارى
 ندفع الوقتَ بالرجاء وناهي—
 كلما ذاقَ كأسَ يأسٍ مَريرٍ
 فإذا سَوَّلَتْ له النفسُ أمراً
 هذه حالنا وما وصل العلى—
 وله البسطُ والمنى والسُّول
 عن دُنُوٍّ إليه وهو رسول
 كلُّ عزمٍ من دونها مخذول
 كَ بقلبٍ غداؤه التعليلُ
 جاء كأسٌ من الرجا معسول
 حيد عنه وقيل : صبرٌ جميل
 م إليه ، وكلُّ حال تحول

ومن خلال الأبيات السابقة نجد الشاعر يصف أحوال العاشقين في
 رحاب ليلي، وعيونهم الدامعة، وأنفاسهم اللاهثة، وأشواقهم العارمة،
 وتحذيرهم إياه بعدم الاقتراب من نار ليلي؛ لأن الوصول إليها مستحيل
 وإنّ منتهى الحظ هو التزود منها بلمحة، ومرّة أخرى يتكئ على القرآن
 وعلى قصة سيدنا يوسف مع إخوته وقد استشعر سيدنا يعقوب نيّة الغدر
 عند ابنائه اتجاه يوسف فجاء القرآن مصوراً ذلك قال تعالى : " وَجَاءُوا
 عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ
 الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ " (١).

وينبغي في حديثنا عن هذه القصيدة أن نشير إلى تنزيه الشاعر
 للمحبوبة عن الوصف الحسيّ وعرض مفاتها الأنثوية فلا نلمح في
 النص وصفاً لعينيها أو جسدها ، وذلك تنزيهاً للذات الإلهية عن صفات

(١) سورة يوسف ، آية ١٨.

البشر فهي كما يرى د. أمين عودة أراها أن: " تبقى مستكنة خلف غلالة شفيفة من الغموض، إشارة منهم إلى تعاليها" (١).

ومن شعراء الأسر الذين قالوا في التصوف الملك الناصر داود ، وربما كان إحساسه بالظلم من أقاربه، واضطراب أحواله الاجتماعية والسياسية مع أسرته المالكة دافعاً قوياً إلى القول في الشعر الصوفي، ونتفق مع ما ذهب إليه عبد الحسين خضر مُرجحاً إنَّ " صوفيته الروحية كانت ملجأً لجأ إليه بعد أن يئس من الناس الذين حولته، ولم يجد طريقاً للإصلاح والتوافق معهم فكانت نوعاً من التعويض والتعزية " (٢).

وصور الملك الناصر داود حبه وشوقه للذات الإلهية ، مستخدماً في ذلك ألفاظ الشعراء الغزليين للتعبير عن مواجده وشوقه لله ، وها هو يناجي الذات الإلهية التي ذاب فيها حباً فيقول (٣):

يا مالكا رقيّ ، وقلبي ذائبٌ	في حبه بين الأنام مشهرٌ
ما الفقرُ في الدنيا العذابُ وإنما	الفقرُ منك هو العذابُ الأظهرُ
إنَّ النهارَ بغير وجهك مظلمٌ	عندي ، وليلي من بهائك نيرُ
أشتاق وجهك لا سواه إذا غدا	قومٌ تشوقهم الجنانُ النضرُ
ويروقني من ماء وجهك شربةٌ	تروي الصدى إن راقَ غيري الكوثرُ
لكن رجائي أن أراك وخشييتي	من أن تقبّحني الذنوب فأهجرُ
يا من تفرّد بالبقاء ، فماله	ندُّ يُضاهي ، أو شريكٌ يُذكرُ

(١) أمين عودة ، تجليات الشعر الصوفي : ٣٢٧.

(٢) الملك الناصر داود ، ديوانه : ٨٩

(٣) المصدر نفسه : ١٩٤ ، ١٩٥.

ويستغرق الملك الناصر في حبّ الذات الإلهية، مجتازاً بذلك رتباً ومشاعر روحية تخص السالكين إلى الله كالشوق ، والمراقبة والمحبة والأنس، والطمأنينة، والمشاهدة، ثم اليقين، وهذه جميعها أحوال وتعبيرات صوفية نستشفها من خلال الأبيات التالية^(١):

يا من إذا رقد النّوأمُ ليَهمُ	سهرتُ أرقب منه بهجة الأبدِ
أنت الذي شغلت قلبي محبتهُ	فما له نظراً يلوى على أحدِ
يا رب أنت الذي أغنيّني كرمأ	عن كلّ شيء بما أودعت في كبدي
من ذا يراك فتحدوه مطالبةُ	إلى سواك طوال الدهر والأبدِ

ولعل أجمل قصائد الملك الناصر تلك التي قالها متغزلاً بعلوة متشوقاً لها رامزاً بها إلى الذات العلية^(٢):

تنفّسَ عن شوقٍ تمكّن في الصدرِ	وكتّم في المكنون من موضع السرِّ
فنمّ على ما ضمّته ضلوعه	كما نمّ نضاح الدخان على الجمر
مشوق به من حبّ علوة لوعة	كلوعة ذات الثكل بالولد البر

ويمضي الشاعر في تصوير سلوكه (رحلته) نحو علوة، جاهداً في قطع مقام الصبر، وهو من تعبيرات أهل الطريق ، وجاء في الرسالة القشيرية أن " الصبر هو الثبات مع الله تعالى وتلقي بلائه بالرحب والدعة" ، وقيل فيه عند المتصوفة أيضاً : " تجرّع الصبر " ، فإن قتلك قتلك شهيداً ، وإن أحياك أحياك عزيزاً"^(٣)، وتمثل الملك الناصر بهذا

(١) الملك الناصر داود ، ديوانه : ٢٠١.

(٢) المصدر نفسه : ٢٠٦-٢٠٨.

(٣) القشيري ، الرسالة القشيرية : ١٨٤ ، ١٨٦.

الخلق الصوفي الذي تجرعه من أجل الوصول للمحبوبة متذللاً إليها أن
تنظر إليه بعين رحمةٍ لترى مجاهداته وتعبه فقال:

وإنّ امرأ لم يألُ جهداً لفي عُذر	تصبرتُ جهدي عن هواها فلم أطق
وكيف مذاقٌ فيه شائبةُ الصبر	سقيتُ بذاك الصبر كأساً مريرةً
لما أحمرّ مبيضُ الدموع التي تجري	ولو كان لي صبرٌ غداةً ترحلوا
تُساق بالطافِ، وتجذبُ بالبر	أعلوّة ، سقاك الإلهُ سحائباً
ترى شبحاً خافي الضنى بادي الضر	قفي وانظري نحوي بعينٍ رحيمةٍ
على شخصه تسري به حيثما تسري	تكادُ إذا هبت رِيحُ دياركم
تُشافه أشواقي بالأسنةِ البشر	ألا أرسلها بالسلام ، فإنها

وفي نهاية قصيدته نستشف مذهبه التصوفي القائم على الحب
الإلهي معرضاً في سبيل ذلك عن كل هوى غير هوى المحبة الإلهية
قاطعاً مقامات أرباب السلوك، كما تتكشف في النهاية عن رحلة صوفية
بعد أن ظهرت علوة في بدايتها هي المعشوقة والحببية لنكتشف أنّ علوة
ما هي إلا ذات الإله التي يقطع في سبيل الوصول إليها الفيافي تاركاً
الملك والمال مضحياً بالعز والجاه في سبيلها ، وهي رحلة طريفة من
نوعها فبعد أن كان الشعراء التقليديون يتخلصون من موضوع الغزل،
ووصف المرأة إلى موضوع الرحلة الصحراوية للوصول إلى الممدوح،
انتقل شاعرنا إلى الصحراء للوصول إلى الممدوح، ولكنها صحراء من
نوع آخر (مقامات السالكين) بحيث لا خيول فيها مسرجة ولا إرقال
وركض يقول^(١):

سأعملُ في استنقاذِ قلبي من الهوى على نبذةٍ تُصحي له غايةَ الفكر

(١) الملك الناصر داود ، ديوانه : ٢٠٨.

وأسعى له، إن الهوى لمضرة
وأحبسُهُ في الله قسراً، وإنما
أيا قلب إن طاوعتني في سبيله
سأترك ما لا يتركُ القسُّ مثله
وأهجرُ ملكاً لا يُرجى بقاءه
وأركبُ عود الصبر في مهمة الرضا
أجوب فيافيهِ بهمتي التي
فيافي لا حِرزُ الثماد مقتراً
فيافي إرقالٍ وركضٍ بغير ما

ولا سيّما بالنابه القدر والذكر
تكون بدايات المطيعين في القسر
رشدت وأعطيت الكرائم في الحشر
من المال والأولاد والخال والصهر
وصالاً لملك لا يبيد مدى الدهر
بزاد من التقوى ، وهادٍ من الذكر
علت عن محلّ الأتجم السبعة الزهر
لديها ، ولا مدُّ الفرات بذى وفر
مرحلة صُهب، ومُسرّجة شُقر

كما اتكأ الملك الناصر على الرمز الخمري في وصف مواجد
المتصوفة، ومجاهداتهم الروحية للوصول إلى الذات الإلهية ، ويتضح
ذلك من خلال المجالس التي تدار فيها خمرة السالكين التي لا ينالها إلا
من جاهد وتعب في طلبها بعقلٍ صحيحٍ راجح، وما أن يشربها حتى
يدرك لذتها ونشوتها^(١) :

من قهوة الحبّ لا من قهوة الحبّ
يديرها كرمأً فينا أخو ثقةٍ
لكنما قدرها أعلى مكانتها
ما إن تلامسى رياها جنان فتى
ولا ترى نشواتٍ للعقول بها

شربتها قرقفاً معسولة الشرب
من غير ما ضنة منه على الشرب
لن تُنال بغير الحظّ والدأب
إلا جنان لبیب ماجد ندب
إلا لعقلٍ صحيحٍ ثاقبٍ طرب

^١ الملك الناصر داود ، ديوانه : ٢٠٤ .

ويمضي الشاعر مصوراً هذه الخمرة المعتقد ذات الوجود الأزلي
وهو بذلك يشير إلى الذات الإلهية الأزلية ، ويكشف الشاعر عن تجلياتها،
فهي خمرة تتصف بلذتها في قربها وبعدها تتير العقول يتلمس القلب في
ظلها لذة القرب لصفاء موردها يقول:

يا ساقى الشرب أبرزها معتقة	من دنّها الأزلي الطيب الرحب
منيرة يتجلى للعقول بها	خفي ما اكنن في شرق وفي غرب
وسقني كأسها صرفاً مدعدة	على رياض تجلى الحب للصبيب

النقد الاجتماعي :

جاء شعر النقد في معظمه على صورة مقطوعات شعرية حملت بعداً سياسياً اجتماعياً تحدّث من خلاله الشعراء عن قضايا المجتمع التي عاشها أبناء الأمة ومنهم الشعراء في عصر الحروب الصليبية نتيجة لفقدان العدل واضطراب الأحوال الاجتماعية والسياسية وكان الشعراء يعبرون عن مشاعر المعاناة هذه "لأنهم يتمثلون مشاعر العامة" (١)، وشمل النقد السياسي الفئات العليا للدولة كشؤون الحكم والقضاء ، واحتكار أموال الدولة ولا شك ان استئثار الفساد يؤدي إلى ضعفة أركان الدولة وأمنها واستقرارها ، ومن ذلك ما نجده ضمن مقطوعة أوردها العماد الأصفهاني لابن المهنا المعري (٢)، وقد حملت بعداً سياسياً اجتماعياً تحدّث من خلالها الشاعر عن قضية فساد أمور الحكم لتولي مناصبه عناصر لا تستحقه والشاعر يستحث قاضي حلب في نائبه وكاتبه لتغيرهما يقول (٣):

لا عَجَبٌ أن خَرَبَ الشَّامُ أوْ أَقْوَتَ مَغَانِيهِ ولا غُرُو
قد أَصْبَحَ المجدُّ به حاكماً وأَصْبَحَ المُنْشَى له ضَوْو

(١) شفيق الرقب ، شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ، مجلة مجمع اللغة العربية ، عدد ١٢٨:٥٥ .

(٢) ابن المهنا ، هو أبو محمد عبد القاهر بن علوي بن المهنا قاضي معرّة مصرين ، العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم الشام) : ٩٨/٢ .

(٣) العماد الأصفهاني ، الخريدة (الشام) : ٩٨/٢ .

مولاي ، محي الدين^(١) ، غيرهما عَنَّا فَتَحَوْنِي شُكْرَنَا أَوْ

ويبدو لي أن الأبيات السابقة على قلّة عددها فإنها أدت دوراً وظيفياً واضحاً برز من خلال إشارة الشاعر إلى حال الشّام وما فيه من الخراب في ظل حكّامه ، إضافة إلى أن المقطوعة حملت دعوة صريحة للإصلاح وتغيير عناصر الفساد.

وتحدث الشعراء أيضاً في نقدهم عن رجال القضاء من حيث سلوكيّاتهم وأحكامهم الجائرة على حد تعبيرهم فقد صور أبو المجد المعريّ معاناة الناس الذين حل بهم السخط نتيجة لظلم الحكّام وتعسفهم من خلال تصويرهم بالذئاب المفترسة ولا شك أن هذه الصورة تحمل دلالات نفسية تبعث على الرعب يقول^(٢):

تولّى الحكمَ بين الناسِ قومٌ بهم نزل البلاءُ من السّماءِ
كانّهم الذّئابُ إذا تعاوتْ سواغِبُها^(٣) على آثارِ شاءِ
يقولُ القائلون إذا رأوهم لقد جارَ القضاءُ على القضاءِ

وهي حالة من المفارقة وقلب الموازين فالقاضي هو العادي الذي لا يؤتمن جانبه وهو الخصم والحكم .

كما وقف الشعراء عند القائمين على الإدارة المالية مُعرّضين بهم وقد أشار أحد المحدثين إلى هذه الظاهرة باعتبارها " ظاهرة الكسب غير

(١) محي الدين ، هو محي الدين ابن القاضي كمال الدين محمد الشهرزوري قاضي حلب ،
العماد الأصفهاني ، الخريدة (الشّام) : ٣٢٩/٢ .

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشّام) : ١٢/٢ .

(٣) سواغِبها : جياعها انظر مادة سغب ابن منظور ، لسان العرب : ٢٧٤/٦ .

المشروع واختلاس أموال الدولة والثراء على حساب الشعب" (١) وأنشأ
النعمان بن واذع المعريّ مقطوعة شعرية انتقد فيها هؤلاء الفئة التي
استخلصت واستباحّت الأموال العامة لنفسها يقول (٢):

يا أيها الملأ لا ترتجوا الـ أملك وأرجوها إلى القابل
فالعالم قد صحت ولكنّها للعدل والمُشرفِ والعاملِ

وأشار شعر النقد إلى النزاع المحتدم بين التيارات المذهبية لا سيّما
مذهب الرافضة ، وقد عمل أولو الأمر على محاربتة فبعد أن قطع
صلاح الدين الأيوبي خطبة (العاقد) عمل جاهداً لمحاربة فلول الدولة
الفاطمية ومذاهبهم ، وهذا كمال الدين أبو الفضل الشهرزوري يُعرض
بنقيب العلويين وأولاده الذي ربما قصد بهم أهل ملته من العلويين وقد
عرض الشاعر بصورتهم بأسلوب سافر تهكمي ناعثاً أيّاهم بالعبيد؛ فهم
أولاد أنجاب كالعبيد يمضون وقتهم باللهو والغناء ومعاقرة الخمرة
فيقول (٣):

أولادك الأتجّاب في أرض الجزيرة كالعبيد
أوقافهم وقف على دفّ ومزمار وعود
ومدامة خُصِبَتْ بها أيدي السُّقاة ، إلى الزنود

(١) شفيق الرقب ، شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ، مجلة مجمع اللغة
العربية ، عدد ٥٥ : ١٣٣ .

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٤١/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٢٧/٢ .

كما عرّض بأخلاق نقيبهم بأسلوب ساخر ، فهو لا يفكر بالآخرة
همّة مقصور على شرب الخمرة في مجلسه كما عرّض بابن عسرون
ويوسف واصفاً إياه بالنذل اليهودي وفي النهاية يشكك الشاعر بانتماء
هؤلاء حقاً إلى البيت العريق وفي تكرار البيت الأخير نتلمس منه شدة
التحقير والازدراء بمهجوّه يقول :

يَحْتُثُّهَا وَرَدِيَّةٌ تُصْبِي النُّفُوسَ إِلَى الْخُدُودِ
هو وابن عسرون الطوي — لـ ويوسف النذل اليهودي
إن كان هذا ينتمي حقاً إلى البيت المشيد
فإلي يزيد إلى يزيد إلى يزيد إلى يزيد

ومن الملاحظ أن الشاعر لجأ إلى نقد يتسم بالقسوة وربما نعلل ذلك
لأن الشاعر يحارب بسبب (العقيدة) وهو في ذلك يلجأ إلى الأسلوب
الساخر التهكمي وإضفاء صفة النذالة والكفر على مهجوّه .

وانتقد شعراء الأسر الشاميّة أولئك الذي تخاذلوا عن الجهاد ، فقد
توجه أسامة بن منقذ بالذم والتفريع إلى حاشية معين الدين أنر ، ولا سيّما
بعد ان رأى منه ممالة للصليبيين ، مما دفع أسامة إلى ترك مركزه
كمستشار في بلاط معين الدين أنر واتجه إلى مصر " وأخذ يوجه سهام
نقده وتجريحه وتوبيخه " فقال^(١) :

اين الحميّة^(٢) والنفسُ الأبيّة؛ إذ ساموك خُطّة خسفٍ عارُها يَصُمُ
هلاً أنفتَ حياءً ، أو محافظةً من فعل ما أنكرته الغربُ والعجمُ

(١) محمود عبد الله أحمد أبو الخير ، الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين ، رسالة
دكتوراه ، القاهرة ، ١٩٧٩ : ٦٨٤/٢ .

(٢) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ١٩٧ .

أسلمتنا ، وسيوفُ الهند مُغمدةٌ
وكنْتُ أحسبُ مَنْ والاك في حرمٍ
وأنَّ جارك جارٌّ للسموعل ، لا
ومنها ايضاً :

هبنا جنينا ذُنوباً ، لا يكفرها
ألقيتهم في يدِ الإفرنج مُتبعاً

ولم يُروِ سنانَ السمهرى دَمٌ
لا يعتريه به شيبٌ ولا هَرَمٌ
يخشى الأعداي ، ولا تغتاله النقمُ

عذراً ، فماذا جنى الأطفالُ والحرمُ
رضا عداءٍ يُسخطُ الرحمنَ فعلهمُ

ثم يتحدث الشاعر عن حاشية مُعين الدين مقرّعاً إياهم وناعتاً إياهم

بالأعداي المتميزين بالشر :

هُمُ الأعداي ، وقاك الله شرُّهُمُ
إذا نهضت إلى مجد توأله
وإن غرتك من الأيام نائبةٌ
حتى إذا ما تجلت عنهم غيابتها

وهم بزعمهم الأعوانُ والخدمُ
تقاعداً ، فإذا شيدته هدموا
فكلُّهم للذي يُبكيك مُبتسمُ
بحدّ عزمك ، وهو الصارمُ الحزمُ

فها أنا ذو وَجَدٍ يَحِيدُ بِأَضْلَعِي عَلَيْكَ وَعَيْشِي فِي الْبِلَادِ يَذَمُّ

ويعرض الشاعر نتيجة مؤلمة لهذا الغزو الذي ترك البلاد خالية من الأهل والسكان فمن سلم من القتل ترك البلاد وارتحلوا ويتساعل الشاعر عن المكان الذي ارتحل إليه أحبابه (فأين استقلوا بالركاب ويمموا) ، ولا يملك الشاعر أمام هذا الحدث الجلل الذي هاله إلا أن يجفل من البلاد ويرحل عنها :

وفي النهاية يتفجع الشاعر على كل من كان في البلاد من الأهل فالفجعة حلت في كل منزلٍ من منازل حلب ، ويكي الشاعر شوقاً إليهم متسائلاً عنهم مقراً بقضاء الله وكأنّ الله مشيئة في ذلك :

أَنُوحُ عَلَى أَهْلِكَ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ وَأَبْكِي الدُّجَى شَوْقاً وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ
وَلَكِنَّمَا اللَّهُ فِي ذَا مَشِيئَةٍ فَيَفْعَلُ فِينَا مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ

الشعر الديني :

يعكس شعر بعض الأسر الشاميّة صورة واضحة لمشاعرها الدينية ومواقفها الاعتقاديّة ، وأبرز هذه الأسر ، الأسرة الشهرزوريّة ؛ ولعل ذلك يعود إلى أن معظم شعرائها كانوا من القضاة وعلماء الدين الذين تمثلوا تعاليم الإسلام وقيمه ، وقد تنوّعت القضايا التي تناولوها في أشعارهم الدينيّة ، فقد ردّ محي الدين الشهرزوريّ على الروافض^(١) الذين تكاثروا في عصره وأنكروا عليه حبّ صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معبراً عن تعلّقه بهم ، واعتقاده بصحة خلافة الأئمة الراشدين وذلك إذ يقول^(٢) :

لا تمي في هوى الصحا	بة ارجع إلى سقر ^(٣)
لا بلغت المنى ولا	نلت من رفضك الوطر
كيف تنهى عن حبّ قو	م هم السّمع والبصر
وهم سادة الورى	وهم صفوة البشر
فأبو بكر المقد	م من بعده عمر
ثم عثمان بعده	وعليّ على الأثر
أيها الرافضي حسن	بك فالحق قد ظهر

(١) الروافض : وهم فرقة تغالي في حب علي بن أبي طالب ، وبغض أبي بكر وعمر وعثمان.. سموا بذلك لأن زيد بن علي ، امتنع من لعن أبي بكر وعمر ، فرفضوا رأيه ، المقرئزي ، الخطط المقرئزية : ٤٠٧/٣ .

(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين : ٢٣٩/٤ .

(٣) سقر : اسم معرفة للنار في الآخرة ، ابن منظور ، لسان العرب : ٢٩٢/٦ .

وتحدث محي الدين الشهرزوري أيضاً راداً على الروافض الذين أنكروا الصفات وعطلوها ناعثاً إياهم بالجهل والضلال^(١).

قَامَتْ بِإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ أَدَلَّةٌ	قَصَمَتْ ظُهُورَ أُنْمَةِ التَّعْطِيلِ
وِطْلَانُ التَّنْزِيهِ لِمَا أَقْبَلَتْ	هَزَمَتْ ذَوِي التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ
فَالْحَقُّ مَا صَرِنَا إِلَيْهِ جَمِيعاً	بِأَدَلَّةِ الْأَخْبَارِ وَالتَّنْزِيلِ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِالْشَّرْعِ مُقْتَدِياً فَقَدْ	أَلْقَاهُ فَرَطُ الْجَهْلِ فِي التَّضْلِيلِ

ويُلح القاضي محي الدين الشهرزوري على المعنى ذاته في مقطوعات أخرى مُحدثاً فيها عن الذات الإلهية فربُّ العزّة لا يشبهه شيء، وهو ليس صورةً أو جسماً ، ومن يصدّق بذلك فهو في غاية الجهل يقول^(٢):

أَقْسَمْتُ بِالْمَبْعُوثِ مِنْ هَاشِمٍ	وَالشَّافِعِ الْمَقْبُولِ يَوْمَ الْجَدَالِ
مَا رَبُّنَا جِسْمٌ وَلَا صُورَةٌ	مُوصُوفَةٌ بِالْمِيلِ وَالْإِعْتَدَالِ
وَهُوَ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَا كَمَا	تَسْتَوِطُنِ الْأَجْسَامُ فَوْقَ الرِّحَالِ
نَزُولُهُ حَقٌّ وَلَكِنَّهُ	مُقَدَّسٌ عَنْ رَحْلَةٍ وَانْتِقَالِ
وَمَالِهِ قَطُّ انفصال عن الـ	شَيْءٍ وَلَا بِالشَّيْءِ مِنْهُ اتِّصَالِ
وَمَنْ يَقُلْ : اللَّهُ فِي خَلْقِهِ	مِثْلٌ فَقَدْ جَاوَزَ حَدَّ الضَّلَالِ

وكان التصوف أبرز الظواهر الدينية في شعر الأسرة الشهرزورية، فقد رسم القاضي المرتضى صورة لنفسه بعد أن سلك طريق السالكين ومقاماتهم في الوصول للذات الإلهية ، وبدأ بمقام

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٣٣٤/٢ .

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٣٣٥/٢ ، ٣٣٦ .

الإخلاص، ثم الصدق ، وبهما يتوصل إلى الصفاء (الصوفية)^(١) ، بعد مجاهدات قطعها ومعاناة من الهجر والحرمان وقيل : " صفوة القرب بعد كدورة البعد " ^(٢) ، وتأتي بعد ذلك كلّه البشرى للمتصوفة بأن الله خصّه بالمحبة، وهي من أسمى درجات التصوف ونستشف ذلك من خلال مقولته (جاء نسيم الاختصاص مبشراً) ويمضي المحب السالك للذات الآلهية معلناً تذللّه وحبّه ، وخوفه ، وفرحته بهذا القرب يقول^(٣):

حلفتُ بربِّ البيت والركن والحجرِ	لئن قدّم الأحاب من سفر الهجرِ
وعادوا إلى الإخلاص والصدق والصفاء	وحالوا عن الإعراض والصد والغدرِ
وجاء نسيمُ الاختصاص مُبشراً	تلقيتُهُم حبواً على الخد والنحرِ
ومرّغتُ وجهي في التراب تذلاً	وقبّلتُ أخفافاً بهم نحونا تسري
وأنشدتهم بيتاً قديماً نظمته	وأخفيتُهُ خوفَ الأجانب في سري
إذا أنا لم أخلع عذارِي فرحةً	بقربكم أهل الوفاء فما عُذري

وله أيضاً أبيات على منهج الصوفية ذهب العماد إلى أنه " سلك فيها مسلك الحقيقة ، وسبق أهل الطريقة " ^(٤) ، معبراً عن مواجده الدينية وانفعالاته الصوفية يقول^(٥):

(١) القُشَيْرِيّ، عبد الكريم بن هُوَازن ابو القاسم(ت ٤٦٥هـ) ، الرسالة القشيرية في علم التصوف ، تحقيق : معروف زريق ، علي عبد الحميد بلطجي ، ط ٢ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٠ : ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢٧٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٨١ .

(٣) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٣١٢/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٠٩/٢ .

(٥) المصدر نفسه : ٣٠٩/٢ .

المدح التقليدي :

يُعدّ المدح من الموضوعات التي تناولها شعراء الأسر الشّامية في عصر الحروب الصليبيّة ، وقد اقتصر المدح على عددٍ من الشخصيات البارزة في عصر الحروب الصليبيّة أبرز هذه الشخصيات الملك الظاهر غازي ، والإمام المستنصر بالله والملك الصالح ابن رُزَيْك ، ويلي هؤلاء القضاة أمثال :

القاضي الأجل الأشرف ابن البيساني ، والقاضي أبي المجد محمد بن عبد الله التتوخي أمّا الشعراء الذين مدحوا هذه الشخصيات فإنّ ما يميزهم أنّ جلّهم صاحب رفعة ونسب ومكانة رفيعة، أبرزهم الشاعر التتوخي ساطع بن عبد الباقي وثقة الملك بن أبي جرادة ، والملك الناصر داود بن عيسى ، غير أنّ ثمة اختلافات تميز بين منهج كل منهم في المدح ستوضح من خلال هذه الدراسة واكتفي بأخذ نماذج برزت عند هؤلاء الشعراء في المدح .

القصيدة الأولى للشاعر التتوخي ساطع بن عبد الباقي في مدح الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب ، وسمعتها منه ابن العديم حينما أنشدها للملك الظاهر سنة (٦١٢هـ) وذكر فيها ولد الملك الظاهر الملك العزيز " فاستحسنها الملك الظاهر ، واستعاد منه أبياتاً " ^(١) ، ولم أجد مصادر أخرى ذكرت هذه القصيدة ضمن حدود ما اطلعت عليه ، وأثبتها هنا ضمن هذه الدراسة :

(١) ابن العديم ، بغية الطلب ، ٤٠٩٥/٩ .

يبدو لي أنّ هذه القصيدة تعدّ إحدى القصائد المدحيّة التي جلّوها طابع ديني رغم أنّ القارئ للوهلة الأولى يخيل إليه أنها غزلية تقليدية في مقدمتها ، خمريّة في وصفها لمجالس المحبوبة وعهودها غير أنّ المتمعّن في معاني الأبيات يكشف للقارئ أبعاداً أخرى غير البعد الغزلي مما يجعلنا نرجح أنّ المحبوبة ما هي إلّا الوجه الآخر للممدوح على جلال قدره ورفعته لذلك ربّاً به عن الوصف الحسيّ للمرأة فلا ذكر لجمالها كما اعتاد الشعراء أن ينحوا في غزلياتهم وكل ما بدا منها هو اسمها فقط (لبنى) وحنينه إليها ، وقد عبر عن العلاقة القدسية التي تربطه بها عن طريق اختيار المكان وهو (الحج) وجبل عرفات ومكان رمي الجمار وهو آخر مكان قد يكون مناسباً للقاء العشاق .

يقول^(١):

أما الحج تلاقى الحيّ ولا لرمي جمار الهجر أوقاتُ
لعلّ في عرفات من عوارفكم وصلّاً لصبّ له بالخبت^(٢) إخبات^(٣)

وليتّ يجمعنا جمعٌ ويشعرنا سعيّاً بمشعر تلك الدار ساعاتُ

ولا شك أنّ محبوبته ظاهرة العفة والأخلاق وهذا ما يتضح من خلال النص وهذا يتناسب وصفات الممدوح فهي تُعرض عنه فيزداد حنين الشاعر إليها وهي محسنة وصاحبة جميل :

(١) ابن العديم ، بغية الطلب : ٤٠٩٥/٩ - ٤٠٩٨ .

(٢) الخبت : وهو علم لصحراء بين مكة والمدينة ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٣٤٣/٢ .

(٣) الإخبات : الخشوع .

ولي اليكم ومن ظمئكم ظمأ	مُبْرَحْ وإلى لبنى لباناتُ
أحنو إليكم حنيناً كلما نسمت	صبأ ويعتادني منكم صباباتُ
يا راحلين وقلبي في رحالهم	تجدوه وإن غفل الحادون روعاتُ
عودوا وإلا عدوا حسناً بقربكم	فللجميل وللإحسان عَوْدَاتُ
عسى يبينُ لعيني بعدما بنيت	عليه أنماطكم ^(١) للبينِ باناتُ

ويبدو لي وكأنه يعاتب الممدوح على عدم التفاته إليه وإحساسه بولائه رُغم ما تجمع به من ذكريات جميلة ومجالس أنس في الأيام الخالية وقد عبّر عن كل ذلك من خلال الصور التي رسمها لمجالس الخمرة التي جمعه بالمحبة والتي أحسن التخلص إليها عن طريق الطلب إلى العاذل عدم لومه على شغفه بالمحبة فلو علم العاذل بالأيام الخوالي وسط الرياض والأنهار، ومجالس السّراح ، لما لامه على حبّه وبذلك توسل بهذا المعنى للدّخول إلى وصف مجالس الشّراب ، وكما أن الحج في عرفة ليس مكاناً لرمي الجمار بل مكاناً لرمي معاني الهجر والصدود؛ فإن مجالس الخمر ليست مكاناً للهو والسّكر ، وإنما هي قطعة من جنة ينبيك عن ذلك ما يظهر في النص من إشارات دينية تضيفي القداسة على هذه المجالس :

حفظتكم وأضعتم ما أمنتكم	له ومن مثلكم ترعى الأماناتُ
فيا عدولي أقلّ اللوم وابق فما	يفيدُ عدلي ولا تغني الملاماتُ
عهدي بنا قبل وشلّ البين يجمعنا	ظلّ ظليل وروضاتُ أريضاتُ
في سرحة سرحت أنهارها وزهت	أزهارها وبها للهو لدات

(١) أنماط : النمط الجماعة ، جماعة امرهم واحد .

سماؤها الدوحُ تبدي الزهرَ من زهرٍ وأرضها كيفَ سارَ الطرفُ روضاتُ
تديرُ فيها شמושَ الراحِ في فلكٍ من الزجاجةِ أقمارٌ منيراتُ

* * *

قد أبدعَ الله فيها كلَ رائقة تناوحتُ فنواحيها بديعاتُ
نمارقٌ^(١) وزرابي مفوفةً نسجُ الربيعِ لرائيها أنيقاتُ

ويتساءل القارئ لما تخلص الشاعر من الغزل إلى الخمریات، مع
أنَّ عادة الشعراء هو التخلص من الغزل إلى رحلة الصحراء التي توصله
إلى الممدوح؟ والمتأمل في الأبيات يجد الشاعر قد ربط المحبوبة،
ومجالس الخمر وما فيها من نعيم ولذة وصحبة للمحبوبة وبين دولة
الغازي التي وصفها بالكمال وهذا يعزز ما ذهبنا إليه من رمزية المحبوبة
ومجلس الخمر :

كانها دولة الغازي التي كملتُ وصفاً وعمتُ رعاياه الرعاياتُ

وهذا من باب حسن التخلص ، ويضفي الشاعر بعد أن تخلص إلى
وصف الممدوح بصورة صريحة على الملك الظاهر صفات يجنح فيها
إلى المبالغة ، فهو الملك ، الذي بيده الأنواء المطيرات :

الظاهرُ الملكُ المخلوقُ من ملكٍ ومن أياديه أنواءٌ مطيراتُ
يمحو ويثبتُ أرزاقَ الوري بيد لا زالَ فينا لها محوٌ وإثباتُ

ثم يعود لينهج نهج الشعراء في المديح فتهدأ نبراته الحادة التي
نزعت إلى المبالغة في الأبيات السابقة فيصف الملك الغازي: بالعدل،
والحلم، والرأي الثاقب وهي صفات معقولة طالما تغنى بها الشعراء :-

عدلٌ وحلمٌ ورأي ثاقبٌ وسطاً تُغنى بتدبيرها في الروع راياتُ

(١) نمارق : أي وسائد ، ابن منظور ، لسان العرب : ٢٩١/١٤.

ويميل الشاعر إلى استحضار الصور المعبرة بقوة عن المعنى الذي يريده فالأسد والتي هي رمز الشجاعة والقوة تخاف الملك الظاهر، ونجم الجوزاء الذي هو من رموز الرفعة والعلو يحسد الملك الظاهر على علو همته، وتظهر صورته في أوج تعبيرها وقوتها عندما يصف مناقبه التي تظهر ما أجنته الظهيرة، بمعنى ما خفي وقت الظهيرة من أجرام سماوية كالأنجم وغيرها :

تخافه الأسد في الأخياس^(١) مشبلة وتستحي من حياه المستهلات

تاهت بدولته الدنيا وجملها أثاره ومساعيه الأبيات

* * * *

وهمة هامة الجوزاء تحسدها وعزمة تتوقاها المنيات
مناقب لو حوتها الشهب ما خفيت وأظهرت ما أجنته الظهيرات

ثم يعرج الشاعر على وصف بطولات العائلة اليوسفية، ومآثرها في الحرب فإذن بطولة الملك الظاهر قد ورثها أباً عن جد ، وهذه إشارة إلى رفعة نسبه كما يبدع في وصف صورة بأسهم في الحرب فنقعه ليل، وصوتهم رعدٌ وسيوفهم برقٌ، ورماحهم كالأشطان (الحبال) وهامات الرجال المقطوعة كالسحب فوق السيوف :

لا غرو يأسف عصرٌ قد خلا أسفاً عصراً بنوه الخلال اليوسفيات
إذ بدا الليل نقعاً والرعود سهيل الجرد والبرق بيضٌ مشرفيات
والسمهرية كالأشطان^(١) واردة خرساتها شرع والسحب هامات

(١) الأخياس: الشجر الملتف.

أبداً محياه بدمراً والملوك له
من أخوة يتوخى أن يعود لهم
أهلاً تجتلى واللىم هالات
إشراق ملك له في الغرب عادات
ان الملوك وأبناء الملوك وأخو
ان الملوك وحسبي والتحيات
ويعتذر الشاعر بعد هذه الصور الرائعة عن عدم قدرته على
التعبير وإيفائهم حقهم من الوصف :

علام لا يعجزُ الوصافُ وصفهم وهم بملكك في الدنيا علاماتُ
ولم يفته في نهاية النص أن يدخل إلى موضوع التهنية بالمولود
الجديد ابن الغازي، مستغلاً هذا النص ليدرج التهنية مع المديح، رغم أن
هذه المناسبة تستحق نصاً منفصلاً لاختلافها عن موضوع المدح لذلك
تظهر وكأنها حشو في خاتمة النص:

يا أيها الملك السلطان لا برحتُ
هنيئ بالناصر ودمت له
تهدى إليك التهاني والمسراتُ
ما دامت الأرضُ تسمو بالسمواتِ
ملك أبى الله إلا أن يكون له
جد كجديه تتلوهُ السیاداتُ
تاھت بمولده التيجان وابتھجت
أسرة الملك والجرّد الصفیاتُ
ماذا يقول الذي يتلو مآثرها
في مشھد الحمد ما تبني المقالاتُ
جدوده أم أبوه أم عمومته
أم الخوولة إن لم تسمُ حالاتُ

أما القصيدة الثانية فإنها للملك الناصر داود في مدح الإمام
المستنصر بالله ومن الجدير بالذكر أن الشاعر هنا من ملوك بني أيوب ،
لا ينقصه المال والجاه غير أنه لجأ إلى الخليفة بعد أن حصلت له وحشة
مع عمه الملك الكامل الذي ألزمه بطلاق زوجته فخاف الناصر من عمه،
وتوجه إلى الخليفة لاثناً به ، وقدم له جواهر نفيسة، غير أن الخليفة امتنع

(١) الأشطان : الحبال، انظر: مادة شطن ، ابن منظور ، لسان العرب : ١٢٠/٧.

عن مُقابلته أول الأمر؛ "كرامة لعمه الكامل"^(١) ، فقال هذه القصيدة التي أعجبت الخليفة فاستدعاه ومن معه وخلع عليه وتشفع له عند عمّه الكامل أملاً في إبقاءه على مملكته " وخرج الكامل إلى تلقيهما. وأقبل على الناصر ، وتوجه الرسول معه إلى الكرك ليُرتبهُ في المملكة..."^(٢).

وقد بدأ الشاعر قصيدته بمقدمة وصفية معبرة ، تبدو للوهلة الأولى في وصف الطبيعة قبل نزول المطر وإبانه وبعد انقطاعه، غير أنه وبعد التمعّن في صورها يدرك القارئ إن هذه الأبيات ما هي إلا معادل لشخصية عمه الذي أجحف في حقه وأبعده عن حكم بلاد الشام ، وأجبره على طلاق ابنته وتوعده فأظلمت في وجهه الدنيا وتقهقعت رعود الحياة القاسية في وجهه يقول^(٣):

ودان ، أَلَمْتُ بالكثيبِ ذوائبه	وجنحُ الدّجى وحفّ تجولُ غياهبه
تقهقه في تلك الربوعِ رعوده	وتبكي على تلك الطلولِ سحائبه
أرقتُ له لما توالى بروقُه	وحلت عزالیه وأسبل ساكبه

وقد قابل هذه الرعود وهذا المشهد المكفر القاسي بالأرق ولا يخفى ما لهذا المعنى من دلالة نفسيّة، والتي ربما تشير إلى الفترة العصبية التي عاشها ، كما نلاحظ ما سيطر على عناصر الصورة من تعبيرات باكية كقوله: (وتبكي على تلك الطلول سحائبه) وتعبيرات أخرى فيها من معاني القنوط وظلمة النفس (وجنح الدجى وحفّ تجول غياهبه)، ويأتي عنصر المفاجأة وسط هذه الظلمات حينما جاء الصبح

(١) الملك الناصر داود ، ديوانه : ٥٥.

(٢) المصدر نفسه: ٥٨.

(٣) المصدر نفسه : ٢٢١.

يشق طريقه إلى هذا المشهد أشقر ضاحكاً فتهرب من أمامه جحافل
الظلام :

إلى أن بدا من أشقر الصبح قادمٌ يراغُ له من أدهم الليل هاربُه
فتقلب عناصر الصورة من السواد إلى البياض، ومن البكاء إلى
الضحك فالطبيعة ضاحكة والأقحوان تحرّكه نسائم الصبا .. وهذا كناية
عن تبدل الحال:

وأصبح ثغرُ الأقحوانِ ضاحكاً تدغغه ریحُ الصبا وتلاعبه
وما الصباح الضاحك وإشراقه إلا كناية عن إقبال الخليفة الإمام
الذي وافقه بعد تردد على التوسط بينه وبين عمه ويبدو هذا التردد
واضحاً في قوله :

تمرُّ على نبتِ الرياضِ بليلاً تجمّشهُ طوراً ، وطوراً تُداعبه
وأقبل وجهُ الأرض طلقاً ، وطالما غدا مُكفَّراً ، موحشاتِ جوانبه

وقد أحسن التخلص أيّما إحسان حين شبه عودة النبات الفاخر إلى
وجه الأرض فأعاده جديداً كعودة المستنصر بالله (الممدوح) منتصراً
بكتائبه من إحدى المعارك :

كساهُ الحيا وشياً من النبت فاخراً فعادَ قشيباً غورهُ وغوارِبُه
كما عادَ بالمستنصرِ بنِ مُحَمَّدٍ نظامُ المعالي حين قلّت^(١) كتائبه

ويشرع بعد ذلك في مدح المستنصر وبيان خصاله الحميدة ؛ فهو
قائم بأمور الدين مقتد برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن الطريف في

(١) وردت في ديوان الشاعر قلّت ، ولعلها قلّت أقرب للمعنى كما وردت في مصادر
أخرى.

هذه الصورة أنه قلب المعنى المعهود فلم يجعل من الدين حلية للمدوح، بل جعل الممدوح حلية من حلي الدين :

إمام تحلى الدين منه بماجد تحلت بآثار النبي موكبه
ويبدو لي أن هذا من باب المبالغة التي مال إليها كثيراً في قصيدته، وهو الذي يمد الناس بالغيث في سنين القحط :
إذا السنة الشهباء شحت^(١) بطلها سخا وابل منه ، وسحت سواكبه

وتتوالى الصور التي ينزع فيها نحو المبالغة والتجديد ، نحو رسمه لصورة جبين الممدوح :

فأخبا ضياء البرق ضوء جبينه كما بخلت جود الغواصي مواهبه
وهو البصير بأحوال الزمان وهذه أيضاً مبالغة تصل إلى حد الإقتراب من الألوهية ، ووضعها في مصاف الآلهة :
بصير بأحوال الزمان وأهله جدود ، فما يخشى عليه نوائبه

وتتابع الصور بعد ذلك على نفس الوتيرة من إضفاء الصفات العظيمة على الممدوح فهو الذي زين الدنيا وتشرفت به، وهو صاحب البديهة والحنكة ..، وهو الذي لم يترك معدماً على وجه الأرض إلا أعطاه ولا مظلوماً إلا أنصفه .

بديهته تغنيه في كل مشكل وإن حنكته في الأمور تجاربه
حوى قصبات السبق مذ كان يافعا فأربت على زهر النجوم مناقبه
تزينت الدنيا به ، وتشرفت بنوها فأضحى خافض العيش ناهبه

(١) شحت : ضننت ، انظر مادة شح ، لسان العرب : ٤٣/٧ .

لئن نُوهتُ باسم الإمام خلافةً ورَقعتُ الزاكي النجار مناسِبُهُ
فأنتَ الإمامُ العدلُ والعِرْقُ الذي به شَرَفَتُ أنسابُهُ ومناصبُهُ
جمعتُ شتيتَ المُلْكِ بعدَ افتراقِهِ وفرقتُ جمعَ المالِ فانهالَ كاثِبُهُ
وأغنيتُ حتّى ليس في الأرضِ معدَمٌ يجورُ عليه دهرُهُ أو تجارِبُهُ

وبعد هذه النعوت التي أضفاها الشاعر على ممدوحه ، يدخل إلى الموضوع عن طريق الإيحاء بانتهاء رحلته عبر الصحراء المغبرة ، التي قطع فيها الأهوال والمخاطر حتّى وصل باب الممدوح ، ويبدو لي أن هذا يذكرنا بالرحلة الشعرية القديمة التي كان فيها الشعراء المذّاحون يدخلون إلى الممدوحين بعد رحلة طويلة طمعاً في التكبس ونيل المآرب ، ويبدو لي أن الشاعر في هذا النص قد أفاد من أسلوبين من أساليب المقدمات الشعرية ففي أول النص أفاد من وصف الطبيعة وهذا في حد ذاته شكل من أشكال المقدمات الشعرية المعروفة ثم عاد به ليبدأ من جديد بمقدمة أخرى يصف فيها رحلته وعناؤه قبل الوصول إلى الممدوح:

وأنت الذي يعني حبيبٌ بقوله : ألا هكذا فليكبسِ الحمدَ كاسبُهُ
بأني أخوض الدو^(١) ، والدوّ مُقفرٌ سباريتُهُ^(٢) مُغبرةٌ وسباسِبُهُ^(٣)

وأرتكبُ الهولَ المخوفَ مُخاطِراً بنفسي ، ولا أعيأ بما أنا راكِبُهُ
وقد رَصَدَ الأعداءُ لي كلَّ مرصدٍ فكلُّهُمُ نحوي تدبُّ عقاربُهُ
وأتيك ، والعضبُ المَهْنَدُ مُصلتٌ طريرٌ شباه ، قانياتٌ ذوائِبُهُ

(١) الدوّ : موضع بالبادية ، وهي صحراء مَلَساء ، لسان العرب : ٤/٤٥٣ .

(٢) سباريت : الفلوات التي لا شيء بها ، خالية من النبات ، لسان العرب : ٦/١٥٢ .

(٣) سباسِبُهُ : الأرض الجَذْبَة ، لسان العرب : ٦/١٥٢ .

وَأَنْزِلْ آمَالِي بِبَابِكَ، رَاجِياً
فَوَاضِلَ جَاهٍ يَبْهَرُ النَجْمُ ثاقِبُهُ
وهو كما نلاحظ بدأ يكشف مع الأعداء الذين يترصدون له
كل مرصد ويشهرون في وجهه كل سيف ، فالشاعر إذن ليس بطالب
مال يعلنها صراحة في الأبيات التي ستأتي في نهاية النص :
وما أنا ممن يملأ المال عينه ولا بسوى التقريب تُقضى مآربه

فما بغيته إذن ؟ انه يتوسل إلى الخليفة أن يرد إليه جاهه الضائع
وملكه المفقود آملاً بجوده ومساعدته، وقد استحضر للممدوح ما حدث
لنظيره " مظفر الدين بن زيد الدين صاحب أربل " (١) الذي وقف بباب
الخليفة طالباً عونه فأعانه رغم قرب المكان الذي قدم منه فيعاتب الشاعر
الخليفة قائلاً :

ويأتيك غيري من بلاد قريبة	له الأمن فيها صاحب لا يجانبه
وما اغبر من جوب الفلاخر وجهه	ولا أنضيت بالسير فيها ركائبه
فيلق دنواً منك لم ألق مثله	ويحظى وما أحظى بما أنا طالبه
وينظر من للاء قدسك نظرة	فيرجع والنور الإمامي صاحبه

وهو لا يرى في نظيره ما يجعله أعلى منه رتبة ولا منزلة وجاهاً،
لذا يرى من حقه على الممدوح أن يسانده كما سانده ، ويشد على يده كما
شد على يده ، وهو الذي قطع إليه المسافات البعيدة واغبرت مراكبه :

ولو كان يعلنوني بنفس ورتبة	وصدق ولاء لست فيه أصاقبه
لكنت أسلي النفس عما ترومه	وكنت أذود العين عما ترأقبه
ولكنه مثلي ، ولو قلت : إنني	أزيد عليه لم يعب ذاك عائبه

(١) الملك الناصر داود ، ديوانه : ٢١٩.

ويعود بعد هذه المقابلة إلى التوسل إلى الممدوح بالمديح فهو البحر الذي يقف بشاطئه فينغي ألا يشكو الظماً وهو المؤمل في المقاصد والمآرب :

ومن عجبٍ أني لذا البحر واقفٌ وأشكو الظما والبحرُ جمَّ عجائبه
وغيرُ ملومٍ من يؤمك قاصداً إذا عظمت أغراضه ومطالبه
وقد رُضت مقصودي فتّمتْ صدوره ومنك أرجي أن تتمَّ عواقبه

ومدح ثقة الملك الحسن بن أبي جرادة الملك الصالح ابن رزيك بقصيدة يذكر "قيامه بنصر أهل القصر بعد فتكة عباس^(١) وزيرهم بهم ، وقتله جماعة منهم، وقيام ابن رزيك في الوزارة " ^(٢) بقصيدة مطلعها^(٣).

من عذيري من خليلي من مراد من خفيري يوم أرتاد مُراذي
وهو ناظر فيها إلى تراثٍ عربي سابق ، ورد لعمر بن مَعدي كرب الزبيدي^(٤) :

أريدُ حياته ويريدُ قتلي عذيرك من خليلك من مراد
ثم يمدح ثقة الملك الحسن بن أبي جرادة الملك الصالح بن رزيك ، وقد أسبغ على ممدوحه فضائل تؤكد قدرة الملك الصالح على تحمل المسؤولية للقيام بأمر الدولة الفاطمية، فهو قد اقتص من الجاني والباغي والعادي ويبدو لي أن القصيدة أقرب إلى نظم المعاني بأسلوب تقريرى مباشر، منها^(٥):

(١) عباس : هو بن أبي الفتوح بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي ، أبو الفداء ، المختصر: ٩٩/٢.

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ١٩٩/٢.

(٣) المصدر نفسه : ١٩٩/٢.

(٤) انظر ، ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) ، الإصابة في تمييز الصحابة، حققه : علي محمد البحاوي ، دار نهضة مصر : القاهرة : ٦٩٣/٤.

(٥) العماد الأصفهاني ، الخريدة (الشام) : ١٩٩/٢.

حَامِلُ الْأَعْبَاءِ عَنْ أَهْلِ الْعَبَا آخِذٌ بِالثَّأْرِ مِنْ بَاغٍ وَعَادٍ
 مِنْ عَصَاةٍ أَضْمُرُوا الْغَدْرَ فَهُمْ أَهْلُ نَصَبٍ وَنِفَاقٍ وَعِنَادٍ
 قَتَلُوا الظَّافِرَ^(١) ظُلْمًا وَانْتَحَوَا لِبْنِي الْحَافِظِ بِالْبَيْضِ الْحَدَادِ
 وَاعْتَدَى عَبَّاسٌ فِيهِمْ وَابْنَهُ فَوْقَ عُذْوَانٍ يَزِيدٍ وَزِيَادِ

ومدح أبو اليسر التتوخي القاضي أبا المجد محمد بن عبد الله بأبيات ذكر خلالها فضائل القاضي الحميدة، وهو يرى أن ممدوحه يتميز بالجود والكرم وهذا يؤهله لأن يكون ملجأ وملأذاً لمن اعتدى عليه ريب الدهر، كالشاعر الذي وجد في ممدوحه الملجأ والملاذ، وقد تميز القاضي التتوخي بالرفعة والسمو حتى عفى حلمة الرواسي الشم، ولم تقتصر فضائل القاضي التتوخي على هذه الخلال الحميدة من الكرم والحلم، إنما امتزجت في شخصيته وخلالها السماحة والوفاء وسداد الرأي، وهي فضائل نفسية تتناسب وصفات القاضي صاحب المظالم، وهي من أفضل الصفات التي يمدح بها القاضي عند ابن رشيق لأنه مدحه "بما ناسب العدل والإنصاف" ^(٢) فيقول ^(٣):

مَا زَالَ رَيْبُ الدَّهْرِ يَكْسِرُ جَانِبِي حَتَّى لَجَأْتُ إِلَى ظِلَالِ جَوَادِهِ
 بَذَرَى أَبِي الْمَجْدِ الَّذِي مِنْ حِلْمِهِ عَفَى الرَّوَاسِي الشَّمَّ فِي أَطْوَادِهِ
 سَبْحَانَ مَا زَجَّ خَلْقَهُ وَخِلَالَهُ بِسَمَاحِهِ وَوَفَائِهِ وَسَدَادِهِ

(١) الظافر ، هو الظافر بالله إسماعيل بن عبد المجيد بن محمد العبيدي الفاطمي قتل (٥٤٩هـ)، أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ك ٩٩/٢.

(٢) ابن رشيق القيرواني ، الإمام أبو علي الحسن (ت ٤٥٦ هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق: محمد قرقران ، ط ١ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٨ : ٧٨٤/٢.

(٣) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٥٦/٢.

مدح المدن:

ومن الاتجاهات المدحية التي ظهرت عند شعراء الأسر الشامية مدح المدن وهو نمط فريد من المدح كما ذهب أحد المحدثين ، وهو "صورة من صور الحديث عن فضائل البلدان التي كثر التأليف فيها في عصر الحروب الصليبية"^(١)، وبما أن دمشق كانت مركزاً من مراكز الحضارة في ذلك الوقت، كما تدل أشعار الأسر فلا عجب أن انساق إليها جل شعراء الأسر الشامية يمدحونها ويتغنون بفضائلها ، وفضائل أهلها وساكنيها .

ولعل أشهر ما يطالعنا في هذا الاتجاه الشاعر إسماعيل بن سلطان بن منقذ الذي أفاض بذكر فضائلها، وتعداد مراكزها الحضارية ونواحيها المتميزة بجمالها، بقصيدة مطوّله بلغت مائة بيت، ويبدو تفضيل الشاعر لمدينة دمشق حينما يدعو لزيارتها دون غيرها فيقول^(٢):

يا زائراً يزجي القرومَ البزلاً دغ قصد بغدادَ وخلّ الموصلًا
لا تزجها لسوى دمشق فإنّه سيطيل حراً من تعدى المفصلاً

ويعلن الشاعر صراحة عن سبب تفضيله لهذه المدينة؛ إذ وجد فيها عوضاً عن موطنه الأصلي (شيزر)؛ كما جاء ذكر هذا البلد بالقرآن الكريم، إضافة إلى افتتاحه بمرافقها الدينية والحضارية:

عوضته عن موطني فوجدته أحلى وأعذب في الفؤاد وأجملاً

(١) شفيق الرقب ، اتجاهات الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري : ٢٨٨.

(٢) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق : ٢٥٨-٢٦٢.

لم التمس فيه لجسمي منزلاً حتى وجدتُ له بقلبي منزلاً
ذو ربوة جاء القرآن بذكرها ومساجد بركاتها لن تُجْهلاً
ومدارس لم تأتِها في مشكل إلا وجدتُ فتى يحل المشكلاً

ووقف الشاعر متغنيا بكل معالم الحضارة الدينيّة والثقافية المتمثلة
بالعناصر البديعة، ومساجدها ذات القباب الرخاميّة والأسقف المصنوعة من
الرصاص:

وكان جامعها البديع بناؤه ملك يميز من المساجد جحفاً
ذو قبة رفعت فضاهت قلة ومنابر بُنيت فحاكت معقلاً
تبدو الأهلة في أعاليها كما يبدو الهلالُ تعالياً وتهلاً
ويريك سقفاً بالرصاص مدثراً يعلو جداراً بالرخام مزملاً
قد ألف الأقوام بين شكوله فغدا الرخام بذاته متشكلاً

وهي بمعالمها الحضارية وما فيها من النوافير والمساجد
والروض، والبرك والأشجار المختلفة الفاكهة، كالتفاح المصفر المائل إلى
الاحمرار تماثل الفردوس والجنة :

وإذا مررت على المنازل معرضاً عنها قضى لك حسنُها ان تقبلاً
ان كنت لا تستطيع ان تتمثل الـ فردوسَ فانظرها تكن متمثلاً
وإذا عان اللّحظ اطلقه الفتى لم يلقَ إلا جنةً او جدولا
أو روضةً أو غيضةً أو قبةً أو بركةً أو ربوةً أو هيكلًا

وتتوالى صور الطبيعة في دمشق بجمالها وأزهارها ونسيمها
وطيورها ومروجها الخضراء ويعلوها قاسيون مكللاً أياها كتاج فوقها .
وعلا عليها قاسيون كأنه ببناء تاجٍ بالجواهر كلا

أما سكان البلاد فهم خير الناس ، يتميزون ، بمآثرهم ومفاخرهم ،
وصفاء قلوبهم ، ومودتهم ، وكرمهم وسماحتهم .

ولو انها ماجملت بصفاتها	لغدا لها من أهلها ما جملا
ان فاق أول عصرها فأخيره	يحلو لهم فيها يفوق الأول
قد برزوا في المآثرات وأحرزوا	قصبَ المفاخر وارتقوا درج العلا
ومحى الإخاء حقودهم فكأنما	طلل عفا بين الدخول وحوملا
كلفوا بتجديد المودة والندى	لما رأوا الجديد إلى بلا

وفي النهاية يعتذر الشاعر لأنه لم يوفِ دمشق حقها من المدح وإن
جاء وصفه لها مفصلاً:

فابسط بفضلك عذر خلك إن بدا	زلل فانك لم تزل متفضلاً
وغريب وصفي قد أتاك مفصلاً	وسواه لا يأتيك إلا مجلاً

والقصيدة الثانية في مدح المدن فهي للشاعر نصر الله بن عبد
المنعم بن حواري قالها متغزلاً بدمشق كما لو شخّص المرأة المحبوبة
ذات القوام المهفّف المشوق، والألحاح التي يستهيم بها العشاق، ولكنه
يستحضر صوراً وأصنافاً للأسلحة كالسيوف والرمّاح، فلواحظ المحبوبة
هي السيوف المهنددة، وعطفاها الرماح المثقفة، وألفاظها العذبة تفعل في
النفس فعل المشرفيات، وكأنه بالقارئ يقول: هذه دمشق بقوتها ومنعتها
وحماية رجالها فيقول^(١) :

ما كنت أول مستهام مُدّنّف	كلف بممشوق القوام مهفّف
يردي لواحظه بكل مهند	ماض وعطفاه بكل مثقّف

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان : ١٠٤/٣ ، ١٠٥ .

مستعذب الألفاظ يفعل طرفه في قلب من يهواه فعل المشرف

وهي امرأة جميلة يختلط جمالها من خلال الصور بجمال الطبيعة
الغناء فنور جبينها شمس الضحى، ومقلتيها زهرة النرجس .

شمس الضحى كسفت بنور جبينه خجلاً ولولا حسنه لم تكسف
أنا والة دنف بورد خدوده وبغض نرجس مقلتيه المضعف
فحذار من طرف كحيل اوطف يسبي ومن خصر نحيل مخطف

وعلى الرغم ما تتميز به هذه المحبوبة من التمتع والعفة إلا أن
الشاعر يرسم لها صورة تحمل مدلولات العطاء، والخصب، واللذة :

يا من يروم الوصل من متمنع أبداً على عشاقه لم يعطف
أغرس غصون اللهو مهما تستطيع مع فإن بدت ثمرات لهوك فاقطف
وإذا طلائع عارضيه بدت فقل قف يا عذار بخده واستوقف
واكشف قناعك إن اردت لذاة لا خير في اللذات ان لم يكشف
لا شيء أعذب من تهتك عاشق في عشق معسول المراشف أهيف

ثم يكشف النص في النهاية عن اسم المحبوبة (دمشق) صريحا
فتتضح بغية الشاعر :

يا من يعنف في دمشق ووصفها لو كنت تعقل كنت غير معنف
هي جنة الدنيا وتكفي منزلها وفضيلة أوصافها في المصحف
بلد سبي الزمر الذي حلوا به بمياهه ومروجه والزخرف

أما الشاعر مكين الدولة فقد تغنى بمدينة دمشق التي اجتمع بهامن
المباهج ما لم يجتمع لغيرها يقول^(١) :

وَبَلَدَةٌ جَمَعَتْ مِنْ كُلِّ مَبْهَجَةٍ فَمَا يَفُوتُ لِمُرْتَادٍ بِهَا وَطَرُ
بِكُلِّ مُشْتَرِفٍ مِنْ رَبْعِهَا أَفُقٌ وَكُلِّ مُشْتَرِفٍ مِنْ أَفْقِهَا قَمَرُ

وزاوج مكين الدولة حميد بن مالك بن منقذ في مقطوعة أخرى بين
مدحه لمدينة دمشق وبين جمال طبيعتها وبين استحسان فضائل سكانها
بمودتهم ، وصفاء قلوبهم فيقول^(٢) :

مَا بَعْدَ جَلْقٍ لِلْمُرْتَادِ مَنَزَلَةٌ وَلَا كَسَاكِنِهَا فِي الْأَرْضِ فِي الْأَرْضِ سَكَانُ
فَكُلُّهَا لِمَجَالِ الطَّرْفِ مُنْتَزَةٌ وَكُلُّهُمْ لَصُرُوفِ الدَّهْرِ أَقْرَانُ
وَهُمْ وَإِنْ بَعْدُوا مِنِّي بِنَسَبَتِهِمْ إِذَا بَلَّوْتُهُمْ بِالْوَدِّ إِخْوَانُ

وتغنى القاضي محي الدين الشهرزوري بأحد قصور بلاد الشام
التميز بجماله ورائحة الأشجار المنبعثة إليه من حوله^(٣) :

سَقَى رَبْعَكَ الْعَارِضُ الْمَغْدِقُ وَصَوَّبُ الْحَيَا أَيُّهَا الْجَوْسِقُ
وَلَا زَالَ فِيكَ عَلِيلُ النَّسِيمِ بِعَرَفِ خُزَامَى الْحَمَى يَعْبِقُ

ولم ينسَ الشاعر تلك الطبيعة الخلابة من حول القصر وبرك الماء
التي تتدفق منها المياه وكأنها فضة مذابة خلال أنابيبها من كل ناحية

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٣٠٠/١٥ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٠٠/١٥ .

(٣) ابن منظور ، تاريخ دمشق لابن عساكر : ١٩١/٢٣-١٩٢ ؛ انظر ابن عساكر ، تاريخ
دمشق : ١٨٥/٥٥ مع اختلاف بسيط .

فتعلو المياه نحو السماء كأن لها ثأر تحرص على نيله ، وهي ترد على
السحب ما جادت به من المطر :

ونحنُ جميعاً لـدي بركة	يروقُ لنا ماؤها البريقُ
كأنّ أنابيها باللّجئِ	ن من كل ناحية تدفقُ
وفوّارة ثأرها في السما	ء فهي على نيله تـقلقُ
تردُّ على السّحبِ ما كان جا	د على الأرض صيّبها المغدقُ

ثم انتقل الشاعر إلى مدح أهل دمشق ، وتصوير ما يتصفون به
من الطيبة واللطافة ، وحسن الضيافة وتقديم الرعاية للغريب ، والوفاء
للصديق والشجاعة في القتال :

فيا أهلَ جَلِّقَ حياكمُ	وجادكمُ العارضُ المبـرقُ
فلولا لطافتكم لم تكن	تطيبُ وتغـذبُ لي جلقُ
إذا خفقَ البرقُ من نحوكم	يبـيتُ فؤادي لا يخفقُ
إذا ما الغريبُ ثوى بينكمُ	فكلُّ له راحمٌ مشفقُ
وإن قالَ أعداؤكم عيبكمُ	ملأ الصديقُ فما صدّقوا
تُرى أيّ وقتٍ دُعيتُم إلى	لقاءِ العدوِّ فلم تُعنّقوا؟
كأنكم لسوَى المكرما	ت والضربِ بالسيفِ لم تُخلّقوا

ويفضل تاج الملوك بوري بن أيوب بلاد الشام على مصر وما فيه؛
لأن الشام جنة النعيم يقول^(١):

يا خليلي عرجا بالشام واقرأ غوطتي دمشق سلامي

(١) حسن محمد عبد الهادي ، تاج الملوك لبوري بن سعيد ، دار الزينابيع والنشر، عمان

ثُمَّ قَصَا عَلَى دَمَشَقِ أَحَادِي—
ومنها :

إنما المرج والميادينُ والرب—
فنواحي القناة والقصر والوا
وإلى النيربين فالشرف الأع—
هذه جنّة النعيم وأما
لا تلمني إن أبك عيشي فيها

ثَ وَلَوْ عِي بِأَرْضِهَا وَغَرَامِي

سوة مما يطيب فيه مقامي
دي اذا ساح ماؤه وهو طامي
على سقى ساحتيه صوب غمام
غيرها فالجحيم ذات الضرام
فهو عندي المحسوب من أيامي

ثانياً: الاتجاه الخاص :

وهو الذي عبر الشعراء فيه عن ذواتهم ودخائلهم ، وما يعتمل في نفوسهم من مشاعر وأحاسيس في المواقف الوجدانية المتعددة فيشمل:

الغزل :

ويشغل الغزل عند شعراء الأسر الشّاميّة جزءاً كبيراً من الموضوعات التي طرقها شعراء الأسر ، خاصة بني أيّوب ، ولعلنا نجتهد في تحليل بروز ملوك بني أيّوب في هذا الغرض الشعري ؛ فربما يكون الغزل بالنسبة لهم فسحة يروحون بها عن ذواتهم في أوقات الشدة والضيق من عناء الأمور العسيرة ، ولعلمهم وجدوا فيه وسيلة للتعبير عن اتجاه سياسي ، كما عند الملك الأمجد بهرام شاه .

ويمكن أن نميز بين ثلاثة اتجاهات غزلية طرقها شعراء الأسر أولها : الاتجاه العفيف أو الموهم بالعفة ، وثانيها الغزل الحسيّ ، وثالثها الغزل التقليدي ، وقد أفرد الملك الأمجد بهرام شاه ديواناً مستقلاً في الغزل ، ما عدا مقطوعات وقصيدة وردت في ديوانه لأغراض أخرى^(١).

ويبدو لي أن شعر الأمجد الذي نحى فيه منحى الشريف الرضي أعمق مما يمثله الظاهر من تغزله بالنساء ، ولعله تعبيرٌ غزلي عبّر فيه الملك الأمجد عن حالة نفسية عانى منها ؛ وخاصة إذا ما علمنا أنه نظم ديوانه ما بين (٦٠٤هـ إلى سنة ٦٢٨هـ)^(٢) وهي الفترة التي تزامنت مع اضطراب أحواله السياسية مع أبناء عمومته من أسرته وتنازله عن

(١) انظر الأمجد بهرام شاه ، ديوانه : ١٥٨ ، ٢٠٥ ، ٣٣٩ .

(٢) الملك الأمجد ، ديوانه : ٤٦ .

حكمه في (بعلبك) بعد حكم دام خمسين سنة بمؤامرة دُبّرت ضده ، ولعل ما زاد محنته هو اشتراك أحد أبنائه بما دُبّر له مما دفع الأُمجد إلى القبض عليه ، ويقال إنه خنقه^(١)؛ فجاء شعره فيما يبدو - تعبيراً عن تجربة وجدانية سكب فيها مواجعه ودموعه بتعبيرٍ غزلي يليق بمكانته الاجتماعية والسياسية الرفيعة وآلامه .

ويرتبط الغزل عند الأُمجد بالحديث المبهم عن الحبيبة ، فهي حبيبة نائية حرم منها الشاعر ، مفارقة للحي والديار ، لا يقر لها قرار : ألهبت قلب الشاعر حنيناً وشوقاً إليها ، وهي حبيبة عربية اشتق أوصافها من عمق الصحراء فنعتها تارة بـ (ظبية الوادي) وتارة أخرى بـ (ظبية الوعاء والقاع) ، كما في الأبيات التالية التي يتضح من خلالها حنينه إلى أرض الحبيبة ومواطنها يقول^(٢):

يا صاحبيّ أعيدا ذكرَ كاظمة ^(٣)	على فؤادٍ إلى الأحبابِ نَزاعِ
واستنشقا نفحات البان ، إن نسمتْ	بنافح ، من عبيرِ العقدِ ضواعِ

* * *

أرضٌ تباعد أهلّوها وما نقصتْ	عَمّا عهدتْ ، صباباتي وأطماعي
ما هبتَ الريحُ إلّا همتُ من طربِ	إليكِ يا ظبيةَ الوعاء ^(٤) والقاعِ
بيني وبينك بيدٌ لا يُقربُها	الّا عزيمةُ إمضائي وإزماعي

(١) الملك الأُمجد ، ديوانه : ٤٠ ، ٤١ .

(٢) المصدر نفسه : ٨٨ .

(٣) كاظمة : على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة ، وقد أكثر الشعراء من ذكرها ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٤ / ٤٣١ .

(٤) الوعاء : الأرض اللينة ذات الرمل .

فما الأناة ، ونجبي في معاطنها^(٢) سنمن عطلة أقتاد^(١) وأنساع؟
شد الرحال عليها ، فهي كافلة بالوخذ^(٣) تقريباً ما أعياعلى الساعي

ويلح الشاعر على صورة فراق الحبيبة التي ألهمت قلبه بعد رحيلها، فاكتوى بنيرانها ، ويتحدث الشاعر عن محاسن هذه الحبيبة العربية فهي مائسة القوام ، رشيقة ، جيداء ، تنظر إلى حبيبها نظرة خوف وقلق من الرقيب ؛ ولعل ذلك ما جعله يلجأ إلى ذكر رموز مثل العذيب^(٤)، وحاجر^(٥)، يقول^(٦):

ظعن الأحبة راحلين ، وخلفوا قلباً بنيران التفريق صاليا
كانت بهنّ حوالياً، فأعادها ريبُ الزمانِ عواطلاً وخواليا
من كل مائسة القوام رشيقة جيداء خجلت الغزال العاطيا
ترنو إلى بمقلة مرتاعة حذر الرقيب ، فلا عدمت الرانيا
يا منزلاً بين العذيب وحاجر حوشيت أن ألقى لعهدك ناسيا

واتخذ الشاعر من العيس وسيلة تقرب له المراد ، وقد أضفى على عيسه صفات القوة والانصياع لأوامره ليصل بأسرع ما يمكن إلى

(١) معاطنها : مواضعها ومباركها انظر مادة عطن ، ابن منظور ، لسان العرب : ٢٧٢/٩ ، ٢٧٣.

(٢) أقتاد : أدوات الرحل .

(٣) الوخذ : ضرب من سير الأبل .

(٤) العذيب : قيل هو واد لبني تميم ، وهو من منازل حاج الكوفة ، ياقوت ، معجم البلدان : ٩٢/٤ .

(٥) حاجر : موضع قبل معدن النقرة ، ياقوت ، معجم البلدان : ٢٠٤/٢ .

(٦) الأمد بهرام شاه ، ديوانه : ٩٠-٩٢ .

البلد البعيد ، وهو يتوجه بالنداء لهذه المحبوبة البعيدة بأسلوب يجمع بين الشكوى والحنين ، معاتباً إياها عتاب المحبين الذين فرقهم البعاد:

والعيسُ في أعْطَانِهِنَّ بواركاً	تُدْني مناسِمُها المحلَّ النائيَا
تجتأُ خرقاً ^(١) ، بالرياح مُخرَقاً	ويبيدُ بيداً سيُرْها وفيافيَا
تنصاعُ من خوفِ السياطِ كأنما	خالتُ على أعْجازِهِنَّ أفاعيَا
تنحو بيَ البلدَ البعيدَ مزارُهُ	وخداً ، فترجُعه قريباً دانيَا
يا ظبيةَ الوادي ، نداءَ مولِّه	ناداكِ من ألمِ التفرقِ شاكيَا
قد كان يكفيني هواك ، فما الذي	جلبَ البعادَ، ومنْ أباحَ جفائياً ؟
أصبحتُ أسألُ عنكَ برقاً لامعاً	يبدو كحاشيةِ الرداءِ يمانِيَا

وفي نهاية قصيدته الغزلية التي نستشف من خلالها مشاعر وأحاسيس الشاعر التي غلبها الحزن على نحو غائم، يبدو لي أن المرأة أو الحبيبة عند الأُمجد ما هي إلا رمز استخدمه للتعبير عن تجربة لم يفصح عنها بشكل صريح ومباشر فجاء غزله غزلاً غير مقصود لذاته، ولعله رمز به إلى قضية سياسية أرقته ، ربما تكون الوطن أو الحكم الذي أبعد عنه قسراً ، فأبياته التالية تجسد نظرته إلى الحبيبة والتي يبدو كبر سنّه الذي تجاوز سن الشباب، مما يشير إلى أن غزله تجاوز التفكير بالمرأة:

أأرومُ وصلِّك ، بعد ما زجرَ النهي	عنه طماعيتي ، وكفَّ غرامياً ؟
مالي ووصلِ الغانياتِ ، وقد بدا	منهنّ ما قد كان قدماً خافياً ؟
كلا رجعتُ عن الغواية والهوى	أنفاً ، لقد جذبَ العفافُ زمامياً

(١) خرقاً : الخرق : الفلاة الواسعة .

ورفضتُ أياماً ، بهنَّ تصرَّمتُ ومآرباً قضيتُها ، ولياليا

ومن المظاهر التي تؤكد إحساسه بالمعاناة، حديثه عن حركة الزمن، والتغيُّر ويتضح ذلك من خلال حديثه عن تباين صورة الحبيبة معه في الماضي والحاضر، وهو يتحسر على تلك الأيام التي مضت حينما كانت تزوره بلا قيد أو ميعاد، ذاكراً حاضره الذي ابتعدت فيه عنه، وبخلت عليه حتّى في الخيال، وقد وشَّح الشاعر غزلياته بكلمات وإيحاءات لها رؤية نفسية أو ذات دلالات نفسية خاصة به وبقضيتّه ومعاناته كما في الأبيات التالية^(١):

صدتُ فأمسيتُ ظمآنًا الى شَـبِـمٍ	قد كان يشفي غليل الواله الصادي
فحبذا زمنٌ كانت تزورُ به	مغناي من غير تسويفٍ وميعادٍ
حالتُ ^(٢) ومن ذا الذي تبقى موثقة	سليمةً من تصاريـفٍ وأنكادٍ ؟
ضنَّتُ ^(٣) بقربي ، وقد كانت تجودُ به	تبرُّعاً ، قبلُ إقصائي وإبعادي
حتى الخيالُ وقد كان الجواد بما	يُهديه من زورٍ إسعافٍ وإسعادٍ
قد ضنَّ بخلاً بما قد كان يمنحني	به الى أن غدا من بعض حُسّادي
فاليوم لم يُبق لي ذاك الزمانُ سوى	كلوم قلبٍ بذكرى ذاتِ إبلادٍ

ولعل إحساس الأمجد بالواقع الحزين والتجربة المؤلمة دفعه للتركيز على المفارقة الزمنية بين صورة الماضي بذكرياته وعطائه

(١) الملك الأمجد ، بهرام شاه ، ديوانه : ١٥٦ .

(٢) حالت : تغيّرت .

(٣) ضنَّت : بخلت .

واستقراره وثرائه الذي يُقابل بصورة حاضره المؤلم الحزين بعد ما نأت
عنه تلك الأمور^(١):

وماذا تسأل من نُؤبي وأوتاد	ومن رسوم محاسنها الرايح الغادي
معاهد درستها كل غادية	وكل أوظف داني المزن مرعاد
خلت ملاعبها من كل غانية	وجدي عليها وإن أخفيت بهادي
قد كنت فيها قرير العين مبتهجا	بالقرب أسحب منها فضل أبرادي
حتى نأت فئات تلك البشاشة عن	تلك المواطن لما اقفر النادي

ونستشف موقف الأمد من هذه الحبيبة ، التي وإن أبدت الصدود
والغدر فإنها ما تزال مطلباً للشاعر في قربها وبعدها إذ قال^(٢):

أروم سعاد ، وقلبي بها	وإن قربت ، أو نأت مولع
وماخلتها لحبال الوفاء	ءاء من بعد عهد الهوى تقطع
لقد غدرت بي وما خنتها	فيا بئس ما أصبحت تصنع

ومن المعاني التي كثرت في غزله الحنين ، وهو حنين يحركه
الشوق إلى أمر فقد ، فهو دائم الحنين للأحباب المرتحلين وهو يبكيهم
ألماً وحزناً وشوقاً وما حنينه للأحباب إلا حنين للذكريات والأيام الماضية
أيام كانت الدار داره بيد أن هذه الأيام فارقتة ورحلت عنه ولا يمتلك
الشاعر أمامها إلا الوقوف على الأطلال^(٣):

ماذا الوقوف وقد بانوا - على الطلل
إلا اشتياق إلى أيامك الأول

(١) الملك الأمجد ، ديوانه : ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٢) المصدر نفسه : ١٧٣ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

أبلاك بعدَ رحيلِ الحيِّ عنه ، بما
ووافقتك الأمانى ، وهي باطلَةٌ
أكلما بانَ حيٌّ عنِ مرابعه
وكلما أومضتُ في الجوِّ بارقةً
يُبليكَ منِ ذِكْرِ بعدِ النوى ، وبلى
بعدَ الفراقِ ، على التشبيبِ والغزلِ
تبكي بدمعٍ منِ الترحالِ منهملٍ ؟
قابلتِ مشتعلاً منها بمشتعلٍ ؟

وامتزج حنينه للأحبابِ المفارقين للديارِ والأوطانِ بالدموعِ الغزيرةِ
والحزنِ العميقِ ووضح ذلك خلال قصيدته التي مطلعها^(١):

دعني من العذلِ يا من باتَ يلحاني
فليس عدُّكَ من دأبي ولا شأنِي
ومنها :

القلبُ قلبي ، إذا ما شَفَنِي وَلَّةٌ
ما كنتُ - لولا بعداؤَ الحيِّ - ذا جَزَعٍ
بانَ الأحبةُ عن تلكِ الديارِ ، فقد
مراد^(٢) لهوا الصَّبَا ، أقوتُ معالمهُ
ما كنتُ - لولا النوى والبينُ - أسألُ
والدمعُ دمعِي ، والأحزانُ أحزاني
أذري الدموعَ على نُوى وأوطانِ
وزَعَتُهُ بينَ أطلالٍ وخُلانِ
بعدِ النضارةِ ، من أهلٍ وجيرانِ
أطلالاً عَفَتْ من أحبَّاءِ وسكَّانِ

ويلوذ الشاعر برموز الجزيرة العربية مُركزاً حنينه في أماكن
حجازية ونجدية ، وهو في ذلك ينحو منحى الشريف الرضي في
حجازياته ، وتشارك الشاعر في حنينه لهذه الرموز ناقتة التي تحمله إليها
إذ يقول^(٣):

(١) الملك الامجد ، ديوانه : ١٤٠ .

(٢) المراد : الموضع والمكان .

(٣) الملك الأمجد بهرام شاه ، ديوانه : ٩٨ .

لئن وَصَلَتْ نَجْدًا^(١) ولاحت لعينها ذُرَى الهَضَبَاتِ البِيضِ زالتْ غُومُهَا
وإن نَفَحَتْ رِيحُ الصَّبَا مِنْ بِلَادِهَا عَلَى الكَبَدِ الحَرَّى تجَلَّتْ هُمُومُهَا

ولعل شوقه وحنينه إلى تلك الأماكن النجدية والحجازية ، لتكون أداة له وطريقة في التعبير عن حنين لوطن تسوده قيم النقاء والصفاء والوفاء وليكون ملاذاً وتعويضاً له في محنته ، ووسيلة توفر له الأمن والطمأنينة لتهدئة نفسه المثقلة بالهموم .

ومن الصور التي كثرت في غزله صورة الحمام الذي شارك الشاعر في الحنين والألم والشكوى والبكاء يقول^(٢):

فَلَّهْ كَمْ تُبْدِي الحَمَامَةُ شَجْوَهَا لَدَيَّ عَلَى غَصَنِ الغَرَامِ وَأُكْتَمُ ؟
تراها لِمَا عِنْدِي مِنَ الوجدِ والهوى إِذَا ذَرَفَتْ مِنِّي المَدَامُوعُ ، تفهم ؟
وما ذاكَ عَن عِلْمٍ بِمَا أَنَا مِنْطَوٍ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّ الحَنِينَ يَهَيِّمُ
يُذَكِّرُنِي الأَلْفَ سَجْعَ هَدِيلِهَا وَذَكَرَ قَدِيمَ الحَبِّ لِلقَلْبِ مَوْلِمُ
فأُبْكِيهِمْ دَمْعاً إِذَا فَاضَ مَآوُهُ تَحَدَّرَ عَن جَفَنِي وَأَكْثَرُهُ دُمُ

ومن الملحوظ أن الملك الأمجد قد وظف البيئة البدوية الصحراوية وما اتسمت به من شظف وقسوة وخشونة للتعبير عن تجربته ، مبتعداً عن البيئة الرقيقة المترفة التي عهدها الشاعر في ربوع الشام ، ولعله لجأ إلى هذه البيئة كنوع من أنواع التعبير عن الرفض لواقعه والثورة عليه ،

(١) نجد ، قيل : نجد هو اسم للأرض العريضة التي أعلاها تهامة واليمن وأسفلها العراق والشام ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٢٦٢/٥ .

(٢) الملك الأمجد ، ديوانه : ١١١ .

نلمس ذلك من خلال المفارقة بين البيئة التي عاش في ربوعها والبيئة التي وظفها في شعره الغزلي ، من ذلك قصيدته التي مطلعها^(١):

أرقت من بارق بالجزع^(٢) لماع
ومنها :

مصاحبُ البين ما تنفكُ أينقهُ
تعافُ أن تردَّ الماءَ الجِمامَ^(٥) وأن
في كلِّ هَجَلٍ^(٦) بعيدِ الفقرِ تقطعهُ
تهوى بكلِّ ربيطِ الجأشِ^(٨)، مُدَّرِعٍ
يحمي السوامَ^(١٠)، إذا الأذوادُ^(١١) أهملها
مغذَّةٌ بين أجراعٍ^(٣) وأجزاءٍ
ترعى الجميمَ^(٤) على خِصْبٍ وإمراعٍ
سواهماً بين إيجافٍ وإيضاعٍ^(٧)
ماضي العزيمة، حامي الغرضِ شرَّاعٍ^(٩)
رعاتُها، وأناخوها بجعجاعٍ^(١٢)

(١) الملك الأمجد، ديوانه: ٨٧.

(٢) الجزع: منعطف الوادي.

(٣) أجراع: أرض ذات الحزونة تشاكل الرمل.

(٤) الجمام: الكثير.

(٥) الجميم: النبات الكثير.

(٦) الهجل: المطمئن من الأرض.

(٧) إيجاف وإيضاع: ضربان من سير الإبل.

(٨) ربيط الجأش: قوي القلب.

(٩) شرَّاع: شجاع.

(١٠) السوام: الأبل الراعية.

(١١) الأذواد: جمع ذود وهي القطيع من الإبل.

(١٢) الجعجاع: المكان الضيق الخشن.

مُهْمَلَات^(١)، غَدَتْ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مضاعَةً، لَمْ تَصْنُهَا سَطْوَةُ الرَّاعِي
يَذُودُ عَنْهَا الْعَدَى، يَقْظَانِ مَا اكْتَحَلَتْ عَيْنَاهُ، عَمَّا يِرَاعِيهِ، بِتَهْجَاعِ
بِكُلِّ أَسْمَرٍ دَامِيَ الْحَدِّ لَهْزَمُهُ وَكُلِّ أَبْيَضٍ مَاضِي الْغَرْبِ قَطَّاعِ

ومن الملاحظ أيضاً من خلال الإطلاع على ديوان الأمد أنه عمد إلى توظيف اللفظ الغريب في ديوانه ولعل ذلك مظهر من مظاهر التعبير عن تجربته وللتدليل على معاناته ومحنته ومن ذلك استخدامه لكلمات (بهنانه ، مثعجر ، جلعده..)^(٢).

وإلى جانب الأمد نجد شعراء آخرين يلونون بمكانة اجتماعية رفيعة طرّقوا هذا الباب من الأمراء والفقهاء وهذا الأمير أسامة بن منقذ وإن كان يتحدث عن حبيبة فارقها وحُرم منها ؛ فإنه ربما يعبر عن رؤية نفسية كانت انعكاساً

لتجارب حزينة أهمها تمثل في البعد عن وطنه شيزر ، التي شهدت مدارج طفولته، وملاعب صباه وما تبع ذلك من أحداث حزينه أشرنا إليها سابقاً ، ألهمت انفعالاته ومشاعره وآلامه ، وعبرت عما في وجدانه بصدق بعد أن تجرع مرارة الأسى ، لذا فلا عجب أن جاء غزله بنمطٍ حزين باكٍ يغص بالشكوى يقول^(٣):

أَحْبَابَنَا لِي عِنْدَ خَطَرَةٍ ذَكَرْكُمْ نَفْسٌ تَقُومُ لَهُ حَنَايَا أَضْلَعِي
أُنْسِيْتُ بَعْدَكُمْ السُّرُورَ وَأُنْكُرْتُ عَيْنِي الْكَرَى ، وَنَبَا بَجَنَبِي مَضْجَعِي

(١) مهملات: الإبل التي لا راعي لها .

(٢) انظر الأمد بهرام شاه ، ديوانه : ٩٢ ، ١٢٢ ، ١٩٣ ، ١١٠ .

(٣) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ١٣١ .

ألقى نسيم الرّيح من تلقائكم بجفون مكروب ، وأنة مّوجع
وإذا السحابُ سرى فنارُ بروقه من زفرتي ، ومياهه من أدمعي:

ولم يكن الفقهاء بمنأى عن التعبير الغزلي الرقيق ، فهذا ثقة الملك الحسن ابن أبي جرادة وهو من القضاة المشهود لهم بالعفة والنزاهة ، والمكانة الرفيعة مازج شعره بتعبير غزلي رقيق ، اتصف بحرقة الحب وألمه، والشكوى من مواجهه ، ونستشعر فيه صدق العواطف ، وهو لا يخلو من إشارات حسيّة أحياناً، ومن الجدير ذكره أنّ ثقة الملك عاش تجربة الغربة ، ولعل ذلك ما يفسّر كثرة مواقف الوداع ، والهجر والفراق التي تلهب الشوق والحنين في نفسه ، وجاء غزله حزيناً باكياً شاكياً في أغلبه ممزوجاً بالدموع والبكاء ، مصحوباً بالاعتلال والسهر ، إذ يقول^(١):

بوذي لو رقوا لفيض دموعي ومن لي لو متوا برد هجوعي
بليت بمغتيال النواظر مّولع بهجري ، ولا يرثي لطول وكوعي
فحتّام أدنو من هوى كل نازح وأرعى بظهر الغيب كل مضيع
ومنها:

فيا ويح نفسي من قسيّ حوارج لها أسهم لا تتقى بدروع
ومن عزيمة أدكت غرامي وأبعدت مرامي وأقتني بغير ربوع

وتكثر معاني الشوق والحنين في غزله ، وهو يحن للمحبوبة البعيدة ويشتاق لمع البرق من صوب أرضها^(٢):

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٢١١/٢ .

(٢) محمد راغب الطباخ ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، صححه محمد كمال ط٢ ، دار القلم العربي ، حلب ، ١٩٨٩م : ٤٧٨/٤ .

أحنّ إلى قلبي ومن فيه نازلُ
واشتاقُ لمع البرقِ من نحو أرضكم
يرنحني مرُّ النسيم لأثّه
وإن مال بانُ الدوح ملتُ صباة
ولي أربّ أن ينزلَ الركبُ بالحمى
ولي أنّة لا تنقضي أو أراكم
ترى هل أراكم أو أرى من يراكم
وأحظى بقرب الطيفِ منكم وإنه
تطيلون تعذّبي بكم وأطيله
ومن أجل من فيها تحبّ المنازلُ
ففي البرقِ من تلك الثغورِ رسائلُ
بأ عطف ذاك الرند والبان مائلُ
فبين غصون البانِ منكم شمائلُ
ليسألُ دمعي وهو بالركبِ سائلُ
وأنظر نجداً وهو بالحي آهلُ
وأبلغ منكم بعضَ ما أنا آملُ
ليقتنعي من وصلكم وهو باطلُ
ومالي منكم بعد ذلك طائلُ

ومن الملاحظ على شعراء هذا الاتجاه اشتراكهم بتجربة أو معاناة، وهي ليست تجربة لعاطفة الحب المتعارف عليها ، ولا سيّما أن غزلهم لم يتجه نحو امرأة محددة ارتبط اسمها بالشاعر ، غير أنهم يستعملون تعبيرات غزلية تحمل دلالات نفسية تخص الشاعر ، وتتبع من عمق تجربة .

أمّا الاتجاه الحسّي في الغزل والذي تعرض فيه الشعراء لوصف جمال المرأة ومحاسنها الحسيّة ، فيبدو أنّ أهمّ ما يميزه عند شعراء الأسر الشاميّة المذكورة بعده عن البذاءة والفحش أو ما يعرف باللون الصريح، أو المكشوف الذي يُشهر بالمرأة إلّا ما ندر؛ ولعل فضل هؤلاء الشعراء. ومكانتهم الرفيعة منعهم من الفحش في الغزل، ويبدو أنّ ما وصل إلينا من النصوص الشعرية الغزلية تأثر برافدين أحدهما: البيئّة الشاميّة وظروفها ومعطياتها في عصر الحروب ، والموروث القديم .

ومن شعراء هذا الاتجاه تقي الدين عمر بن شاهنشاه ، وقد أطلعنا
العماد الأصفهاني في خريدته على كثيرٍ من أشعاره الغزلية ، وقد جاء
غزله بشكل مقطوعات شعرية ، ابتعد في معظمها عن الفحش في القول ،
كما لم يقرن اسمه بمحوبة معينة ، على عادة شعراء هذا الاتجاه ، وقد
تأثر الشاعر بالبيئة الشاميّة بشكل واضح ولا سيّما في اصطناع ألفاظ
الحرب و التغني بالجمال يقول^(١):

أشيمُ البرقِ منَ علَمي زرودِ	فتروى من مدامعي الشّامِ
فيالله قلبٌ مُستَهامٌ	بنصرة لا يفارقه الغرامُ
لها من قدّها رُمحٌ رشيقٌ	ومن ألحاظٍ مقلّتها سهامُ
تريك البدرَ إنْ سَفرَتْ وتَحكي	هلالاً حين يسُترها اللّثامُ
فلي من خدّها وردٌ جَنِيٌّ	ولي من طيب ريقها مُدامُ
إذا ما رُمْتُ أنْ أسلُو هواها	تعرّضَ دونَ سلّوتي الحِمَامُ

ونرى الشاعر يلح في الأبيات السابقة على توظيف معاني الحرب
في وصف محاسن المحبوبة، فالقدّ رمح والألحاظ سهام، والوجه بدرّ،
والخد وردّ، والريق مُدامُ .

ومن المعاني التي وظفها تقي الدين عمر في غزلياته الرّق
والعبودية التي ملكته الحبيبة بها نظير الخد والقدّ إذ يقول^(٢):

ملّكتُها رِقِي وَقَدْ عَلِمْتُ	أنّي أسيرُ الخَدِّ والْقَدِّ
فلأجلِ ذَا مالتُ وما عَطَفْتُ	يوماً على المأسور بالْقَدِّ

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (بداية شعراء الشام) : ١٠٧ .

(٢) المصدر نفسه : ٩٢ ، ٩٣ .

وتغزل المبارك بن كامل بن منقذ بالحبيبة واتخذ من معيطات البيئة
الشاميّة أداة لوصف محاسنها يقول^(١):

وهيفاء ما زالت عساكرُ حَسَنِها	تَغِيرُ على العُشاقِ ثارةَ ثائرِ
لها في احمرار الخدّ خالٌ مَوَرَدٌ	بهِ خَضِرَةٌ شَفَافَةٌ للنواظرِ
فقلتُ لها : ماذا النجيعُ الذي أرى	وهل صيغَ خالٌ قبله من جواهرِ
فقلتُ وقد لاحَ الحياءُ بوجهها	وَجالتْ جيوشُ السِحرِ بين المحاجرِ
سفتُ دِماءٍ واشتقتُ مرائرًا	فما ذاكَ إلا مِن دمٍ ومرائرِ

واتخذ جمال الدين إسماعيل بن المبارك من أوصاف الحرب وسيلة
للغزل عن طريق عقد مقارنة بين سماتها ومفاتن المحبوبة والتي تتفوق
فيها محاسن محبوبته يقول^(٢):

قل لَنبَلِ القَسِيّ ما أَنْتَ إِلَّا	عند لَحْظِ الحبيبِ شوْكُ القَتّادِ
ولقُربِ السيوفِ أَنْتَ جُفُون	لعيونِ قَد دنا قِدارِ
ولسُمُرِ الرِماحِ ما نلتِ شِبها	بقَويمِ القَوامِ يا مَيّادِ

وعبد الرحمن بن مدرك من شعراء هذا الاتجاه وقد تحدث عن
نظرات الحبيبة التي تبدو كالسيوف يقول^(٣):

جَرَحَتْ بلحْظي خَدَّ الحبيـ	بِ فما طالَبَ المُقَلَّةَ الفاعِلَةَ
ولكنَّهُ أَقْتَصَ مِنْ مُهْجَتِي	كَذاكَ الدِّياتُ على العاقِلَةَ

(١) البنداري ، قوام الدين الفتح بن علي (ت ٥٩٧هـ)، سنا البرق الشامي ، تحقيق :
فتحية النبراوي، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٧٩ : ١٩١ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب : ١٨٠٦/٤ .

(٣) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق، ٣٤/١٥ ، ٣٥ .

والقسم الآخر من الغزل الحسي استمد صورته ومعانيه من الموروث القديم، وهذا القاضي أبو المجد محمد بن عبد الله المعري يشخص محاسن المحبوبة قائلاً^(١):

ومُرْهَفِ الْخَصْرِ عَذْبُ اللَّفْظِ مَا نَظَرْتُ عَيْنَاهُ إِلَّا إِلَى صَبٍّ بِهِ كَلِفِ
لَا يَصْدُقُ الْقَوْلُ فِي صِدِّ وَلَا صَلَاةٍ وَلَا يَدُومُ عَلَى وَدٍ وَلَا شَنْفِ
كَالظَّبِّي لَوْلَا الَّذِي بِالظَّبِّيِّ مِنْ خَنَسٍ وَالبدر لولا الذي بالبدر من كَلَفِ
شَبَّهْتُهُ فِي اعْتِدَالِ الْقَدِّ بِالْأَلْفِ وبالقضيب قضيب البانة الْقَصِفِ
وَمَا تَجْمَعُ نَوْرُ الْأَرْضِ فِي غُصْنٍ وَلَا أُجَمَّتْ مِياهُ الْحَسَنِ فِي أَلْفِ

ومن المعاني التي أوردها أبو المجد ، محمد مقطوعة جعل فيها نفسه محبوباً مطلوباً ، وهذا يذكرنا بطريقة عمر بن أبي ربيعة الشاعر المعروف ، يقول أبو المجد المعري^(٢):

وَبَيْضِ أَوَانِسٍ عُلْقَتْهُنَّ مِثْلُ الْغُصُونِ إِذَا تَتْمَرُ
شَكُونُ مِنَ الْوَجْدِ مَا أَشْتَكِيهِ وَأُضْمِرْنَ مِنْهُ كَمَا أُضْمِرُ
وَلَكِنَّهِنَّ مَنَعْنَ الْوِصَالَ حِذَارَ الرَّقِيبِ الَّذِي أَخْذَرُ

استمد تقي الدين عمر من الطبيعة موضوعاً لوصف مفاتن المحبوبة والتي شبهها بالروضة التي جمعت صنوف الحسن والجمال قائلاً^(٣):

لَهَا رَوْضَةٌ مِنْ نَفْسِهَا اجْتَمَعَتْ بِهَا غَرَائِبُ مِنْ حُسْنِ أَحَاطَ بِهَا الْمِرْطُ

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٢٢/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ١٨/٢ .

(٣) العماد الأصفهاني ، (بداية قسم الشام) : ١٠٠ .

فمن قدّها غُصْنٌ، ومن ردّفها نقا ومن خدّها وردّ، ومن ريقها استفْنطُ

ومن الصور المستمدة من القديم في وصف محاسن المحبوبة صورة القمر، فهذا إسماعيل بن سلطان بن منقذ شبه جمال محبوبته بالقمر الذي تميز بمحاسنه على سائر الأقمار ، فجفون المحبوبة ساحرة بجمالها ، وعينا المحبوبة جمعت بين الكحل والتكحل ، ووجنتها امتزجت بها حمرة اللون بحمرة الخجل، وزهت بالخال الذي أضفى على جمالها جمالاً ويتضح ذلك من خلال الأبيات التالية^(١):

وزاد وجدي أن زادت ملاحظته	كل بما هو فيه غاية المثل
فانظر إليه ترّ الأقمار في قمرٍ	وانظر إليّ ترّ العشاق في رجلٍ
بأي أمرٍ أنجو من هوى رشأٍ	في جفنه سحر هاروت وسيف علي
تالله لا منظرٌ للعين أحسن من	عينٍ تظاهر بين الكحل والكحل
يُزهى بوجنته خالٌ غدوت به	من الصبابة محسوباً من الخول ^(٢)

ولعل أشهر شعراء هذا الاتجاه تاج الملوك بوري بن أيوب ، ويشفّ غزله عن عاطفة صادقة اتجاه الحبيبة التي ذكر اسمها (أرام) والتي يبدو أنها كانت تقيم بمصر ، يقول^(٣):

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٥٦٦/١ .

(٢) الخول: حشم الرجل وأتباعه ، ويقع على العبد والأمة ، ابن منظور ، لسان العرب : ٢٥١/٤ .

(٣) حسن عبدالهادي، دراسة تاج الملوك لبوري بن ايوب، مع تحقيق ديوانه : ٢١٩-٢٢٠؛ انظر ، تاج الملوك بوري ، مجد الدين أبي سعيد بوري (ت ٥٧٩هـ) ، ديوانه، تحقيق محمد عبد الحميد سالم، ط ١ ، هجر للطباعة والنشر، ١٩٨٨م : ٢٣٩-٢٤١ .

سلامٌ وهل يشفي الغليلَ سلامٌ على مَنْ لها في أرض مصرَ مقامُ ؟!
سلامٌ عليها، ذاتُ دلٍّ عرفتُها لها البدرُ وجهٌ ، والقضيبُ قَوامُ
أهيمُ بها في البُعدِ ، وهي خَلِيَّةٌ وأسهرُ من وجدٍ بها وتنامُ
ويؤلمُ قلبي بُعدُها بُعدَ قُربِها كما يؤلمُ الطفلُ الصغيرَ فِطامُ

ويمضي الشاعر متحدثاً عن مواطن الجمال الحسيّ لمحبوبته ،
وإبراز محاسنها فوجه الحبيبة كالشمس المنيرة في أشراقها وحسنها ،
وشعر الحبيبة حالك كظلام الليل تكامل فيها الحسن والجمال ،حتى غدا
الخذُ منها روضة جمعت صنوف الجمال ، والرضاب خمرة:

إذا سمرت عاينتَ شمساً منيرةً تكشفُ منها للعيون غمامُ
لها غُرَّةٌ في طُرَّةٍ ، كلما بدتُ تعجبتُ من نُورٍ ، علاهُ ظلامُ
وعينٌ إذا ما أرسلتُ لحظاتها فهُنَّ لَحَبَّاتِ القلوبِ سِهامُ
أرومُ دوائي من سقامِ جفونها وكيفَ يُداوي بالسقامِ سقامُ ؟!
تكامل فيها الحسنُ فالخذُ روضةً بها الوردُ غُضَّ والرضابُ مُدامُ

ونلاحظ في نهاية القصيدة أن الشاعر يمزج بين معاني الغزل
ومعاني الحرب ، ولا غرو في ذلك فالشاعر كان بطلاً من أبطال
الحروب الصليبية ، وشاباً صغير السن :

وإنِّي ليكفيني من المالِ كُلِّهِ " حِصانٌ ورمحٌ ذابِلٌ وحُسام "
ومجلسُ لهوٍ في أمانٍ وصحَّةٍ تغازلُني في جانبيهِ أرامُ

ويكرر اسم المحبوبة (أرام) في قصائد ومقطوعات شعرية وردت في ديوان الشاعر أشار فيها إلى لوعة الحب والاشتياق لوجه المحبوبة الجميل، وحديثها العذب، وقوامها المتمايل من دلال الصبا يقول^(١):

وكيف لا أشتاقُ من وَجْهها يَجُلُ في الإِشراقِ بدرَ التمامِ
لا خيرَ في الدنيا ولذاتها وقد نأت عني مراماً أرام
صبيّةٌ تصبي قلوب الوري وتفتنُ الخلقَ بلينِ الكلامِ
تميلُ نشوى من دلالِ الصِّبا والتّيه لا من نشواتِ المدامِ
فلا أقالَ اللهَ لي عثرةً إن كنتُ لا أعشقُ ذاك القوامِ

أما التغزل بالنساء التركيات أو الروميات فلم أجد من تغزل بهن عند شعراء الأسر، وجلّ ما وجدته كان في ذكر النساء الكتابيات قصيدة غزلية أنشأها الملك داود بن عيسى الأيوبي في وصف امرأة كتابية (مسيحية) وهي من أطرف القصائد الغزلية في هذا المجال، وهي تذكرنا بشعر (الديارات) الذي قاله أبو نواس، وقد نحى الشاعر فيها منحى قصصياً وعبر عن افتتانه بهذه الحسناء المسيحية، معرفة واسعة بالمصطلحات الدينية الكنيسية فذكر الصليب، والقساوسة، والشخصيات المسيحية (كيونان ويونين) كل ذلك مقروناً بإياه ببعض التعبيرات الإسلامية كسورة (طس) (ويسين) محاولة لتقريب الأديان، علّ ذلك يقربه من المحبوبة من باب الطرافة والدُعابة، ولعل ذلك مقروناً ببعض المجونيات يقول^(٢):

يا طيب يومٍ مضى في دير دارين في صبحَةِ العيدِ في عيدِ الشعانينِ

(١) حسن عبد الهادي، تاج الملوك لبوري : ٢٢٠

(٢) الملك الناصر داود بن عيسى، ديوانه : ٢٨٧-١٨٨.

والجائليق منيب عند هيكله
يخصُ صفوته من أهل ملته
بيننا يذكرهم ما قد نسوه بما
إذ أقبلتْ غادة كالبدْرِ مرهفةً
فوجهها قمرٌ أوفى على غصنٍ
جاءتْ إلى كأسه تهتزُّ من هيفٍ
عوذتها حين جاءته مُيممةً
فقطبتْ ثم قالتْ وهي مغضبة
وقوستْ حاجبيها عندما غضبت
ف فوق السحرِ من إنسانٍ مقلتها
ما أعرضتْ لصليبٍ في ديانتَه
ظلمتْ من حبّها حيرانٍ في دهشٍ
عقدتني إذ نفثت السحر في خلدي
رياح حبك أجرت سفن معرفتي
فهل يحلُّ على دين المسيح بأن
لولا اعتصامي بحبل الدين قلت لها:

بين القسوس وعبّاد الرهابين
بعد الصلاة بتفريق القرايين
يقصّه من أقاويل التلاحين
ترنو بعيني مهاة الربرب العين
يهتزّ فوق نقا من كذب يبرين
كما ترنح غصنُ البان من لين
من كلّ عين بطسٍ وياسين
ألا استعذت بيونان ويونين
كما تقوَسَ حسنُ الخطِ في النون
سهمٌ مصيبٌ فلا ينفك يرميني
فراح عنها صليباً غير مفتون
أجيبُ داعيها المطري بآمين
يا دميةَ الدّير حليني وخليني
في لجة الجهل حتّى غرقت ديني
تستوقفيني بلا جرمٍ لترديني
إن كان عندك زنارٌ فشديني

ووجد عند شعراء الأسر الاتجاه الغزلي الشاذ ، أو ما يسمى الغزل
بالمذكر، الذي اتسع فيه القول في القرن السادس، وقد اجتهد الباحثون في
تعليل هذه الظاهرة فمنهم من ذهب في تعليلها إلى شيوع الفاحشة، ومن
ثمّ التغزل بالغلمان^(١)، ويقترّب من هذا التعليل أحد الباحثين الذي يرى أنّ

(١) أحمد الهيب ، الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب الشهباء ، ط ١ ، مكتبة المعلا ،

الكويت ، ١٩٨٧م : ١١٤ .

وجود العنصر التركي في المجتمع، وإعجاب الشعراء بمحاسنه وصفاته، لا سيّما العيون أدت لشيوع هذه الظاهرة^(١)، ومنهم من ذهب إلى أنّ ذلك كان تقليداً للشعراء السابقين ولا تعبر هذه الظاهرة عن الواقع^(٢).

ويبدو لي أن ترف الحياة التي عاشها بعض شعراء الأسر ومالوا إليها، إضافة إلى اختلاطهم بالغلّمان المماليك والأترّاك، كانت من الأسباب التي ساعدت على شيوع هذه الظاهرة، ولعل أبرز شعراء الأسر الشاميّة الذين تغزلوا بالملوك بوري بن أيوب، وكان جلّ غزله بالغلّمان المماليك والأترّاك منهم (قانياً)^(٣)، و(الدكز)^(٤)، وأشهرهم (سنقر)^(٥)، ويبدو أنه كان يعشقه وقد أسرف في مجونه وفحشه معه ، نستشف ذلك من خلال الأبيات التالية التي قالها متغزلاً به^(٦):

تبدل من أهوى ، فكيف التصبّر ؟!	وأصبح بعد الوصل يجفو ويهجرُ
وكم ليلةٍ قد باتَ ، وهو مُنادمي	وبتُ به أطوى الغرام وأنشرُ
وباتَ يُساقيني مُداماً كريقه	وكم مرّةٍ من حُبّه كنتُ أسكرُ

(١) محمد كامل حسين ، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، دار الفكر العربي ، القاهرة، ١٩٥٧م: ١٣٩-١٤٠.

(٢) عمر موسى باشا ، الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك : ٥٨٣.

(٣) انظر ، تاج الملوك بوري ، ديوانه : ١١١، ١١٣.

(٤) المصدر نفسه : ٣٠، ١٦٧، ١٧٥.

(٥) المصدر نفسه : ٢٨، ٦٥، ١٦٦، ١٩٦.

(٦) المصدر نفسه: ١٦٥-١٦٦.

ويمضي الشاعر واصفاً (سنقر) بأوصاف حسية، فتحدث عن
نظرة عيونه الحادة كشفرة السيف، وعن وجهه الأبيض ، وعينييه
الكحلاوين ، وشعره الأشقر:

من الترك ماضي المقتلين، كأنه	إذا مارنا ، فمن شفرة السيف ينظرُ
على وجنتيه روضةً من شقائق	تزيدُ بهاءً كلَّ يومٍ وتُزهرُ
بديعُ صفات الحسن فالوجه أبيضُ	وعينه كحلوان ، والشعر أشقرُ
فوا أسفاً ما كنتُ أحسبُ هجره	ولا خلتُ أيامي به تتكدرُ
بسنقرَ كان العيش حلواً مذاقه	ولا خيرَ في عيش إذا غابَ سنقرُ

ومن الملاحظ أن الشاعر تأثر بالبيئة الشامية في غزله الغلmani ،
إذ نجده قد استعار معاني الفروسية في الحروب والقتال ، ليصف غلامه
حتى ليبدو القارئ وكأنه في جو معركة حربية فقال^(١):

أيا حاملَ الرمحِ الشَّبيهِ بقَدِّه	ويا شاهراً سيفاً حكي لحظةً غضبا
ضعِ الرمحَ واغمدِ ما سلَّتَ، فربُّما	قتلتَ وما حاولتَ طعنأ ولا ضربأ

ويبدو الشاعر معجباً بالغلman المقاتلين الذين جمعوا بين الشجاعة
والجمال^(٢):

ظبيٌ يصولُ على الأسودِ بناظرٍ	يُغنيه عن أسيافه ونصاله
ومن العجائب في زمانك أنه	تسطو جاذره على أشباله

ومن الشعراء الذين تغزلوا بالذكر ، وغلبت أوصاف الحرب على
معانيهم عز الدين فروخشاہ يقول^(١):

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (بداية قسم شعراء الشام) : ١٣٧.

(٢) تاج الملوك بوري ، ديوانه : ٦٥.

أَنَا فِي أَسْرِ السَّقَامِ مِنْ هَوَى هَذَا الْغُلَامِ
رُشَاءُ تَرَشَّقُ عَيْنَا هُ فَوَادِي بِسْـهُامِ
كُلَّمَا أَرَشَفْنِي فَا هُ عَلَي حَرِّ الْأَوَامِ
ذَقْتُ مِنْهُ التَّلَجَّ فِي الشَّهْمِ دِ الْمُصَفَى فِي الْمَدَامِ

أما الملك الأفضل علي بن صلاح الدين فقال متغزلاً حين نظر إلى صبي تركي لابس زردية^(٢):

وَذِي قَلْبٍ جَلِيدٍ لَيْسَ يَقْوَى عَلَى هِجْرَانِهِ الْقَلْبُ الْجَلِيدُ
تَدْرَعُ لِلْوَعَى دِرْعاً فَأُضْحَى وَظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ حَدِيدُ

وأعجب من كون عمر بن العديم أحد القضاة المشهود لهم بالقوى والورع في زمنه أن ينهج هذا النهج في شعره (الغزل بالذكر) ولكن قد أجد تفسيراً لهذه الظاهره ، هو أن هذا الغرض كان تقليداً في عهده دون أن يكون لذلك خلفية حقيقية في حياة الشعراء وكما يقال : (أعذب الشعر أكذبه) أي ليس بالضرورة أن يعبر الشعر عن واقع عاشه الشاعر فعلياً يقول^(٣):

وَأَهْيَفَ مَعْسُولِ الْمَرَّاشِفِ خَلْتُهُ وَفِي وَجْنَتَيْهِ لِلْمَدَامَةِ عَاصِرُ
يُسِيلُ إِلَى فِيهِ اللَّذِيذِ مُدَامَةً رَحِيْقاً وَقَدْ مَرَّتْ عَلَيْهِ الْأَعَاصِرُ
فَيَسْكُرُ مِنْهُ عِنْدَ ذَاكَ قَوَامُهُ فِيهِتَزُّ تِيهاً وَالْعَيُونُ فَوَاتِرُ
كَأَنَّ أَمِيرَ النَّوْمِ ، يَهْوَى جُفُونَهُ إِذَا هَمَّ رَفْعاً خَالَفْتُهُ الْمَحَاجِرُ

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين : ١٢٨/٣ .

(٢) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، الطبقة (٦٣) : ١١٤ .

(٣) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء : ٤٥٩/٤ - ٤٦٠ .

أمّا مجد الدين عبد الرحمن بن عمر بن العديم، فقد وصف جماليات
غلام يلعب بالكرة فوقف متغزلاً به^(١):

لله ما أحلى شمائلٍ أغيدٍ أجرى الدموعَ له عذارٌ واقفٌ
وكأنما الكرةُ التي يسطو بها قلبٌ لديه من جفاه واجفٌ
وكأنما إنسانٌ عين محبته وكأنما الجوُّ كان برقٌ خاطفٌ

أما الاتجاه التقليدي فإننا نجده عند بعض شعراء الأسر ظاهراً في
مقدمات بعض القصائد لا سيّما المدحيّة، ونجد المقدمات الطلّية والغزلية
تصدّرت مدائحهم، ومن شعراء الأسر الذين ابتدأوا مدائحهم بمقدمات
غزلية تقليدية ثقة الملك الحسن ابن أبي جرادة، في قصيدته التي مدح بها
القاضي الأشرف ابن البيسانى متولي الحكم بعسقلان، فوقف الشاعر على
الأطلال بعد رحيل الأحبة، مبدياً شوقه وحنينه الممزوج بالدموع علّ ذلك
يسكن قلبه، ويخاطب الشاعر عناصر الطلل من رياح الصبّا، والبرق
لتروي له ما دار بينه وبين أحبته من حديث، وبعد مناجاة عناصر الطلل:
الريح، والبرق، وبكاء الآثار، يصف الشاعر أشواقه معاتباً الدهر الكريم
بالرّزايا والبخيل بما يُسأل عنه، وقد استهلكت هذه المقدمة أربعة عشر
بيتاً، ومنها^(٢):

لعلّ تحدّر الدمع السّفوح يسكنُ لوعةَ القلبِ القريحِ
وعلّ البرق يروي لي حديثاً فيرفعه بإسنادٍ صحيحِ
ويا ريح الصبا لو خبرتني متى كان الخيام بذى طلوحِ

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان : ٣١٤/٣.

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٢١٣/٢.

وله قصيدة في أحد القضاة تغزل فيها بالحببية في معظم أبياتها وقد تحدث فيها عن محاسن هذه الحببية وصفاتها^(١):

إنَّ بين السُّجُوفِ والأرواقِ فتنةً للقلوب والأحداقِ
ومريض العهود تخبر عينا هُ بما في فؤاده من نفاقِ
أنا منه في ذلةٍ وخضوعٍ وهو مني في عزّةٍ وشِفاقِ
سدّد السّهم من جفونٍ إذا ما فوّقت لم يكن لها من فواقِ
وثمة أغراض أخرى قدّم لها الشعراء بمقدمات غزلية كالفرح،
ولكمال الدين ابن العديم قصائد فخر استهل بعضها بمقدمة غزلية ذاكراً
فيها المحبوبة، ومضيفاً عليها أوصافاً حسية فوصف جمال الوجه
والحواجب، وعذوبة الريق الطاهر إذ قال^(٢):

وساحرة الأجفان معسولة اللَّمي مرأشفها تُهدي الشفاء من الظّما
حنت لي قوسي حاجبها وفوّقت إلى كبدي من مقلّة العين أسهما
فوا عجباً من ريقها وهو طاهرٌ حلالٌ وقد أضحي عليّ محرماً!
وقد عرضنا لجانب من هذه المقدمات التقليدية في موضوع المدح.

(١) العماد الاصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٢٠٣/٢.

(٢) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء : ٤٦٠/٤..

الغربة والحنين :

من الموضوعات البارزة التي تناولها شعراء الأسر الشاميّة الغربة والحنين؛ وذلك يعود إلى انفصال بعض أولئك الشعراء عن أوطانهم لسبب أو لآخر، فتثور في نفوسهم تلك الأحاسيس الرقيقة التي تربط بين المغترب ووطنه - ويعدُّ أسامة بن منقذ من أبرز الشعراء الذين قالوا في ذلك، وهذا يعود إلى طرده من شيزر خاصّة، وإخراجه من بلاد الشّام عامّة، وتنقله من بلد إلى آخر، ممّا نغص عليه حياته، وأفقده الشّعور بالأمن والاستقرار، وقد جسّد أسامة إحساسه بالغربة عن وطنه في كلّ صور الفراق التي تحدث عنها في شعره : فراق الوطن ومرابعه الجميلة، وفراق الأحبة والأصدقاء وذكرياتهم الحلوة ، وفراق أيّام الصبا والشباب وعهودها العذبة، أو فراق الحبيبة التي تذوب نفسه شوقاً إليها ، فهو يُعبّر عن تمزّقه النفسيّ الحاد الذي يكابده وهو يتنقل من مكان إلى آخر ، وتفجّره من الرحيل المستمر، والسفر الذي لا ينقطع^(١).

إلى كم أعتى بالسرى والسباسب ويصدع شملني بالنوى والنوائب
فمن لاقه يوماً من الدهر منزل فما منزلي إلاّ ظهور النجائب
ويبوح الشاعر، وهو في غربته، لأبيه بأبيات شجيّة، مشحونة بشكوى مريرة من التنقل من مكان إلى آخر، والضرب في مناكب الأرض حتّى بات ينسب إلى أماكن عدّة^(٢):

(١) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ١٠٧.

(٢) المصدر نفسه : ١٨٢.

وأبلغ تحيةً نازحٍ قذفت به أيدي النوى في أسحق الآفاق
قد كان بالشامي يعرفُ برهةً من دهره، والآن فهو عراقي
أنضى الوجيف^(١) ركابه وجياده فكانهنّ قلائدُ الأعناقِ

وينصرف الشاعر إلى الأساليب الانفعالية التي تعبّر عن شعوره
المُضّ بالخربة، وافتقاره الطمأنينة والسكينة بسبب بعده عن وطنه
وأهله، كما في قوله^(٢):

أهكذا أنا ، باقي العمر مغترباً ناءً عن الأهل والأوطانِ والسكنِ
لا تستقرّ جيادي في مُعرّسها^(٣) حتّى أروّعها بالشّدّ والظّعنِ

وولدت تجربة الخربة في نفسه مشاعر مريرة، فهو حين يرى
قوافل المسافرين يرى الموت مجسداً فيها، فتثور نفسه، ويتمنى لو يجرّد
سيفه ويقتلها لأنها تفرّق بين الإنسان ووطنه، وتجلب له الأسى واللوعة
يقول^(٤):

ليت المطايا ما خلّفن ، فكم دمٍ سفكته يثقل غيرها أوزاره
ما مات صببٌ إثرَ ألفٍ نازحٍ وجداً به إلا لديها ثاره
فلو استطعتُ أبحتُ سيفي سوقها حتى يعافَ وماءهنّ غراره

(١) الوجيف : ضرب من سير الإبل والخيّل ، ابن منظور ، لسان العرب : ٢٢٢/١٥ .

(٢) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ١٥٤ .

(٣) المعرس : البيت .

(٤) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ١٢٠ .

بل إنّ هذه التجربة أفقدته القدرة على التكيف مع الآخرين، حتّى
ظنّ أنّه من غير جنسهم، وأنّه إنسان دون وطن، كما في قوله^(١):

وقد أفردتني الحادثات ، فليس لي أنيسٌ ، ولا في طارق الخطب أعوانُ
كأنّي من غير التراب ، نبت بيّ الب بلادٌ، فما لي في البسيطة أوطانُ
أجولُ، كما جالت قذاةٌ بمقلّةٍ وأسري، وساري النجم في الأفق حيرانُ

وتولد عن هذه الغربة المكانية نمط آخر من الشعر يتمثل في أشعار
الشوق وقوة الحنين إلى الأوطان، وهي أشعار تمتاز بالبساطة في
التعبير، والصدق فيه، وقوة الحنين نفسه، كما في الأبيات التالية التي يلوذ
فيها برموز الجزيرة العربية للتعبير عن حنينه إلى وطنه، في درجة راقية
من العاطفة الصادقة، والمشاعر الحارة^(٢):

تناءتُ بنا عن أرضِ نجدٍ وأهلِهِ نوى غُربةٍ، كالصدعِ في الحجر الصلدِ
وقد قيلَ: في اليأسِ الشفاءُ من الهوى وداني الذي أقضى به اليأسُ من نجد
بلادٌ بها صاحبتُ شرخَ شبيبتي وفارقتُ إخواني الكرامَ ذوي ودّي
إذا خطرتُ منهم على القلبِ خطرةٌ تدلّهُتُ حتّى ما أعيدُ ، ولا أبدي

وثمة نمط آخر من شعر الغربة في شعر أسامة قاله بعد أن تقدمت
به السنّ، ويبدو أن تجربة الشيخوخة كان لها آثار عميقة في نفسه، فقد

(١) أسامة بن منقذ ، ديوانه: ١٥٥.

(٢) المصدر نفسه: ١١٥.

أشعرته بالعجز، وعدم القدرة على ممارسة الحياة، وشعر أنه غريب عن
زمنه، فلزم بيته، والآلام تقضى مضجعه، وفي ذلك يقول: " فلما توقّلتُ
ذروة التسعين، وأبلاني مرُّ الأيام والسنين، صرتُ كجواد العلاف، لا
الجواد المتلاف. ولصقت من الضعف بالأرض، ودخل من الكبر بعضي
في بعض حتى أنكرتُ نفسي، وتحسرتُ على أمسي"، فقد " ضعفت القوة
ووهت، وتقضتْ بُلْهْنِيَةُ العيش وانتهت"، و"استرجعتُ مني الأيام بطول
الحياة، سائر محبوب اللذات، وشاب كدرُ النكد، صفو العيش الرّغد" (١).

وقد وضعت هذه التجربة أسامة أمام الموت مباشرة، وجعلته
يحس به إحساساً عميقاً ويتمثله في حياته تمثلاً قوياً، فهي - كما وصفها
- قبل الموت (٢):

فَرَجَعْتُ أَحْمَلُ بَعْدَ سَبْعِينَ الْعَصَا فَأَعْجَبَ لِمَا تَأْتِي بِهِ الْيَّامُ
وَإِذَا الْحِمَامُ أَبِي مُعَاجِلَةَ الْفَتَى فحَيَاتُهُ، لَا تُكَذِّبَنَّ، حِمَامُ
وَيَصُورُ الْآلَامُ الَّتِي يَعَانِيهَا فِي شَيْخُوخْتِهِ بَعْدَ أَنْ تَقُوسَ ظَهْرَهُ،
وَخَارَتِ قَوَاهُ، فَبَاتَ يَعِيشُ تَحْتَ وَطْأَةِ هَاجِسِ الْمَوْتِ، وَقَدْ أَثَارَ ذَلِكَ
الْخَوْفُ فِي نَفْسِهِ، فَلَمْ يَجِدْ مَهْرَباً إِلَّا بِالْمَوْتِ نَفْسَهُ، يَقُولُ (٣):

إِذَا عَادَ ظَهْرُ الْمَرْءِ كَالْقَوْسِ، وَالْعَصَا لَهُ حِينَ يَمْشِي، وَهِيَ تَقْدُمُهُ، وَتَرُ
وَمَلَّ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَطُولَهَا وَأَضْعَفُهُ مِنْ بَعْدِ قُوَّتِهِ الْكِبَرُ
فَإِنَّ لَهُ فِي الْمَوْتِ أَعْظَمَ رَاحَةً وَأَمْنًا مِنَ الْمَوْتِ الَّذِي كَانَ يَنْتَظَرُ

(١) أسامة بن منقذ، الاعتبار: ٢٠٧، ٢١٢، ٢١١.

(٢) أسامة بن منقذ، ديوانه: ٣٢٣.

(٣) المصدر نفسه: ٣١٩.

ولم يكن الإحساس بالغربة مقصوراً على أسامة وحده من أبناء أسرته، وإنما شاركه شعراء آخرون، ولعلّ هذا يعود إلى تفرقهم في البلدان في إثر الزلزال الذي ضرب شيزر، ومن هؤلاء الشعراء : علي بن مرشد الذي بث في أشعاره مشاعر الأسى واللوعة بسبب بعد ذويه عنه، وكيف أنّ الديار التي تخلو منهم ليست بدار مقام، وذلك إذ يقول^(١):

كفى حسرةً في النفس بعدُ أحبةً وقربُ أعادٍ يشتهون حامي
لعمرك ما دارُ الفتى حين لا يرى أحبّته فيها بدارٍ مُقام

ويتحدث الشاعر بأسى بالغ عن سعي الدهر بينه وبين ذويه ، وتشتيته شملهم في أنحاء الأرض، مما أسلمه إلى حزنٍ دائمٍ وأسف لا ينقطع، وذلك إذ يقول^(٢):

بني أبي إن عدا دهرٌ ففرّقنا فهمُ نفسي بكم ما عشتُ مجتمع
هل تعلمون الذي في النفس من أسفٍ عليكم وحنينٍ ليس ينقطعُ
نزحتُم أدمعي لقد مَحَلَّتْ جفونُ عيني ومات اليأس والطمع
وإن دهرًا رمى عن جيده درراً أمثالكم لزمانٌ عاطلٌ ضرعُ

ويصور الشاعر عن حسّ فنيّ مرهف حين يقيم مقارنة بينه وبين طائر لعبت به أيدي الفراق، وأبعدته عن وطنه ، فاستحال تغريده شكوى وحنيناً بعث الهموم في نفس الشاعر، وسلب النوم من عينيه، وذلك في قوله^(٣):

(١) أسامة بن منقذ ، المنازل والديار : ٣٠٢.

(٢) ياقوت الحموي ، معجم الأديباء : ٥٨٤/٢.

(٣) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٥٤٩/١ - ٥٥٠.

يا طائراً لعبتْ أَيْدِي الْفِرَاقِ بِهِ
دَانِي الْأَسَى نَازِحَ الْأَوْطَانِ مَغْتَرِباً
بِلا نَدِيمٍ وَلَا جَارٍ يُسَرُّ بِهِ
لَكِنْ نَطَقْتَ فزَالِ الْهَمُّ عَنْكَ، وَلِي
وَكُلُّ مَنْ بَاحَ بِالشَّكْوَى اسْتِرَاحَ وَمَنْ
أَرَقَّتْ عَيْنِي بَنُو حِ لَسْتُ أَفْهَمَهُ
وَمَا بِكَ لِي دَمْعٌ غَوَارِبُهُ

مثلي فأصبح ذا همّ وذا حزن
عن الأحبة مصفوداً عن الوطن
ولا حميم ولا دار ولا سكن
همّ يقلقل أحشائي ويخرسني
أخفى الجوى نثّ عنه شاهدُ البدن
مع ما بقلبي من وجدٍ يورقني
إذا ارتمت منه لم تنشق بالسفن

كما جسّد الشاعر إحساسه بالغربة عن وطنه ، بتشخيصه لصورة
البين الذي يدعو عليه بالشلل وهي من أجمل الصور التي يعبر بها
الشاعر عن ضيقه بالفراق^(١):

إِخْوَتِي شُلَّتْ يَدُ الْبَيْنِ —
وَاعْتَدَى الدَّهْرُ بِلَا جُرْ
فَتَفَرَّقْنَا، كَأَنَّا —
وَيَحَ قَلْبِي مِنْ دِيَارِ
أَصْبَحْتُ قَفْراً كَأَنَّا —
لَا أَقَرَّ اللَّهُ مِنْ قَرِّ
مِنْ لَقَدْ جَارَتْ عَلَيْنَا —
مِ وَمَا كُنَّا اعْتَدِينَا
لَمْ نَكُنْ قَطُّ أَلْتَقِينَا —
كُنْتُمْ فِيهَا عَفِينَا
لَمْ نَكُنْ فِيهَا ثَوِينَا —
ت لَهُ بِالْبَيْنِ عَيْنَا

ويتحسر الشاعر على ذلك العهد الذي مضى مع ذويه وكان على
العيش نضرةً ونعيم^(٢):

يَا دِيَارَ الْأَحْبَابِ مَا فِيكَ لِلْمَخْ —
زُونٍ إِلَّا الْبُكَاءُ وَالتَّسْلِيمُ

(١) أسامة بن منقذ ، المنازل والديار : ٧٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٧٥ ، ٧٦ .

أَيْنَ سُكَّانُكَ الَّذِينَ بِهِمْ كَأَنَّ عَلَى الْعَيْشِ نَضْرَةً وَنَعِيمٌ ؟
 أَقْفَرْتَ مِنْهُمْ الدِّيَارُ وَأَضْحَتْ دَارِسَاتِ كَأَنَّهُنَّ رُقُومٌ
 لَيْتَ أَنِّي نَاهَلْتَهُمْ جُزَعَ الْمَوْ تِ ، فَعِيشِي بَعْدَ الْأَحْبَةِ لَوْمٌ

ولم يقتصر موضوع الغربة والحنين على بني منقذ بل ثمة شعراء آخرون اتخذوا من موضوع الشوق والحنين مجالاً للتعبير عن غربتهم ، فهذا محي الدين الشهرزوري الذي ارتحل من حلب إلى الموصل بعد أن عُزل من منصبه في القضاء^(١) له قصيدة استهلها بمخاطبة نسيم الصبا العليل، يحملته أشواقه وحنينه إلى دمشق، وهو لا يفتأ يذكر الأماكن التي له فيها ذكريات جميلة لـ (النيربين، السهم، المزة، وبيت لهيا، ومقرى، والتي يتخذ من جمال أزهارها ورائحتها الطيبة وسيلة للتعبير عن حنينه إليها، وافتتانه بجمالها^(٢) :

يَا نَسِيمَ الصَّبَا الْعَلِيلَ تَحْمَلُ حَاجَةً لِلْمَتِيمِ الْمُسْتَهِامِ
 عَجْ عَلَى النَّيرِبِينَ فَالسَّهْمِ فَالْمَزَّ ةِ مُسْتَرَسِلًا بِغَيْرِ احْتِشَامِ
 ثُمَّ عَرَّجَ مِنْ بَيْتِ لِهْيَا عَلَى مَقَرِّ رَى فَسَطَرًا مِنْ قَبْلِ سَجْعِ الْحَمَامِ
 وَتَعَثَّرَ بِكُلِّ رَوْضٍ أَنْيَقٍ ضَا حَكَ الزَّهْرَ مِنْ بَكَاءِ الْغَمَامِ
 وَتَحْمَلُ رِيًّا الْبِنْفَسَجِ وَالنَّرِّ جِسَ وَالضَّيْمَرَانَ وَالنَّمَامِ
 وَالْخَزَامَى وَالْأَقْحُوَانَ وَأَنْفَا سَ الْغَوَانِي مَعًا وَنَشْرَ الْمَدَامِ

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان : ٢٤٦/٤ .

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٣٣١/٢ - ٣٣٢ .

ويمضي الشاعر طالباً من النسيم تقبيل ثرى دمشق وإرسال التحية والسلام لساكنيها، واصفاً حاله بعد أن تفرّق شمل الأحبة، ومكابدته الشوق والحنين:

ثم قَبَّلُ ثَرَى دَمَشَقٍ وَبَلَّغُ ساكنيها تحيّي وسلامي
وتحدّثُ عن لوعتي بلسان الـ حالٍ إن لم يكن لسان الكلام
صف لهم دمعي الطليق وقلبي الـ موثق الأسر من غريم الغرام
وبكائي على الليالي التي نلـ ات الأمان فيهنّ والأيام
حيثُ شَمَلِي بكم جميعٌ ودمعي نازحٌ عن وساوس اللّوأم

ونلاحظ أسلوب التشخيص عند الشاعر ولا سيّما في تصوير يد الزمن الغادرة:

وَرَمَتْنَا يَدُ الزَّمانِ بِقوس الـ غدر من جُعبَةِ النَّوى بسهام
فكأننا بعد التفرّق كنّا من عَوادي الأيّام في أحلام
كما صور الشاعر ثقة الملك الحسن بن أبي جرادة إحساسه بالغربة والتي عبر من خلالها عن الشوق والحنين الذي يعتمل بنفسه وهو في ديار الغربة وهو يستحضر صورة الأحبة أينما نظر^(١):

يا غائبين وما غابت مودّتهم هل تعلمون لمن شَفَّ الغرامُ شفاً
إن تعبّوْني فعندي من تذكركم طيفٌ يطالعُ طرفي كلّما طرفاً
ويلوذ الشاعر بتقليد شعريّ سابق حين يَصوّر دور الريح في إذكاء الحنين والوجد للأهل والأحبة والأوطان:

فالريّحُ تذكّي الجوى فيه إذا نفحت والوجدُ يقوى عليه كلّما ضَعُفا

(١) العماد الاصفاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٢٠٥-٢٠٦.

فَارَقْتَكُمْ غِرَّةً مَنِيَّ بِفُرْقَتِكُمْ فَلَمْ أَجِدْ بَدَلًا مِنْكُمْ وَلَا خَلْفًا

ويتلهف الشاعر إلى نفحة ريح من بلاده وأرضه تشفى غليل فؤاده،
وهو يربط بين نفحة هذه الريح التي يتمناها وبين المكان الذي يتلهف
للوقوف به وهو ذاك السفح من حلب :

لَهْفِي عَلَى نَفْحَةٍ مِنْ رِيحِ أَرْضِكُمْ أَبُلُّ مِنْهَا فُؤَادًا مُوقِرًا شَغِفًا
وَوَقْفَةٍ دُونَ ذَاكَ السَّفْحِ مِنْ حَلَبٍ أَمْرٌ فِيهَا بَدَمْعٍ قَطُّ مَا وَقَعَا

ويصور الشاعر في نهاية القصيدة دموعه الغزيرة التي ذرفها،
ويتخذ ذلك مدخلا للشكوى من الدهر الذي يقذفه من مكان إلى آخر:

أَنْفَقْتُ دَمْعِي قَصْدًا يَوْمَ بَيْنِكُمْ لَكُنْني الْيَوْمَ قَدْ أَنْفَقْتُهُ سَرَفًا
مَالِي وَلِلدَّهْرِ مَا يَنْفَكُ يَقْذِفُ بِي كَأَنِّي سَهْمٌ رَامٍ يَبْتَغِي هَدَفًا

وقد جسد الشاعر إحساسه بالغربة في كل صور الفراق في شعره،
فراق الوطن، وفراق الشباب، وفراق الحبيبة، كما في قوله^(١):

هَلْ لِلْمُعْنَى بَعْدَ بُعْدِ حَبِيبِهِ إِلَّا اتَّصَالَ حَنِينُهُ بِنَحِيبِهِ
جُهْدُ الْمُحِبِّ مَدَامِغَ مَسْجُومَةٍ لَيْسَتْ تَقُومُ لَهُ بِكُشْفِ كُرُوبِهِ
أَحْبَابَنَا بَانَ الشَّبَابُ وَبَنَتْهُمُ عَنْ مُدْنَفٍ نَائِي الْمَحَلِّ غَرِيبِهِ

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٢١٠/٢ ، ٢١١ .

أَمَّا الْمُدَامُ بِعَدَمِ فِغْزِيرَةٍ وَالْقَلْبُ مَوْقُوفٌ عَلَى تَعْذِيبِهِ

ويصور الشاعر إحساسه الممضّ بالتمزق وعدم الاستقرار وهو في بلاد الغرب، وذلك إذ يقول^(١):

شَوْقِي عَلَى طَوْلِ الزَّمَا نِ يَزِيدُ فِي مَقْدَارِهِ
وَجَوَى فَوَادِي لَا يَقِي رُّ وَكَيْفَ لِي بِقَرَارِهِ

ويبدو الشاعر في غربته المكانية مضطرب النفس، قلقاً، كما يستشف من المقطوعة التالية التي تألفت فيها ألفاظ الشعر والتصوير والإيقاع السريع للتعبير عن هموم الغربة:

مَنْ ذَا يَرْقُ لِنَازِحٍ عَنْ أَهْلِهِ وَدِيَارِهِ
لَعِبِ الزَّمَانِ بِشِمْلِهِ وَقَضَى بِبَعْدِ مَزَارِهِ
فَالسَّقْمُ مِنْ زَوَارِهِ وَالْهَمُّ مِنْ سُمَارِهِ
وَالصَّبْرُ مِنْ أَعْدَائِهِ وَالذَّمْعُ مِنْ أَنْصَارِهِ
وَهُمُومُهُ مَقْصُورَةٌ أَبَدًا عَلَى تَذَكَارِهِ

(١) المصدر نفسه : ٢/٢١٢، ٢١٣.

وعبّر شاعر شامي آخر هو عبد الرحمن بن العديم عن حنينه إلى
ديار الشام ، مركزاً هذا الحنين في مظاهر الطبيعة التي تهيج مشاعره،
وتستثير مكامن الشوق الخفية في نفسه^(١):

قف بالمطيّ فلي في الحيّ أوطار واحبس قليلاً فقد لاحت لي الدارُ
هذا الحمى فاح لي من نشره أرج كأنه عن أهيل الحيّ إخبار

* * *

إيه نسيم الصبا كرر حديثهم في مسمعي فحديث القوم أسمارُ
بالله يا نسمة الوادي عسى خبرٌ يهديه عنهم إلينا الشيخ والغارُ
ولا تقولي غداً آتي به سحراً فكل أوقات من أهواه أسحارُ
ويتكرّر هذا المعنى في تقرير التلّيف، وإظهار أثر المعاناة،
ووصف الهمّ الذي تلبسه بفرقة الأحباب، وذلك في نسق شعريّ جميل
يستدعي أساليب الشعراء العذريين في وصف أشواقهم ومواجدهم ، كما
في قوله^(٢):

ما بعد رامةً للمطايا موقفُ فقفوا بها إن رمتُم أن تسعفوا
ربّع الصبا ومهبّ أنفاس الصبا وغضارة العيش الذي يترشّف
يا صاحبي قفا بها واستشرفا فعسى غزالٌ من رباها يعطفُ
وسلوا غصونَ البانِ هل مرّت بها ريح الصبّا أم رنحتها قرقفُ
وترقبوا سحراً لعلّ نسيمه من جانب الوادي يرقُ ويلطفُ

(١) محمد راغب الطباخ ، أعلام النبلاء : ٤/٤٧٨.

(٢) المصدر نفسه : ٤/٤٧٧-٤٧٨.

الإخوانيات :

وهو فنٌ أدبيّ اتخذ شكل رسائل شعرية خاصة، وجاءت على ضربين: أولها: الرسائل الشعرية التي يتبادلها الشعراء مع ذويهم وأقاربهم ضمن الأسرة الواحدة، أمّا الضرب الثاني فهي تلك الرسائل التي تبادلها الشعراء مع أصدقائهم من خارج محيط الأسرة، ولعل ظهور الأسر التي امتاز بنوها بالقدرة على قول الشعر ساعد في إبراز هذا الغرض الشعري والإجادة فيه، وأشهر هذه الأسر بنو منقذ ، وبنو العديم إضافة إلى أفراد من الأسر الأخرى الشامية.

وجلّهم اغتربوا وتشئت شملهم؛ فكانت رسائلهم الشعرية فيما بينهم بمثابة حلقة وصل بين أحبة نأت بهم الديار . يسكبون فيها مشاعرهم وانفعالاتهم من خلال هذه الرسائل الشعرية التي ترصد بعضاً من ملامح الحياة الاجتماعية والعلاقات التي تربط الشاعر بأهله أولاً، وتربط أفراد الأسرة الواحدة بعضهم ببعض.

وقد تنوّعت الموضوعات التي تناولها الشعراء في إخوانياتهم، ومن هذه الموضوعات الشكوى من ذوي الأرحام، وأظهر ما يكون ذلك في شعر بني منقذ وعلى رأسهم أسامة، فقد أرسل قبل رحيله إلى أبيه قصيدة نستشف منها مدى إحساسه بظلم ذوي القربى، وحرصه على البر بأبيه وعدم عقوقه، مستأذناً إياه بالرحيل عن شيزر، وعدم إكراهه على المقام بها بسبب حقد أقاربه عليه وكرههم له، يقول^(١):

أشكو إلى عليك همّاً ضاقَ عن كتمانهِ صَدْرِي ، وما هُوَ ضيقُ
وطوارقاً للهّمّ أقرّياها الكرى وتلظُّ بي صُبْحاً، فما تتفرّقُ

(١) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ١٧٧ ، ١٧٨ .

لو لم أَمِنْ النفس أنكَ كاشفٌ
أنا عائدٌ بك من عقوقٍ مُحْبِطٍ
لا تُلزِمَنِي بِالْهَوَانِ وَحَمَلِهِ
دعني وقطع الأرضِ دُونَ معاشِرِ
تَغْلِي عَلَى صُدُورِهِمْ مِنْ غِيظِهِمْ

كُربَاتِهَا عَنْهَا لَكَادَتْ تَزْهَقُ
عَمَلِي، فَعَصِيَانِي لِأَمْرِكَ مُوبِقُ
إِنَّ احْتِمَالَ الْهَوْنِ ثَقُلَ مَرَهَقُ
كُلَّ عَلَى لَغِيرِ جُرْمٍ مُحْنَقُ
فَتَكَادُ مِنْ غِيظٍ عَلَيَّ تَحْرِقُ

ويمضي أسامة في رسالته إلى أبيه ذاكراً مشاعر أقاربه الذين جفوه
وأساءوا معاملته ولا شك أنه قصد عمه سلطان، وأبناء عمه .

وجرت مراسلات شعرية بين الأمير مرشد وأخيه سلطان نستشف
من خلال ما وصلنا منها، أن الأمير مرشداً كان يدرك جفاء أخيه لأبنائه
ولا سيما أسامة، فيرسل إلى أخيه الذي كان قد أرسل إليه أبيات شعرية
يعاتبه على أشياء بلغته عنه فأجابه بقصيده بدأها بمقدمة غزلية تحدث
فيها عن الحبيبة وصفاتها، التي ما هي إلا الأخ الذي يذكره فيما بعد
ومنها^(١):

ظُلُومٌ أَبَتْ فِي الظُّلْمِ إِلَّا تَمَادِيَا
شَكَتْ هَجْرَنَا وَالذَّنْبُ فِي ذَلِكَ ذَنْبُهَا
وَطَاوَعَتِ الْوَاشِينَ فِي وَطَالِمَا
ومنها :

وَفِي الصَّدِّ وَالْهَجْرَانِ إِلَّا تَنَاهِيَا
فِيَا عَجَبًا مِنْ ظَالِمٍ جَاءَ شَاكِيَا
عَصِيْتُ عَذُولًا فِي هَوَاهَا وَوَاشِيَا

وَيَحْفَظُ عَهْدِي فِيهِمْ وَذِمَامِيَا
لِنَفْسِي فَقَدْ أَعَدَّدْتُهُ مِنْ تَرَاثِيَا
وَتَلَّمْ مِنْ صَارِمًا كَانَ مَاضِيَا
وَقَرَّبَكَ مِنْهُمْ جَفْوَةً وَتَنَابِيَا

وَقُلْتُ: أَخِي يَرْعَى بَنِي وَأُسْرَتِي
وَيَجْزِيهِمْ مَا لَمْ أَكْلِفْهُ فِعْلُهُ
فَمَا لَكَ لَمَّا أَنْ حَتَّى الدَّهْرُ صُعْدَتِي
تَنَكَّرْتُ حَتَّى صَارَ بَرُّكَ قَسْوَةً

(١) ابن الاثير، الكامل: ٢١٩/١١، ٢٢٠؛ التاريخ الباهر: ١١١.

وَأَصْبَحْتُ صَفْرَ الْكَفِّ مِمَّا رَجَوْتُهُ أَرَى الْيَأْسَ قَدْ عَفَى سَبِيلَ رَجَائِيَا
وتردّت الرسائل الشعرية التي جرت على السنة شعراء الأسر
الشّامية بين شعراء أسرة بني أبي جرادة؛ إذ انشأ ثقة الملك عدداً من
الرسائل الشعرية بعد أن سافر إلى مصر وابتعد عن أهله وذويه، ولعل
ذلك ما يفسر لنا أن ما حملته رسائله من موضوعات تحمل معاني الشوق
والحنين والإحساس بالغربة، فجاءت رسائله رقيقة المعاني امتزجت
ألفاظها ومعانيها بمعاني وألفاظ الغزل العذري، وكأنّ الشاعر يتحدث
عن حبيبة ما هي إلاّ الأب أو الأخ الذي يبثه شوقه وحنينه، وممّا أرسله
إلى والده يتشوق فيه^(١):

ظَنَّ النَّوَى مِنْكَ مَا ظَنَّ الْهَوَى لَعْبًا وَغَرَّهُ غَرَّرَ بِالْبَيْنِ فَاغْتَرَبَا
فَظَلَّ فِي رِبْقَةِ التَّبْرِيحِ مُؤْتَشِبًا مِنْ مَاتَ مِنْ حُرْقَةِ التَّوْدِيعِ مُنْتَحِبَا
مُتِمِّمٌ فِي بَنِي كَعْبٍ لَهُ نَسَبٌ لَكِنَّهُ الْيَوْمَ عُذْرِيٌّ إِذَا انْتَسَبَا
أَجَابَ دَاعِيَ النَّوَى جَهْلًا بِمَوْقِعِهَا فَكَانَ مِنْهَا إِلَى مَا سَاءَهِ سَبِيبَا
وفيها يرد ثقة الملك على معاتبٍ - ربما والده - أو أنه معاتبٍ

متخيل فيقول:

يَا عَاتِبِي رَوِيدًا مِنْ مَعَاتِبَتِي فَلَسْتُ أَوَّلَ مُخْطٍ فِي الْوَرَى أَرْبَا
رَدَا حَدِيثَ الْهَوَى غَضًا عَلَى وَجِبٍ يَكَادُ يَقْضِي إِذَا هَبَّتْ عَلَيْهِ صَبَا
وَجَدُوا عَهْدَهُ بِالسَّمْعِ عَنْ حَلْبٍ فَإِنْ أَدْمَعَهُ لَا تَأْتَلِي حَلْبَا
وأخرى أرسلها إلى والده يبثه شوقاً لا ينتهي مطلعها^(٢):

شوقي على طول الزما نِ يَزِيدُ فِي مَقْدَارِهِ

(١) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم الشام) : ٢١٦/٢.

(٢) المصدر نفسه: ٢١٢/٢.

وأرسل أخرى إلى أخيه أبي البركات بن أبي جرادة، لا يختلف مضمونها وموضوعها الذي تحدث فيه عن الشوق والحنين عن تلك التي أرسلها لأبيه، وقد قرن ما جاء من معاني الشوق والحنين بالدمع الغزير لمفارقة الديار، والبعد عن الأهل والأحباب^(١):

هل للمعنى بعدَ بُعدِ حبيبهِ	إلا اتصالُ حنينهِ بنحيبهِ
جهدُ المحبِّ مدامِ مسجومةً	ليست تقومُ له بكشفِ كروبهِ
أحبابنا بانَ الشبابُ وبنتمُ	عن مدنفٍ نائي المَحَلِّ غريبهِ
أما المدامُ بعدكمُ فغزيرةٌ	والقلبُ موقوفٌ على تغذيه
بي ألفةٌ بالليل بعدَ فراقكمُ	والنجمُ عندَ شروقهِ وغروبهِ
وأكادُ من ولهي إذا ما هبَّ لي	ذاك النسيمُ أطيروا عندَ هبوبهِ

كما ترددت الرسائل الشعرية بين أفراد الأسرة المالكة من بني أيوب، ومن هذه الأشعار التي كان يرسلها الملك محمد بن عمر بن شاهنشاه الملك المنصور إلى عمه الملك العادل، وهي مقطوعة تفيض بمشاعر الحب والولاء والطاعة، والفخر والإعجاب بعمه يقول^(٢):

سلامُ محبٍّ في الولاء محققُ	يكاد لفرط الشوق بالدمع يُغرق
وينشدُ بيتاً قيل في مدح مجدكمُ	له بثناكم حين يُنشدُ رونقُ
تقول لي الآمال إن كنت نازلاً	بباب ابن أيوبٍ فأنت الموفقُ

وأرسل الملك الأفضل أبياتاً إلى أخيه العزيز وهي أبيات رقيقة تحمل معاني العتاب والإعتذار، يستعطفه ويستميله بعد جفاء دام تسع سنوات، وما التقيا إلا للقتال^(٣):

(١) العماد الاصفهاني ، الخريدة (قسم الشام): ٢/٢١٠، ٢١١.

(٢) المقرئزي ، المقفى الكبير : ٤١٥/٦.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٣/٣٨، ٣٩.

نَظَرْتُكَ نَظْرَةً مِنْ بَعْدِ تَسْنَعٍ
وَعَظَّ الدَّهْرُ عَنْهَا طَرْفَ غَدْرِ
وَعَادَ إِلَى سَجِيَّتِهِ فَأَجْرَى
فَوَيْحَ الدَّهْرِ لَمْ يَسْمَحْ بِوَصْلِ
فِرَاقاً ثُمَّ يُعَقِّبُهُ بَيْنَ
وَلَا يُبْذِي جُيُوشَ الْقُرْبِ حَتَّى
وَلَا يُدْنِي مَحَلِّي مِنْكَ إِلَّا
فَلَيْتَ الدَّهْرَ يَسْمَحَ لِي بِأُخْرَى

تَقَضَّتْ بِالتَّفَرُّقِ مِنْ سَنِينَ
مَسَافَةً قُرْبِ طَرْفٍ مِنْ جَبِينِ
بِفِرْقَتِنَا الْعَيُونَ مِنْ الْعَيُونَ
يُعِيدُ بِهِ الْهَجْوَعَ إِلَى الْجَفُونِ
يُعِيدُ إِلَى الْحَشَا عَدَمَ السُّكُونِ
يُرْتَبُ جَيْشُ بَعْدٍ فِي الْكَمِينِ
إِذَا دَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ الزَّبُونِ
وَلَوْ أَمْضَى بِهَا حُكْمَ الْمُنُونِ

والضرب الثاني من هذا الغرض، هي تلك الرسائل الشعرية التي توجه بها شعراء الأسر إلى أصدقائهم الذين تجمع بينهما رابطة صداقة ومودة وجاءت رسائلهم تعبر عن مكانة الصديق، فقد كتب أسامة بن منقذ إلى العماد الأصفهاني، وقد وجد عنده النصرة فكان تعويضاً له عما لقيه من أقاربه^(١):

عِمَادَ الدِّينِ أَنْتَ لِكُلِّ دَاعٍ
تَقُومُ لِنَصْرِهِ كَرَمًا إِذَا مَا
قَضَى لَكَ بِالْعُلَى كَرَمُ السَّجَايَا
دَعَاكَ لِعَوْنِهِ خَيْرُ الْعِمَادِ
تَقَاعَدَ ذُو الْقَرَابَةِ وَالْوُدَادِ
وَمَا أُوتِيَتْ مِنْ كَرَمِ الْوِلَادِ

وكتب ثقة الملك الحسن بن أبي جرادة إلى صديقه أسامة بن منقذ أبيات عبرٍ له فيها عن مشاعر أخوية صادقة ، وصفاء ودٍ ليس له مثيل^(٢):

أَحِبَابَنَا فَارَقْتُمْ
بَعْدَ اتِّتْلَافٍ وَاعْتِلَاقٍ

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٥٤٤/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٠٧/٢ .

وصفاءٍ ودٍ غير ممّ — ذوقٍ ولا مُرّ المذاقِ

ووثائقٍ بين القلو — بَ تَظَلُّ مُحْكَمَةُ الوِثاقِ

وكتب أبو الحسن علي بن مرشد إلى أحد أصدقائه أبياتاً، عبّر له فيه عن ودّه وشوقه إليه، وقد اعتبره أنيس نفسه في قربه وبعده يقول^(١):

ما فُهِتُ مع متحدثٍ متشاغلاً — إلا رأيْتُكَ خاطراً في خاطري

ولو استطعت لزرت أرضك ماشياً — بسواد قلبي أو بأسود ناظري

وبثّ الشعراء همومهم وشكواهم إلى أصدقائهم، فقد أرسل عز الدين فروخشاه إلى أحد أصدقائه مقطوعة يصور فيه أرقه من هموم غربته يقول^(٢):

عَرَّتْنِي هُمُومٌ أَرَقَّتْنِي لِعُظْمِهَا — كما يَأْرُقُ الصَّبُّ الْكَنْيَبُ مِنَ الْوَجْدِ

ولا بُدَّ أن أدعو شقيقاً يزيلُها — فإن تَسْتَجِبْ يابنَ الرَّشِيدِ فَمِنْ رُشْدِي

ومن المواضيع الشعرية التي حملتها رسائل الأصدقاء، اللوم والعتاب، فقد أرسل مكين الدولة حميد بن منقذ إلى أحد أصدقائه أبياتاً يعاتبه عتاباً رقيقاً، ينم عن حرصٍ للإبقاء على المودة بينهما^(٣):

أدنو بودي وحظي منك يبعدني — هذا لَعَمْرُكَ عَيْنُ الْغَبْنِ وَالْغَبْنِ

وإن توخيتني يوماً بلائمة — رجعت باللوم إبقاءً على الزمن

وحسنُ ظني موقوفٌ عليك فهل — غيرت بالظنّ بي من رأيك الحسن

وتبادل الشعراء في إخوانياتهم إلى أصدقائهم الاستفسار عن صحة الصديق، والوقوف إلى جانبه، والدعاء له، فقد كتب تاج الدين الشهرزوري

(١) العماد الاصفهاني، الخريدة (قسم الشام) : ٥٥٠/١.

(٢) المصدر نفسه، (بداية قسم الشام) : ١١٦.

(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء : ٥٨٩/٢؛ انظر الابيات ابن منظور، تهذيب تاريخ

دمشق لابن عساكر : ٤٦٧/٤.

أبياتاً رد فيها على مكاتبة لعلم الدين الشاتاني^(١) الذي بثه شكواه من أمر صحته فأجابه بقصيدة، عبّر من خلالها عن تمنياته له بالشفاء، ومشيداً بفضائله التي تجلّ عن التعداد يقول^(٢):

حُوشِيَتْ يَا عِلْمَ الدِّي—	—نِ يَا فَتَى الْأَمْجَادِ
مَمَّا يَسُوءُ مَوَالِي—	—كَ أَوْ يَسُرُّ الْأَعَادِي
وَالْعَدِي مَا جَنَّتْهُ—	شُلَّتْ ، يَدُ الْفَصَّادِ
حَوَيْتَ وَحَدَّكَ فِيْنَا—	فَضَائِلَ الْآحَادِ
تَضَاعَفَتْ فِيكَ حَتَّى—	جَلَّتْ عَنِ التَّغْدَادِ
لَأَنْتَ مِنْ خَالِصِ الْقَلْبِ—	بِ فِي صَمِيمِ الْفَوَادِ
وَأَنْتَ أَشْهُى إِلَى الْعَيْنِ—	—نِ مِنْ لَذِيذِ الرُّقَادِ

وكتب القاضي أبو اليسر المعريّ إلى العماد الأصفهاني، مستفسراً عن صحته وقد دعا له بالصحة والعافية^(٣):

كَيْفَ أَمْسَيْتَ بَعْدَ شَرْبِ الدَّوَاءِ—	يَا سَكِيلَ الْأَبْدَالِ ^(٤) وَالنُّجَبَاءِ
دَفَعَ اللَّهُ عَنْكَ مَا تَتَوَقَّى—	مِنْ جَمِيعِ الشُّرُورِ وَالْأَدْوَاءِ
إِنَّ قَلْبِي عَلَيْكَ مِنْذُ افْتَرَقْنَا—	مُشْفِقٌ مِنْ كِرَاهَةٍ فِي الدَّوَاءِ
غَيْرَ أَنِّي أَرْجُو مِنْ اللَّهِ أَنْ تُغْ—	قَبَ مِنْهُ بِصِحَّةِ الْأَعْضَاءِ
وَدُعَائِي وَاصِلَتُهُ لَكَ، وَاللَّ—	هُ جَدِيرٌ بِأَنْ يَجِيبَ دِعَائِي

وكتب أمين الدين ياقوت من الموصل إلى ابن العديم يمدحه ويسترفده خطه؛ فأجابه ابن العديم كمال الدين بقصيدة، عبّر له فيها عن إعجابه بأبياته،

(١) علم الدين الشاتاني ، الحَسَنَ بن عليّ بن سعيد بن عبد الله ، توفي سنة (٥٧٩هـ) ،

انظر الصفدي ، الوافي بالوفيات : ١٧٥/١٢ ، ١٧٦ .

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشّام) : ٣٤٠/٢ - ٣٤٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٥/٢ .

(٤) الأبدال : الأولياء والعباد .

منوهاً بمحاسن رسالته التي أعادت إليه الصحة ودفعت عنه المرض، ثم
يمدحه ويدعو له^(١):

وَمَنْ جَعَلْتُ لَهُ أَحْشَايَ أَوْطَانًا	يَا مَنْ أَبَحْتُ حِمَى قَلْبِي مَوَدَّتَهُ
وَالْفَضْلُ لِلْمُبْتَدِي بِالْفَضْلِ إِحْسَانًا	أَرْسَلْتَ نَحْوِي أَيْبَاتًا طَرِبْتُ بِهَا
كَشَارِبِ ظِلِّ الصَّهْبَاءِ نَشْوَانًا	فَرُحْتُ أَخْتَالُ عُجْبًا مِنْ مَحَاسِنِهَا
مَنْ الْبَلَاغَةِ وَالتَّرْصِيعِ أَلْوَانًا	رَقَّتْ وَرَاقَتْ فَجَاءَتْ وَهِيَ لَابِسَةٌ
بِأَحْرِفِ حَسُنْتَ رَوْضًا وَبَسْتَانًا	حَكَتْ بِمَنْثُورِهَا وَالنَّظْمِ إِذْ جُمِعَا
إِذْ أَصْبَحْتَ وَهِيَ تَكْسُو الْحَسَنَ حَسَانًا ^(٢)	جَرَّتْ عَلَى جَرُولِ أَثْوَابِ زِينَتِهَا
بَنُوا اللَّقِيطَةَ مِنْ ذُهِلِّ بْنِ شَيْبَانَا	أَضَحَتْ تَغَبَّرُ وَجَهَ الْعَنْبَرِيِّ فَمَا
يَحْكِي أَبَاهُ بِمَا عَانَاهُ نُقْصَانَا	يُمْسِي لَهَا ابْنُ هَلَالٍ حِينَ يَنْظُرُهَا
عَبْدًا يَجْرُ مِنْ التَّقْصِيرِ أَرْدَانَا	كَذَاكَ أَيْضًا لَهَا عَبْدُ الْحَمِيدِ غَدَا
فَغَادَرْتَهُ صَحِيحًا خَيْرَ مَا كَانَا	أَنْتَ وَعَبْدُكَ مَغْمُورٌ بَعْلَتَهُ
وَهِيَ الصَّبَا حَمَلَتْ رَوْحًا وَرِيحَانَا	وَكَيْفَ لَا تَدْفَعُ الْأَسْقَامَ عَنْ جَسَدِي
وَشَى الطُّرُوسَ بِمَنْظُومٍ وَمَنْ زَانَا	فَاسْلَمْ وَأَنْتَ أَمِينُ الدِّينِ أَحْسَنُ مَنْ
حَلَّتْ بِرَبْعِكَ يَا أَعْلَى الْوَرَى شَانَا	وَلَا تَخْطُتْ إِلَيْكَ الْحَادِثَاتُ وَلَا

(١) ياقوت الحموي ، معجم الأدياء : ٤٥٩/٤ .

(٢) حسان بن ثابت ، شاعر مخضرم من شعراء الدعوة الإسلامية .

الفخر:

يمكن أن نقسم شعر الفخر الذي توافر لدينا إلى نمطين: الفخر بالفروسيّة والشجاعة، وقد أشرنا إلى جانب منه في شعر الجهاد، والفخر بقضايا اجتماعية متفرقة شملت الفخر بالنسب والحسب، والسجاياء الحميدة، والعلم والمعرفة، والأدب، وقد حصرت بعض الأسر الشّاميّة فخرها بالنمط الثاني، فخلا فخرهم من صليل السيوف على نحو ما نجد عند بني العديم، ولعل ميلهم إلى العلم وانشغالهم بالقضاء والحكم بين الناس أبعدهم عن ساحات القتال، الأمر الذي أبعدهم عن الفخر الحماسي، وأبرز شعراء هذا الغرض ، كمال الدين ابن العديم.

واتخذ ابن العديم من المثل العليا والسّجاياء الحميدة لأسرته موضوعاً لفخره، مشيراً إلى عراقية نسب أسرته التي تترد إلى بني عامر، ومنوّهاً بالمكانة الرفيعة التي يتبوأها أفراد هذه الأسرة في القضاء والعلم، والبلاغة والفصاحة، فغدت مثلاً حق له أن يفخر به من ذلك قصيدته التي مطلعها^(١):

سألزم نفسي الصّفح عن كلّ من جنى عليّ وأعفو حسبةً وتكرّماً
ومنها :

أولئك قومي المنعمون ذوّ النهي بنو عامرٍ فاسأل بهم كي تعلّما
إذا ما دُعوا عند النوائب إن دجت أنا رُوا بكشف الخطب ما كان أظلماً
وإن جلسوا في مجلس الحكم خلّتهم بدورٍ ظلامٍ والخلّاق أنجما
وإن هم ترقّوا منبراً لخطابةٍ فأفصح من يوماً بوعظٍ تكّما
وإن أخذوا أقلامهم لكتابةٍ فأحسن من وشى الطروس ونمنا

(١) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء : ٤/٤٦٢، ٤٦٣.

وتتوالى أبيات القصيدة مشيدة بهذه الأسرة الكريمة، التي شغل معظم أفرادها منصب القضاء، مشيراً إلى تدين أسرته وتمسك أفرادها بالشرعية الإسلامية، فهم يستنبطون أحكامهم من معينها، كما حباهم الله بكرامات أوليائه الصالحين فبدعائهم يفرّج الله الكرب، وينزل قطر الماء من السماء:

بأقوالهم قد أوضح الدرّ واعتدى	بأحكامهم علم الشريعة مُحكما
دَعَاوُهُمْ يَجْلُو الشَّدَائِدَ إِنْ عَرَّتْ	وينزل قطر الماء من أفق السّما
وقائلة يا ابنَ العديم إلى متى	تجودُ بما تحوي ستصبحُ مُعذّما
فقلتُ لها: عني إليك فإنني	رأيتُ خيارَ الناسِ مَنْ كان منعما
أبى اللّؤمَ لي أصلٌ كريم وأسرّة	عُقيليّةٌ سنّوا النّدى والتكرّما

كان ابن العديم يفضل المناقب الحسنة والفضائل على المال الزائل، ويفخر بذلك^(١):

وما ضرّتي أَنْ كُنْتُ رَبّاً فَضَائِلِ	وعلم عزيزِ النّفسِ حُرّاً مُعظّما
إِذَا عَدِمْتُ كَفَّايَ مَالاً وَثَرَوَةً	وقد صُنْتُ نَفْسي أَنْ أَدَلَّ وَأَحْرَمَا
ولم اِبْتَدَلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي	لأُخْدَمَ مِنْ لَأَقِيْتُ لَكِنْ لَأُخْدُ مَا

ومن الشعراء الذين افتخروا بحسبهم ونسبهم، الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر سليل ملوك بني أيّوب^(٢):

يا مَنْ يُبَارِينِي وَيَذْكُرُ اسْمِي	إني من قومٍ كرامٍ شَم

ومنها:

أيّوبُ جدّي يا سديدَ الفهم	ويؤسّفُ خيرُ البرايا عَمِي

(١) ياقوت الحموي مُعجم الأدياء : ٤/٦١١

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٤/٨٣ ، ٨٤.

ومن محلي في الوري وعظمي
من مثلنا في عربها والعجم
ويتغنى الملك المنصور بأصله الذي لم ينله عربي ولا أعجمي، فهو من
آل شادي الذين تميزوا بالعلم والأدب يقول:

وكل فخر سوى فخري فمختلق
أنا الذي لم ينل من ذا الوري أحد
سموت فيهم بأصل لا يقاومه
بآل شادي ملوك الناس كلهم
أيوب جذي حقيقاً حين ينسبني
نحن الملوك الذرى والناس كلهم
كم قد أبدت بسيفي كل مفتخر
زور وقائله ينمي إلى الكذب
ما نلته قط من عجم ومن عرب
أصل ومن بعده بالعلم والأدب
أكرم بذلك من مجد ومن حسب
يا حسنها رتبة تعلو على الرتب
لنا عبيد وليس الرأس كالذنب
حامي الحقيقة يوم الجحفل اللجب

ويفخر الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر، بسجاياه الحميدة
التي تتمثل بالكرم والجود، وذلك إذ يقول^(١):

يا ملكاً من يديه يدي
ومن غدا بابيه يسمي
أحيا الوري جوده فأضحى
قد بذل الجود منه حتى
فصيفه صيفنا ولكن
أسنى الوري محتداً وفرعاً
بذل نداه بلا نداء
لمرتجيه باب الرجاء
في وجهه رونق الحياء
تخلل الجود بالعباء
في كفه ديمة الشتاء
فقد تعدى حد السناء

(١) ابن واصل، مفرج الكروب : ٨٤/٤.

وأخذ الشعراء من إتقانهم للفنون والأدب مجالاً للفخر، فهذا أبو البركات عبد القاهر بن أبي جرادة اختار الخط ليُخلد ذكره من خلاله فقال مفتخراً بخطه^(١):

خطاً أخلدُ منه في الكتبِ	ما اخترتُ إلاَّ أشرفَ الرُّتبِ
فَنَرَى مَحَاسِنَ صَوْرَةِ الْأَدَبِ	وَالْخَطُّ كَالْمِرَاةِ نَنْظُرُهَا
إِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا هُ مِنْ حَسَبِ	هُوَ وَحْدَهُ حَسَبٌ يُطَالُ بِهِ
حَتَّى جَرَى فَكَتَبْتُ بِالذَّهَبِ	مَا زِلْتُ أَنْفَقُ فِيهِ مِنْ ذَهَبِ

وفي مجال الفخر بالأدب نجد شعراء افتخروا بنظم القريض، ولعل أبرز من فخر بذلك الملك الأمجد بهرام شاه، وهو من أرباب السيف والقلم فقال مفتخراً^(٢):

حنانيك ما أحيا فؤاداً وأشعرا	نظيمٌ إذا ما حكته قالت النهي
فيا ليتهم نالوا عن قربه الثرى	ونلتُ من الشعر الثريا تطاولاً
وأحرزتُ منه رائق الورْدِ كوثرًا	تركت لأهل الشعر ضحضاح مائه

(١) ياقوت الحموي ، مُعْجَم الْأَدْبَاء : ٤٤٠/٤ .

(٢) الملك الامجد بهرام شاه ، ديوانه : ٣٤٠ .

رثاء الأهل والأقارب :

يذهب ابن رشيق القيرواني إلى أن الرثاء والمدح ليس بينهما فرق إلا أن يُخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميتاً مثل: " كان " وما يشاكلها و " سبيلُ الرثاء أن يكون ظاهر التفجع، بين الحسرة، مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام " (١).

وكان شعراء الأسر الشاميّة كلّما تخطف لهم الموت قريباً، فجعوا به وبكوه بكاءً حاراً وأبرز هؤلاء الشعراء: أسامة بن منقذ الذي تعددت آلامه؛ ففقد ابنه أبا بكر صغيراً، وفقد أهله وذويه في الزلزال الذي ضرب شيزر سنة (٥٥٢هـ)، كما فقد عدداً من الأهل فرثاهم في ديوانه، ولعلّ مرأثيه لابنه من أصدق ما قاله في رثاء أهله وذويه، وهي تشترك جميعها في إظهار حزنه ولوعته وعمق فجيعة التي ولدت لديه الكآبة والأسى، وفجرت في عينيه الدموع، على شاكلة قوله يستحضر ابنه الفقيد (أبا بكر) ويبثّ لواعج قلبه، وأحزان فؤاده، حتّى صار يعيش في كآبة مطلقة، وقلق مستمر (٢):

وكنْتُ أَظُنّ الدَّمْعَ يُبْرِدُ غُلَّتِي	إلى أن بدا لي أن دمع الأسى جمرُ
أبا بكر، ما وجدي عليك بمنقَضٍ	طوال الليالي، وما انقضى اليوم والشهرُ
أطلت عليّ الليل، حتّى كأنّما	زمانِي ليلٌ كلّها، ماله فجرُ
وإنّي لأستدعي الكرى، وهو نافرٌ	به من جفوني أن يلمّ بها دُعرُ

ويتأنّى الشاعر المفجوع بابنه، فيصور مأساته به، وحزنه الكبير عليه، وتوزع نفسه، واضطراب حياته، وكيف أنّه يلوذ بالوهم لعله يجد

(١) ابن رشيق القيرواني ، العمدة : ٢ / ٨٠٥.

(٢) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ٣٤٨.

فيه مستراحاً له، غير أنه يستيقظ على حقيقة مريرة، وهي أنه لا سبيل إلى اللقاء في هذه الدنيا^(١).

أحدث عنك بالسُّلوانِ نفسي
إذا ناجيتها بالصَّبرِ حنتُ
إذا نظرتُ إليه أنكرتُهُ
ولي في الموتِ يأسٌ مُستبينٌ
أحنُّ إلى أبي بكرٍ، ومَا لي
وَهَلْ تَسْلُو مَوْلَهةً تُكولُ
كما حنَّتُ إلى بَوٍّ عَجولُ
وتعطفُها الصَّبَابَةُ والغليلُ
ولكن حَالٌ وَجدي لا تحولُ
إلى رؤياهُ في الدُّنيا سبيلُ

وقد أسلمه موت ابنه إلى التأمل في المصير، فيصور في أبيات التي هي أشبه ما تكون بالبوح الذاتي والنجوى الداخلية، ما يدور في نفسه عندما رزق بهذا الابن، والأب كبير السن، وكيف أنه كان يخشى اليتيم عليه، غير أن يد المنون امتدت إليه قبله، فيتمنى الأب لو اختطفته هذه اليد بدلاً منه، وذلك إذ يقول^(٢):

إلى الله أشكو روعتي^(٣) ورزيتي
خلا ناظري منه وكان سواده
خشيت عليه اليتيم، لكن ثكله
فيا ليته لاقى الذي كنت أختشى
وحرقة أحشائي لفقد أبي بكر
ولم يخل من حزني ووجدني به صدري
ولوعته لم يخطرا لي على فكر
عليه، وأنى دونه صاحب القبر

ومن الشعراء الذي رثوا أبناءهم أبو يعلى حصين المعري؛ فقد عبّر في مقطوعة قالها عن أحزان أبويّه صادقة، ولوعة بالغة، مثل فيه طيف ابنه وقد زاره في منامه، ممّا عمق إحساسه بالفقد، يقول^(١):

(١) أسامة بن منقذ، ديوانه : ٣٥٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣٤٧.

(٣) الروعة : الفزعة .

أهلاً بطيف خيالك المعتاد شقَّ التُّرابَ إلى شِقِّ فؤادي
أهدى الثرى لي في الكرى شخصاً له أهديته حملاً على الأعواد
شَتَانَ بين الحالتين قبرته في يقضتي، ونشرته برقادي
ومصائبُ الآباء بالآحاد إن يوجد لها جَلَدٌ ففي الآحاد

ورثي الشعراء آباءهم من ذلك ما رثي به القاضي أبو المجد محمد
بن عبد الله والده واصفاً ألمه وحزنه العميق ودموعه حتى لامه الناس
على ذلك يقول^(٢):

طَرَفِي مِنْ بَعْدِكَ مَطْرُوفُ وَدَمْعُهُ لِلْبَيْنِ مَذْرُوفُ
يَلُومُنِي النَّاسُ عَلَى أَنْتِي بَطُولِ حُزْنِي بِكَ مَشْغُوفُ
وَالدَّمْعُ لَا يَمْنَعُ مِنْ فَيْضِهِ عَذْلٌ وَلَا يَرُدُّعُ تَغْنِيفُ
فَلْيَجْزَعْ النَّاسُ عَلَيْهِ فَقَدْ أَسْلَمَهُمُ اللَّجَّةُ السَّيْفُ^(٣)

ورثي أبو حصين المعري والده الذي مات في الحج بمقطوعة
قصيرة تعبّر عن إحساسه بالفقد^(٤):

دَمٌّ فَوْقَ صَدْرِي وَكَفُّ مِنْ الْجَفْنِ لَمَّا ذَرَفُ
لَفَقْدَانٍ مَنْ لَا أَرَى يَدَا الدَّهْرِ مِنْهُ خَلْفُ
لَمِيتٍ غَدَا ثَاوِيًّا بِطَيْبَةٍ بَيْنَ السَّلَفِ

ورثي النعمان بن وادع التتوخي أباه المدفون بالمعرّة، مصوراً نبلاً
أخلاقه داعياً له بالرحمة والمغفرة فقال^(١):

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٦١/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٣/٢ .

(٣) السيف : الساحل .

(٤) الصفدي، الوافي بالوفيات : ١٧ / ٤٢٢

سقى الله قبراً بالمعرة مفرداً سحاباً من الغفران ليس بمقلع
ثوى من بلاد الله في خير بقعة وأودع فيها وادعاً خير مودع
فتى شغلت أخلاقه ثم خلقه بها عن سواها كل مرأى ومسمع

غير أن التيار العاطفي في القصيدة يكاد يختفى عندما يأخذ الشاعر
في ذكر قبور أجداده السابقين، بحيث تغدو القصيدة ضرباً من الحديث
عن مآثر الآباء والأجداد:

وحياً قبوراً بالمقبرة التي حوت من تنوخ كل قرم سميدع
وخص به الشيخ النبيه أبا العلا أبا العلم، ترب المجد، حلف التورع
وثانيه عبد الله جدي فقد مضى كريم المحيا أروعا وابن أروع

ورثى أبو حامد محي الدين الشهرزوري والده بقصيده تحمل
معاني التفجع على الأب الفقيد، أولها^(٢):

ألموا بسفحي قاسيون فسلموا على جدث بادي السنّا وترحموا
ويتقمص الشاعر صوت الرجل الحكيم حين يسلي نفسه بضرب

الأمثال في العظة الزائلة التي لم تستطع أن تواجه الموت :
فأين ملوك الأرض كسرى وقيصر
كأنهم لم يسكنوا الأرض مرة ولم يأمروا فيها ولم يتحكموا

ويصور الشاعر حزن أهل دمشق عامة عليه ومصابهم به، نظراً
لما كان يتحلى به من خلال حميدة وخصال كريمة، حتى كان لهم بمنزله
الأب في حنوه وبره وعدله:

لقد عدمت منك البرية والداً أحن من الأم الرؤوم وأرحم

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٤١/٢ - ٤٢

(٢) المصدر نفسه : ٣٣٦/٢ - ٣٣٩.

وكلّهم مثلي عليك مُحَرَّقٌ
ولا سيّما إخوانُ صدقٍ بجلّق
وليس عجباً شكرهم لك بعدما
وما زلت فيهم مذ وليت عليهم
وكم ليلة فيها سهرت لحفظهم
نشرت لواء العدل فوق رؤوسهم
لقد عظمت بالرغم فيك مصيبتني

وباك ومسلوبُ العزاء ومُغرّم
هم في سماء المجد والجود أنجم
فضلت عليهم بالندى وهم هم
تفدّ أياديك الجسام وتتنم
وهم عنك في خفض من العيش نُوم
فما كان منهم من يضام ويظلم
وإن ثوابي لو صبرت لأعظم

وينتقل الشاعر إلى وصف أحزانه الذاتية، وكيف أنه لم يستطع ان
يتجمل بالصبر؛ لأنّ ما أصابه أمرٌ عظيم:

وكيف أرجي الصبر والقلبُ تابع
لأمر الأسى فيما يقول ويحكم
وما الصبر إلا طاعة غير أنّه
على مثل رزني فيك وزرّ ومأتم

ورثى الشعراء إخوتهم، فقد رثى مكين الدولة حميد بن مالك بن
منقذ أخاه يحيى بمقطوعة شعرية تظهر حزنه ووجده عليه، ويتحدث فيها
عن فضائل أخيه الذي كان متميزاً بالقوة والشجاعة^(١):

بالشّام لي جدّث وجدّث بفقدّه
وجداً يكاد القلبُ منه يذوبُ
فيه من البأس المهيّب صواعقُ
تُخشى ومن ماء السّماح قليبُ
فارقت حتّى حنّ صبري بعدّه
وهجرت حتّى النوم وهو حبيبُ

(١) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، لابن عساكر: ٢٧٦/٧

كما رثى تاج الملوك بوري أخاه الملك المعظم توران شاة المتوفي
سنة (٥٧٦هـ) بغير ما قصيدة^(١)، وقد صور الشاعر جزعه بعظم
مصابه ومن ذلك قصيدته التي مطلعها^(٢):

جارَ الزمانُ، وقلَّ فيه ناصري فَمَنْ المُجِيرُ من الزَّمانِ الجائرِ؟
ويصور الشاعر عظم المصيبة التي ألمَّت به، وجزعه على فراق
أخيه، فقد خبا نور الشمس، وغدت الدنيا ظلاماً وانشقت الأرض، وغاب
ضياء القمر المنير:

يا للرجالِ لنكبةٍ قد أذهبتُ جَلَدَ الجليدِ، وحُسْنَ صبرِ الصَّابرِ
طَرَقَتْ فتى المَلِكِ المعظمِ فانثنى من بعد بهجتهِ، كربِ دَائرِ
شمسٌ لدولتنا خَبَتْ أنوارُها بعد الضيَّاءِ، وكان نورَ النَّاظِرِ
جَبَلٌ هوى فارتجتِ الدنيا له فكأنَّما رَكِبَتْ جَنَاحِي طائرِ
قد كُورَتْ شمسُ النهارِ لفقدِه وخبا سنا القمرِ المُنيرِ الباهرِ

وتحت وطأة الإحساس العميق بعظم المصيبة والحزن الشديد لفقد
الأخ النصير، أخذ الشاعر يُعدد مآثر أخيه بأسلوب يجمع بين صدق
العاطفة وحرارة الإنفعال:

من للعُفاةِ تَعْمُهُم من بعده من راحتِه بكلِّ جودٍ غامرٍ؟!
مَنْ للنوائبِ يوم تفترسُ الورى قسراً بأنيابِ لها وأظافرٍ؟!
من للدوائرِ إذ تدورُ صُرُوفُها في الناسِ، والأيامُ ذات دوائرٍ؟!
إزاء ذلك لا يجد الشاعر سبيلاً إلا الاستسلام:

لو كان خَصْمُكَ غيرَ حادثِه الردى لَرَدَدْتُه بذوايلٍ وبواترِ

(١) انظر تاج الملوك بوري ، ديوانه : ١٦٩ ، ١٨١ ، ٢٠٤ .

(٢) المصدر نفسه : ١٦٩-١٧٣ .

أو كان يُدرك ثأرُ مَنْ أودى به رَيْبُ المُنُونِ لَكُنْتُ أَوَّلُ ثَائِرِ
لكنَّهُ الموتُ الذي قَهَرَ الـوَرَى من حيث لا تُغْنِيهِ قُدْرَةُ قَادِرِ

وعندما لم يجد الشاعر سبيلاً للتعلل والسلو عن فقد أخيه، يجد

عزاءه بالمليك الناصر صلاح الدين فيستريح لوجوده:

أَقْسَمْتُ: لو أُعْطِيتُ رِزْءَكَ حَقَّهُ لَغَرَقْتُ في بحر الدُمُوعِ الزَّاخِرِ
ولَكُنْتُ أَوَّلَ لَاحِقٍ بِكَ حَسْرَةً لولا التَّسْلَى بالمليكِ النَّاصِرِ

وتتراءى لنا صورة الملك الناصر صلاح الدين من خلال قصيدة

الرثاء وكأنَّ الشاعر يقول: إذا كان الملك توران شاه قد ذهب فإن الملك
الناصر ما زال حيًّا فيه السلو والعزاء:

إن كان ذاك السَّيْفُ فُلًّا، فما نَبَا الحدَّانِ من هذا الحُسامِ الباتِرِ
أو كان ذاك البحرُ غَاضًا، فما رَقَى ما فاض من هذا الغمامِ الماطرِ

ورثى أبناء منقذ وعلى رأسهم أسامة أهلهم وأقاربهم الذين هلكوا
في زلزال شيزر سنة (٥٥٢هـ)؛ فقد أثار هلاك الأهل جميعاً في هذه
الزلازل إحساساً عميقاً بالفجيعة، فبكاهم أسامة في أشعاره بصدق
وحرارة، ومن القصائد التي رثى بها قومه قصيدته التي افتتحها بـ^(١):

حمائم الأيِّك هيَجتن أشْجَاناً فليبيك أصدقنا بثاً وأشْجَاناً

والقصيدة في جملتها تعبر عن انفعالات وجدانية تتلاءم وفجائية
الحدث وعنف الصدمة، وجاءت هذه الانفعالات على شكل نوبات متتالية
من الحزن، فقد استهلها الشاعر بمشهدٍ باكٍ رمز فيه إلى عواطفه
الحزينة، بحال الحمائم التي طال بكأؤها على (الهديل)، ولم تتمكن

(١) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ٣٥٦-٣٥٩؛ انظر: القصيدة، شفيق الرقب، ظاهرة الحزن

في شعر أسامة بن منقذ ، مجلة دراسات ، العلوم الانسانية والاجتماعية ، م٢٤ ، ع٢٤ ،

الجامعة الاردنية ، ١٩٩٧م.

السنون المتطاوله من أن تطفئ وقده الحزن التي تضطرم في أفئدتها، بل
إن الشاعر يرى أن أحزانه أعمق من أحزانها وأشد لوعة:

كم ذا الحنين على مر السنين؟ أما	أفادكن قديم العهد نسيانا
هل ذا العويل على غير الهديل وهل	فقيدكن أعز الخلق فقدانا
ما وجد صادقاً في كل شارقة	ترجع النوح في الأفنان ألحانا
كما وجدت على قومي تخونهم	ريب المنون ودهر طال ما خانا

ويعرض أسامة بعد ذلك معاني تعبر عن إحساسه بهول المصيبة
التي ألمت به، فهو لا يجد مجالاً للصبر والتأسي لأنه تفرد في هذا الحدث
من وجهين:

الأول - أن قومه أبيدوا في كارثة جماعية، والثاني - أنه لم يجد أحداً
يشاركه همومه، ويتحمل معه ثقل الفاجعة :

قالوا: تأس، وما قالوا بمن، وإذا	أفردت بالرزء ما أنفك أسوانا
ما حدثتني بالسّلوان بعدهم	نفسى، ولا حان سلواني ولا آنا
ما استدرج الموت قومي في هلاكهم	ولا تخرمهم مثلى ووحدانا
فكنت أصبر عنهم صبر محتسب	وأحمل الخطب فيهم عزاً أو هانا
لكن سقب المنايا وسط جمعهم	رغا، فخروا على الأذقان إذعانا

وقد ولدت كارثة الزلزال شعوراً بالهدم الحضاري في نفس أسامة،
لذا فقد ألحت على وجدانه مشاهد (الموت الجماعي) والدمار الشامل ،
فتحدث عنها في كثير من أبيات القصيدة، كما في قوله يصور قصور
قومه وقد ردمتها الزلازل قبوراً لهم :

لم يترك الموت منهم من يخبرني	عنهم، فيوضح مالا قوه تبياناً
بادوا جميعاً وما شادوا، فواعجباً	للخطب، أهلك عماراً وعمرانا
هذي قصورهم أمست قبورهم	كذاك كانوا بها من قبل سكّانا

ويصف الشعر - في معرض حديثه عن إخوانه - الدهول الذي انتابه بعد الحادث المؤلم، والحرق التي اشتعلت في قلبه، وإحساسه بالوحدة والغربة النفسية بعد موت قومه، متمنياً لو أنه مات معهم، أو أنهم بقوا على قيد الحياة، متحملاً منهم العقوق والإساءة:

وَيْحَ الزَّلَازِلِ، أَفْنَتَ مَعْشَرِي، فَإِذَا	ذَكَرْتُهُمْ، خِلْتَنِي فِي الْقَوْمِ سَكَرَانَا
بَنِي أَبِي، إِنْ تَبِيدُوا، أَنْ عَدَا زَمَنٌ	عَلَيْكُمْ دُونَ هَذَا الْخَلْقِ عُدَوَانَا
فَلَنْ يَبِيدَ جَوِي قَلْبِي وَلَا كَمَدِي	عَلَيْكُمْ أَوْ يُبِيدَ الدَّهْرُ ثَهْلَانَا
أَفْسَدْتُمْ عَمْرِي الْبَاقِي عَلَيَّ، فَمَا	أَنْفَكْ فِيهِ كَنْيِبَ الْقَلْبِ وَلَهَانَا
فَلَيْتَنِي مَعَهُمْ، أَوْ لَيْتَ أَنَّهُمْ	بَقُوا، وَمَا بَيْنَنَا بَاقٍ كَمَا كَانَا

وهذا الإحساس بالوحدة أسلم الشاعر إلى بكاء المناقب التي طويت بموت قومه، وقد أطلال في ذلك على نحو يدل على شعوره بفداحه الخطب والتلم الذي أصيب به؛ لذلك ركز الشاعر في هذه الصفات على معاني القوة، ونصرة المظلوم، وإيواء الأيتام، وإغاثة الأرامل والبائسين. بل إن أسامة عبّر في قصيدته عن مخاوفه بعد مصرع قومه تعبيراً مباشراً: فقد كان يستمد القوة والعزم منهم، ولكنه صار بموتهم ضعيفاً لا يجد من يستقوي به، أو يعتمد عليه:

كَانُوا جَنَاحِي، فَحَصَّتْهُ الْخُطُوبُ،	وَإِخْوَانِي، فَلَمْ تَبْقَ لِي الْإِيَّامُ إِخْوَانَا
كَانُوا سَيْوُفِي، إِذَا نَازَلْتُ حَادِثَةً	وَجُنَّتِي، حِينَ أَلْقَى الْخُطْبَ عُرْيَانَا
بِهِمْ أَصُولٌ عَلَى الْأَمْرِ الْمَهُولِ إِذَا	عَرَا، وَأَلْقَى عَبُوسَ الدَّهْرِ جَذَلَانَا

وفي موضع آخر يسلي نفسه بحتمية الموت، وأن الكل إلى زوال، ويستعير لذلك صورة المسافرين الذين سيلحق آخرهم بأولهم، يقول^(١):

وَعَلَامَ الْأَسَى؟ وَنَحْنُ كَسَفَرٍ بَعْضُنَا سَائِرٌ، وَبَعْضٌ نَزُولُ

(١) أسامة بن منقذ، ديوانه: ٣٥٣.

عرّس الأولون، والآخر التّا لي إليهم عما قليل يُؤولُ
وإلى حيثُ عرّس السلفُ الأوّ لُ ميعادُنّا، ومنه القفُولُ

رثى شعراء الأسر الشّاميّة النساء بقصائد قليلة جداً، ولم أجد ضمن
حدود ما أطلعت عليه من شعر الأسر الشّامية سوى قصيدتين عند الملوك
الشعراء من بني أيّوب، إحداهما قالها الأمجد بهرام شاة يرثي بها والدته
مطلعها^(١):

ليبيج^(٢) الدهرُ لما ردّني جزعا وكنتُ جلدًا على أحداثهِ مَصعا^(٣)

وقد عبّر فيها عن مشاعر البنوة الصادقة، مُصوراً لوعته البالغة
وحسرتة المضنية منها:

يا أمّاه، وكم في الناس من رجلٍ مثلي يكابدُ من أحزانه وجعا
مرزءٍ ذاقَ طعمَ الثكلِ منذهلٍ مثلي تجرّعَ منه الصّابَ والسّعا
لولاهم لقتلتُ النفسَ من شجنٍ عليك، أو لذمتُ الأزلَمَ الجذعا^(٤)
سقى ضريحك من عينيّ منبجسٍ إنْ أمسكَ القطرُ عن تسكابه همعا
فإنّ دمعِي بسُقيا تربه قمّنٍ سقى زمانك هطّالَ الحيا، ورعى
دمعٌ يفيضُ، وأحشاءٌ مُقلقلةٌ إذا الحمامُ على بانٍ النقا سجعا

ورثى الملك الناصر داود الرّقة الزائلة؛ فقد رثى فتاة تدعى سعدى
بقصيدة انصرف فيها إلى الغنائية الحزينة، يبدو فيها الشاعر وقد فقد
التجلّد أمام أحلامه الجميلة التي فقدّها^(٥):

(١) الأمجد بهرام شاة ، ديوانه: ١٥٨ ، ١٦٠ .

(٢) يبيج: يفرح .

(٣) المصع : المقاتل المجالد .

(٤) الأزلَمَ الجزعا: الدهر .

(٥) الملك الناصر داود ، ديوانه: ٢٦١ - ٢٧٣ .

أيا رنة الناعي، بسعدى تأيدي
ورفقاً بمحزونٍ أُصيبَ بلُبه
المَّ به طيفٌ من الجنِّ طارقٌ
أعينيَّ جوداً ما تبقت حُشاشتي
فإنكما إن لم تجودا أخالها

* * *

على كبدٍ حرّى، وجفنٍ مُسَّهَدٍ
فأصبحَ موصوفاً بعقلٍ مُشَرَّدٍ
وقد كان ذا رأيٍ وقولٍ مُسَرَّدٍ
بدمعٍ كسكب العارضِ المترددِ
تقطَّعُ من حرِّ الأسى المتوقدِ

بكتك عظامي في قرارة ملحي

سأبكيك يا سعدى حياتي فإن أمت

الهجاء والشكوى :

وتطرق بعض شعراء الأسر الشاميّة لهجو أصدقائهم والمقربين منهم، وتحدثوا عن عيوبهم ومثالبهم، فهذا أسامة بن منقذ الذي لجأ لأسلوب التعميم لتصوير رذيلة البخل التي نعتها بالمرض الشائع بين الأنعام، إذ باتت الأكف مقفلة عن العطاء والرفد ، يقول^(١):

قل للرجاء : إليك قد	أتعبتني بعد الكرام
قد عم داء البخل، حتّ	ى شاع في كلّ الأنعام
فأكفهم بالبخل مقـ	فلة على سحت ^(٢) الحطام
فالأم ترتاد المـ	ل وترتجى ريّ الجهام ^(٣)

وذم أسامة صفة الغدر التي أبداهها صديق له كانت تجمع به في الماضي حسن مودة وصفاء، ثم صدّ عنه فقال^(٤):

صديق لي تنكّر بعد ودّ	وأُمّ الغدر في الدنيا ولودّ
أراه ملأه حسنى قبيحاً	فصدّ، وأيسرُ الغدرِ الصُدودّ
وذمّ اليوم ما حمّته مني	تجاربُهُ، وأمس به شهيدُ

ويهجو الملك عز الدين فروخ شاه رجلاً بقبح الأخلاق؛ كالخزي والعار واللؤم فقال^(٥):

(١) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ٣١٠.

(٢) السحت : الحرام .

(٣) الجهام : الحطام .

(٤) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ٢٩٨.

(٥) العماد الأصفهاني ، الخريدة (بداية قسم الشام) : ١١٧.

هذا أبو الخيرِ قد أضْحَى لَهُ خُلُقٌ كَمَادِرٍ ^(١) فَهَوَ لَا يَخْلُو مِنَ الْعَارِ
وَلَيْسَ يَرَوِي مِنَ الْأَشْعَارِ قَطُّ سِوَى قَالُوا لِأَمِّهِمْ: بُولِي عَلَى النَّارِ

واستغل الشعراء العيوب الخلقية، فهجا شمس الدين، القاسم بن عبد
الله الشهرزوري والده القبيح الوجه الذي يبدو كالبوم يجلب الهموم،
ويقابل ذلك صورة الشاعر كالقمرى يزيل الهم، وهي صورة طريفة لـ
(حسن الشخص ومعه والده قبيح المنظر)، يقول ^(٢):

آه مَا أَقْرَبَهُ لِلْـ أَنَسَ لَوْ كَانَ يَتِمَا
فَإِذَا مَا أَقْبَلَا، عَا يَنْتَ قُمْرِيًّا ^(٣) وَبَوْمًا
ذَا يَسْلَى الْهَمَّ إِنْ غَنَّا سَى وَذَا يُدْنِي الْهَمُومَا

ووقف عز الدين فروخشة الأيوبي عند أصحاب اللحي معرضاً بهم
بأسلوب مضحك على لسان صاحبها، ولعل الدافع إلى هجو اللحية كما
أشار أحد الدراسين هو " تعرية سلوك بعض الأشخاص الذين قد يبدو
مظهرهم المهيب - بفعل ما قد توحى به هذه اللحية من وقار وتدين
بخلاف مخبرهم السيئ" ^(٤)، يقول ^(٥):

(١) هو رجل من هلال بن عامر بن صعصعة يضرب به المثل في اللؤم والخزي ويقال
في المثل (الأم من مادر) سقى إبله فبقي في أسفل الحوض ماء قليل فمدر به بخلاً أن
يُشرب من فضله فحكم على أهله (بني هلال) بالخزي والعار ، ابن منظور ، لسان
العرب : ٥٤/١٣.

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٣٠٠/١ .

(٣) القمرى ، طائر يشبه الحمام ، ابن منظور ، لسان العرب : ٣٠٠/١١ .

(٤) مفلح الحويطات ، شعر الهجاء في مصر والشام زمن الحروب الصليبية ، جامعة
مؤتة، ١٩٩٩ : ٣٥

(٥) العماد الأصفهاني ، الخريدة (بداية قسم الشام) : ١١٧، ١١٨ .

بَكَيْتُ وَمِمَّا زَادَنِي عِنْدَ سَفَرْتِي مَلَامُ الْأَعَادِي لِي عَلَى صَبْنِ لَحْيَتِي
أَمْدُ لَصْبَاغٍ يُجِيدُ خَضَابَهَا قَذَالاً مَدِيداً عَرَضَ شَبْرٍ وَخُمْسَةٍ
وَمَا صَبَغُهَا سَهْلٌ عَلَيَّ، وَإِنَّهُ يَقُومُ عِنْدِي كُلُّ طَائِفٍ بِصَفْعِهِ
وَلَهُ أَيْضاً مَقْطُوعَةٌ أُخْرَى مَتَهَكِّمَةً بِصَيْغِ اللَّحْيَةِ، فَقَالَ (١):

مَنْ قَالَ إِنَّ رَجَاءً يَصْبُغُ ذَقْنَهُ تَبَا لَهُ ؛ بَلْ ذَاكَ مِنْ خَدْيِهِ
مَا تُصْبِغُ سَوْدَ عَارِضِيهِ وَإِنَّمَا وَجَنَاتُهُ نَفَضَتْ عَلَى لَحْيَتِهِ
اتَّخَذَ النَّقْدَ لَدَى شِعْرَاءِ الْأُسْرِ الشَّامِيَّةِ مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ الشُّكُوى

مِنْ الْأَقَارِبِ وَالْأَصْدِقَاءِ، وَلَعَلَّ تَضَارُبَ الْمَصَالِحِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْأُسْرَةِ
الْوَّاحِدَةِ غَذَّى جَانِبَ النِّزَاعِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَسَاءَتْ الْأَحْوَالُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الَّتِي
تُرْبِطُ بَيْنَ أَفْرَادِ الْأُسْرَةِ الْوَّاحِدَةِ، وَهَذَا أَسَامَةُ بْنُ مَنْقُذٍ عَبَّرَ شَعْرَهُ عَنْ
مَوْقِفِ أَقَارِبِهِ مِنْهُ وَحَسَدِهِمْ لَهُ، فَكَانَتْ قِصَائِدُهُ فِيهِمْ شَجِيَّةً يَمْتَزِجُ فِيهَا
الْعِتَابُ بِالشُّكُوى، وَمِنْ ذَلِكَ قِصِيدَتُهُ الَّتِي أَرْسَلَهَا إِلَى عَمِّهِ وَمَطْلَعِهَا (٢):

أَطَاعَ مَا قَالَهُ الْوَاشِي وَمَا هَرَقَا فَعَادَ يُنْكِرُ مَنَآكِلَ مَا عَرَفَا
وَيَذْكُرُ مِنْ خِلَالِهَا ظَلَمَ عَمِّهِ وَإِسَاءَتَهُ لَهُ، فَيَعَاتِبُهُ عِتَاباً رَقِيقاً يَشِي
بِحُبِّ صَادِقٍ فَيَقُولُ:

يَجْنِي، وَعِنْدِي لَهُ الْعُتْبَى، فَوَاعَجِبَا مِنْ مُعْتَبٍ مَا جَنَى جُرْمًا وَلَا اقْتَرَفَا
مَلَكْتُهُ طَائِعاً قَلْباً تَعَسَّفُهُ وَقَلَمًا يَمْلِكُ الْأَحْرَارَ مَنْ عَسَفَا
لِي مِنْهُ مَا سَاعَتِي: مَنْ هَجَرَهُ، وَلَهُ مَنِي الرِّضَا بِقَضَايَاهُ، وَإِنْ جَنَفَا
الْقَاهُ بَعْدَ التَّصَافِي مُعْرَضًا حَقَقَا وَبَعْدَ إِقْبَالِهِ بِالْوُدِّ مُنْحَرَفَا

(١) العماد الأصفهاني، الخريدة (بداية قسم الشام): ١١٨.

(٢) أسامة بن منقذ، ديوانه: ٧٧.

ويتحدث الشاعر عن سبب جفوة عمه له، ولاسيما أنه استمع
لزعزعة الأحاديث التي وافقت قلب عمه^(١):

أنته عني أحاديث مزخرفة ما إن بها عنه، وهو الألعى خفا
لكنها وافقت من قلبه ملاً لم يستبين صحة الدعوى، ولا كشفاً
ويعاتب أسامة عمه عتاباً رقيقاً يشف عن موقف عمه اتجاهه، وهو
موقف مبني على الظن وأقوال الحاسدين^(٢):

وأقصدتني سهام الحاسدين على فوزي بقربك حتى قرطسوا الهدفا
يبدو أن الشاعر أدرك موقف عمه الذي لم يستطع تغييره، فأخذ
يرسل الأشعار إلى أبيه يشكي إليه ظلم أقاربه، ولا سيما أبناء عمومته،
حتى ضاق صبره عن الاحتمال ومن ذلك قصيدته التي مطلعها^(٣):

لو أحسنوا في ملكنا أو اعتقوا لصفا لهم من ودنا ما رنقوا
ويبدو أن والد أسامة مرشد كان يدرك نظرة أخيه لأبنائه، ونستشف
ذلك من خلال قصيدته التي مطلعها^(٤):

ظلم أبت في الظلم إلا تماديا وفي الصد والهجران إلا تناهيا
ومنها يعاتب أخيه على ما بدر منه اتجاه أولاده، وكان يأمل غير
ذلك يقول مخاطباً له :

فمالك، لما أن حتى الدهر صغدي وثلم مني صارماً كان ماضيا
تنكرت حتى صار برك قسوة وقربك منهم جفوة وتناييا

(١) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ١٧٥ .

(٢) المصدر نفسه : ١٧٦ .

(٣) المصدر نفسه : ١٣٧ .

(٤) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق : ١٦٧/٢٤ .

فأصبحتُ صِفَرَ الكَفِّ مما رَجَوْتُهُ أَرَى اليَأْسَ قد عَفَى سبيل رجائيا
على أَنَّنِي ما حُلْتُ عَمَّا عَهِدْتُهُ ولا غَيَّرْتُ هَذي السَّنون وداديا

وعاتب مجد الدين سلامة أصدقائه وأقاربه، فصور ما حلَّ به من هموم، وشبهها بالأفاعي التي نهشته، كما أنه لا يستطيع أن يبث همومه إلى غيره؛ خوفاً من الشماتة لإحساسه بتملقهم، ويجعل من هذا المعنى مناسبة للدخول إلى شكوى الأصدقاء والناس، فهم مخادعون يبدون مالا يبطنون، فودادهم مشرق ظاهر للعيان وباطنهم مظلم من الحقد والشماتة، حتَّى وصل به الحال إلى عدم الإحساس وتبدُّل مشاعره وكأنَّه جماد، يقول^(١):

فَيَا لِي مِنْ رَيْبِ الزَّمانِ وَصَرَفِهِ وما لِي مِنْ هَمٍّ أَفَاعِيهِ لَنْ تُرْقَى

وأبدى ابن العديم امتعاضه مما وصلت إليه أواصر القربى بين الناس، حتَّى غدا ابن العم والقريب لا يؤتمن جانبهم، وهو يقدم شكواه من أبناء العمومة بشكل نصيحة مهداة إلى الناس لليقظة والحذر من ابن العم، مستعرضاً من خلال مقطوعاته براعته في استخدام اللغة بشكل متكلف ظاهر يقول^(٢):

احذَرِ مِنْ ابْنِ العَمِّ فَهُوَ مُصَحَّفٌ وَمِنْ القَرِيبِ فَإِنَّمَا هُوَ أَخْرَفُ
القَافُ مِنْ قَبْرِ غَدَا لَكَ حَافِرًا والرَّاءُ مِنْهُ رَدَى لِنَفْسِكَ يَخْطَفُ
والياءُ يَأْسٌ دائِمٌ مِنْ خَيْرِهِ والباءُ بَغْضٌ مِنْهُ لا يَتَكَيَّفُ
فاقبل نصيحتي التي أَهْدَيْتُهَا إِنِّي بِأَبْنَاءِ العُمُومَةِ أَعْرِفُ

(١) أسامة بن منقذ، لباب الأدب : ٣٨٦.

(٢) ياقوت الحموي ، معجم الأديباء : ٤٦١/٤.

أما محي الدين الشهرزوري فيظهر من الامتعاض والابتلاء من
أقاربه وأصدقائه ما جعله يتخذ من العزلة موقفاً، فلزم بيته، غير أنه يعود
إلى لقائهم بالحلم والعفو^(١):

وَلَمَّا أَنْ بُلِيتُ بِنَاسٍ سُوِّءٍ	سُرُورُ نَفُوسِهِمْ حُزْنِي وَهَمِّي
فَمَنْ خَلَّ يُرَاوِحْنِي بِخَلِّ	وَمَنْ عَمَّ يُغَادِينِي بِغَمِّ
أَنْسِتُ بِوَحْدَتِي وَلَزِمْتُ بَيْتِي	بِقَصْدِي وَاخْتِيَارِي لَا بَرغَمِي
وَلَوْلَا الْعَارُ مَا عَجَزْتُ نَفْسِي	وَلَا قَصَرْتُ عَنْهُمْ بَاعَ عِزْمِي
وَلَكِنِّي إِذَا كَرَّوْا بِجَهْلٍ	عَلَيَّ إِذَنْ لَقِيْتَهُمْ بِحِلْمٍ

كما أشار الشعر إلى العلاقات الاجتماعية التي تربط بين أفراد
الأسرة المالكة من بني أيوب، بعد موت صلاح الدين الأيوبي، والتي
تكشف عن اضطراب أحوالهم الاجتماعية فيما بينهم وما نشب بينهم من
صراع وتنافس على الملك، ونستشف ذلك من خلال الأبيات التي أرسلها
الملك الأفضل علي يستنجد بها الخليفة العباسي مستغلاً التشابه الظاهري
لأسماء الأسرة الأيوبية، الملك العادل أبو بكر، والملك العزيز عثمان،
والشاعر الملك الأفضل علي، لموافقتها ما ورد عند الشيعة من أمر
اغتصاب أبي بكر الصديق حق علي بن أبي طالب في الخلافة: فحالهم
كحالهم إذ حملت الأبيات شكوى الملك الأفضل من عمه العادل، وإخيه
العزيز اللذين اغتصبا حقه في ميراث أبيه الملك الناصر^(٢):

مولاي! إِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَصَاحِبُهُ	عثمان قَدْ غَصَبَا بِالسَّيْفِ حَقَّ عَلِي
وهو الذي كان قد ولّاه والدُهُ	عليهما فاستقام الأمر حين ولي

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٣٣٣/٢ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٤٢٠/٣ .

فحالفاً، وَحَلًّا عَقْدَ بَيْعَتِهِ وَالْأَمْرُ بَيْنَهُمَا، وَالنَّصَّ فِيهِ جَلِي
فَانْظُرْ إِلَى حَظِّ هَذَا الْإِسْمِ كَيْفَ لَقِيَ مِنْ الْأَوَاخِرِ مَا لَاقَى مِنَ الْأَوَّلِ

كما رصد الشعر جانباً من الجوانب الاجتماعية التي تربط أفراد الأسرة المالكة من بني أيوب في أواخر عهدهم، ظهر ذلك جلياً في شعر الملك الناصر داود بمظهر شكوى من أقاربه، متضرعاً من خلالها إلى الله سبحانه بالشكوى إليه، وكان ذلك حين تأمر عليه عمه صاحب دمشق، وابن عمه صاحب مصر، والملك المنصور صاحب حمص، وتجهزوا بجيش حاصروا به مقر إقامته قلعة عجلون، ولعل ما آلمه ما وجده من خيانة أهل بيته، وشقيق زوجته، وابن شقيقها عليه، " وخجل من ذوي نصرته الأقربين وكانت جوارحه التي يُناضل عنها بسهام الغدر له جارحة، وحاميته الأدنون مُجاهرة بالعداوة مُكافحة، فاستجار بمن يجير ولا يجار عليه ولاذ بحرمة ...، ونظم أبياتاً مفرغة في قالب الدعاء مُنضدة سلك المناجاة، مُتضرعاً إلى من يجيب المُضطرَّ إذا دعاه " (١)، فقال (٢):

أيا ربَّ، إِنَّ الْأَقْرَبَاءَ تَبَاعَدُوا وَعَوَمِلْتُ مِنْهُمْ بِالْقَطِيعَةِ وَالْهَجْرِ
وَقُطِّعَتِ الْأَرْحَامُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ وَجُوزِيْتُ عَنْ عُرْفِ الصَّنَائِعِ بِالنَّكَرِ
وَأَغْلَقَ دُونِي بَابَهُ كُلُّ صَاحِبٍ فَتَحْتُ لَهُ بَابِي، وَأَدْخَلْتُهُ خَدْرِي
فَخَانَ عَهْدِي إِذْ وَفَيْتُ بَعْدَهُ وَشَحَّ بَرَفْدِي إِذْ بَذَلْتُ لَهُ وَفْرِي
وَأَنْتَ بِمَرَأَى يَا إِلَهِي وَمَسْمَعٍ وَعَالَمٍ مَكْنُونِ السَّرَائِرِ وَالْجَهْرِ

(١) الملك الناصر ، ديوانه : ٢٥٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٥٣-٢٥٤ .

وهو إذ يتوجه إلى الله بالدعاء، فإنه يأمل بالنصر، على البغاة الذين تكالبوا عليه بجيوشهم، وإذا كانت العرب تمنع جارها وتدفع عنه الضيم فإن المولى عز وجل أولى بمن يؤمن بالنصر، وهو الغني به على قلبه حيلة الشاعر، وهم قلة على كثرة بهم:

أجرني من باغٍ عليّ بماله	ومَعْقِلِهِ المحفوفِ بالعسكر المجر
أمولاي إنّ العربَ تمنعُ جارها	وتدفعُ عنه الضيمَ بالببيضِ والسمرِ
وقد جئتُكَ اللهم أرجوكَ ناصراً	لأنّكَ أولى من يؤمّلُ للنصرِ
وإنّهم قِلٌّ، على كثرةِ بهم	وإني على قِلِّي بنصرِكَ في كثيرِ
فخذ بيدي فيما أرجى وأتقي	على رغم أقوامٍ تواطوا على ضري
فألطافُك الحسنَى لديّ خفيّةٌ	تُبَلِّغني الآمالَ من حيثُ لا أدري

وصور الشعر خيبة أمل الشاعر بأهله وأقاربه، وما وصل إليه من يأس، حيث خانته أقرب الناس إليه، وخذله من كان يأمل في نصرتهم، بل وصل الأمر إلى حد إذلاله وسعيهم للتكيل به، وإهانته وإفقاره، ومن ذلك قصيدته التي مطلعها^(١):

الهي إلهي أنت أعلى وأعلمُ
ومنها:

أبثُ جنایاتِ العشيرةِ معلناً	إلى من يمكنون السرائرِ يعلمُ
أتيتُهُمُ مستنصراً متحرّماً	كما يفعلُ المستنصرُ المتحرّمُ
أتيناَهُمُ نبغي انتصاراً بأمهم	كما يفعلُ الأعمام حين يؤمموا
فألّووا وما وفّوا وفاهوا وما وفّوا	وضنوا فظنوا والهدال مؤهّمُ
فلما أيسنا نصرهم ونوالهم	رمونا بإفك القول وهو مرجّمُ

(١) الملك الناصر داود، ديوانه : ٢٦٠، ٢٦١.

وقطّع مني ما أمرتُ بوصيله وإحلالُ إبعادِ القرابةِ يحرمُ
ومن الملاحظ أن الشاعر اتكأ على السنّة النبويّة ليرسم صورة لما
وصل إليه من الإذلال، لذا أدرك أن لاملجأ إلا إلى الله الذي لا يخون،
ويعلم مكنون السرائر قال صلى الله عليه وسلم : " ارحموا عزيز قوم
ذل " يقول:

أذلّوا عزيزاً هان فيك ترفُعاً وكلُّ مُهانٍ فيك يعلو ويعظُمُ
تفانوا على فقري إليك بمالهم وكلُّ فقيرٍ فيك يغنى ويغنم
ويعد أن ساءت العلاقة بين الملك الناصر، وبين الملك الصالح نجم
الدين أيوب، أرسل الملك الناصر إليه قصيدة مطلعها^(١):

قولوا لمن قاسمتُهُ مُلكَ اليدِ ونهضتُ فيه نهضةً المستأسدِ
وتكشف أبيات القصيدة عن توتر العلاقات بين الملك الناصر،
والملك الصالح أبناء العمومة ، ولعل تعبير (قاطع الرحم) وصلات
الأرحام التي تهتك أو اصرها بفعل خيانة الأقارب، قد تكرر في كثير
من المقطوعات، التي تعبر عن هذا الموضوع لدى الملك الناصر، وهي
لا شك تدل على الألم الذي استشعره جرّاء مواقف أقاربه:

يا قاطع الرحم التي صلتني لها كتبت على الفلك الأثير بعسجد
سدّدت نحوي بالعتاب مقالةً جاءت كسهمٍ للنصالِ مُسدّدِ
أقولُ فيّ مقالةً لك جزؤها إن أنصفت ، أوكلّها أن تعتدي
إن كنتَ تقدحُ في صريحٍ مناسبي فاصبر بعرضك للهيب الموصدِ

(١) الملك الناصر ، ديوانه : ٢٥٧

الشعر التأملّي :

عُرِفَت لبعض الأسر الشاميّة أشعار محورها التأمل في الحياة والأحياء ، وتشمل الحكم والأخلاق والحياة والموت، وأغلب هذه الأشعار التأملية مستوحاة من تجارب الشعراء وخبراتهم الشخصية ، وهي توشك أن تكون أمثالا مشفوعة بالنصح. وتبدو هذه الظاهرة واضحة عند الشعراء المعريين ، ولعلّ هذا يعود إلى كثرة المصائب والنكبات التي تعرّض لها أهل المعرفة، وتشتتهم في البلدان، ومعاناتهم وهم يذرعون مناكب الأرض، ولعلّهم أيضاً متأثرون بجدهم أبي العلاء المعري ولا سيّما أنهم ينحدرون من فرع واحد يضاف إلى ذلك أنّ معظم الشعراء المعريين كانوا من القضاة والفقهاء.

وقد تناولوا في شعرهم التأملّي هذا قضايا متعدّدة تهم الإنسان ، كقضية الموت والحياة، والفقر والغنى، ورسموا صوراً لحتميّة الفراق وزيارة المشيب، وتلازم الجهل والمال، والعلم والفقر.

فقد اتكأ النعمان بن وادع على قوله تعالى: " كُلْ مِنْ عَلَيْهَا فَإِنْ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ " (١) ، لرسم صورة فناء الكائنات وهلاك ما على وجه البسيطة ما عدا وجه الكريم سبحانه (٢):

بليت يدي وكتابها	يبلى ولكن بعد حين
وكذلك يهلك كل شيء	غير رب العالمين

(١) القرآن الكريم ، سورة الرحمن ، آية ، ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٦٢ ، ١٣٥ .

وقد آمن أبو المجد محمد بن عبد الله التتوخي بالقدر، لذلك يرى أنه لا ضرورة للحن على ما فات من أمور الدنيا؛ لأن الإنسان يخرج منها كما جاء إليها فقال^(١):

إِنْ تَوَلَّيْتُ عَنْكَ دُنْيَا كَ فَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهَا
إِنَّمَا تَخْرُجُ مِنْهَا مِثْلَمَا جِئْتَ إِلَيْهَا

ويؤكد أبو المجد التتوخي أن القناعة تتم إذا لم ينل الإنسان ما يصبو إليه، أما إذا حلّ الموت بالإنسان فلا (لَوْ) تفيد ولا (لَوْلا) قال^(٢):

رَضِينَا وَسَلَّمْنَا لِمَالِكٍ أَمَرْنَا وَهَلْ يَمْلِكُ الْعَبْدُ الْخِيَارَ عَلَى الْمَوْلَى
وَمَنْ لَمْ يَنْلُ مِنْ دَهْرِهِ مَا يَرِيدُهُ وَحَاوَلَ عِزًّا فَالْقُنُوعُ بِهِ أَوْلَى
وَلَيْسَ لِلَّيْتِ إِنْ أَطْلَتْ بِهَا الْمُنَى غَنَاءٌ وَلَا لَوْ تَفِيدَ وَلَا لَوْلا

وقد ألح أبو المجد المعري على ضرورة الاستعانة بالله سبحانه، فهو عون الضعيف، ومستجار اللاجئ، ومفرج الكرب فقال^(٣):

لَا تَسْتَعِنِ إِلَّا بِاللَّهِ فَإِنَّهُ عَوْنُ الضَّعِيفِ وَمُسْتَجَارُ الْلَاجِي
وَمَتَى عَرَّتْكَ مِنَ الْخُطُوبِ مُلَمَّةٌ فَدَفَعَتْهَا بِاللَّهِ كُنْتَ النَّاجِي
هُوَ عُذَّتِي فِي كُلِّ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ وَمَلَأَ أَمَالِي وَمَوَلَّى حَاجِي

كما يتوصل أبو المجد المعري إلى حكمة العلو والارتفاع في طلب الأمور، فإما أن يكون الإنسان ذا حظ وفير أو الموت، ويبدو لي أن ما دعا إليه أبو المجد من القناعة في طلب الرزق لا يتفق مع ما جاء به في

(١) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم الشام) : ٣١/٢.

(٢) الخريدة، (قسم الشام) : ٢٦/٢، ٢٧.

(٣) المصدر نفسه : ١٤/٢.

الأبيات التالية؛ ولعلنا نسوِّغ له ذلك بأن مشاعر الإنسان وحياته لا تسير وفق مبدأ ثابت يؤمن به الشاعر، إنما هي كأي شيء يعترىها التغير والانعكاس، يقول^(١):

والموتُ راحةٌ ما بالنفس من حُرْقٍ أو رتبةٌ تنظر الجوزاء من عالٍ
وما أرى نخواتي قطُ تتركُنِي حتَّى أكون من الحاليين في حالٍ

وتحدث إسماعيل بن إبراهيم المعري عن ضرورة الدعوة إلى التوكّل على الله وربط الآمال بمشيئته من تكفل بكل شيء للإنسان وهو في أحشاء أمّه^(٢):

خابَ رجاءُ امرئٍ له أمله بغير ربٍّ السماء قد وصّله
يفعل للمرء كل مكرمة ثم يُثب الفتى بما فعله
أيبغى غيره أخو ثقةٍ وهو ببطن الأحشاء قد كفّله

ويأمل أبو محمد عبد القاهر بن المُنْهنا في الحياة الاجتماعية ، ويقوده تأمله إلى استنتاج فكرة طريفة مؤدّاها التلازم بين الجهل والمال، والعلم والفقر ، وذلك إذ يقول^(٣):

لا غروَ إن كنت ذا فقرٍ وآخر قد نال الأمانِي من مالٍ ومن ولدٍ
فالجَهِلُ والمالُ ملزوزان في نمطٍ والفضل والفقر مقرونان في صَفَدٍ

ولعل الاستسلام لقضاء الله وقدره رأس الحكمة في شعرهم، فمتى آمن الإنسان بحتمية القضاء والقدر استسلم لمشيئة الله، وبدا ذلك في قوله وفعله، ويتجلى ذلك من خلال تصويرهم للأرزاق المقسمة بين العباد،

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشّام) : ٢٩/٢ .

(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان، ط١، ١٩٦٠ : ٣٩/٣ .

(٣) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم الشّام) : ٩٩/٢ .

وتفاوت الناس بين مرزوق ومحروم، ودعوا إلى عدم مخاصمة قضاء الله لأن من يخاصم قَدْرَ الله يكون خصيماً له، ويظهر ذلك من خلال أبيات لأبي البيان بن الحواري محمد بن علي التتوخي^(١):

قفْ عندَ قدرِكَ فالأقدارُ غالبَةٌ وكلُّ من خاصم الأقدار مخصومٌ
ولا تَذمَّنْ دهرًا في تقلبِهِ فالرزق يا صاح بين الناس مقسوم
وما عجزت ولا قصرت عن سبب وإنما الناس مرزوق ومحروم
ويقف أبو المجد محمد بن عبد الله المعري عند التناقض في آراء الناس ومواقفهم، وكيف أن رضاهم غاية لا تدرك، فعندما عفا عنهم نُسب إلى الغنى، وعندما انقبض ولزم بيته نُسب إلى الكبر^(٢):

ولما رأيتُ المالَ كالظِلِّ زائلاً وميلَ بني الدنيا إلى جانبِ الغدرِ
أنفتُ من الحرصِ الدنيّ تقنّعاً وأقعدي خبري بضرِّي على قترِ
فلما تعفّفنا نسبنا إلى الغنى ولما تقبّضنا نسبنا إلى كبرِ
ويتخطى الشاعر التأمل في الواقع الاجتماعي إلى التأمل في حركة الزمن، ومن ثمّ رسم له صورة سلبية، كما في قول أبي جعفر محمد بن حواري، حيث عبّر عن إحساسه بالتغيّر الذي يحدثه الزمن في الإنسان والأشياء، ولا سيّما النزوح عن مرحلة الشباب^(٣):

خَفَ الزَّمانَ ولا تَأْمَنُ غوائلُهُ فما الزمانُ على شيءٍ بمأمونِ
غداً ترى الشَّعرَ قد غَطَّتْ غياهبُهُ ضياءَ خدِّكَ فاستسعيت في الهونِ

(١) المقرئزي، المقفى الكبير: ٣٩٨/٦.

(٢) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم الشام) : ١٧/٢.

(٣) الصفدي، الوافي بالوفيات : ١٠١/٥.

وهذا التأمل في تولي الشباب وقدم المشيب قاد أبا اليقظان بن حواري إلى الربط بين الشيب والموت على نحو مباشر ، وذلك إذ يقول^(١):

ألا إنَّ الشَّبَابَ إذا تَوَلَّى فإنَّ مقامَ صاحبه قليلُ
وفي وَضَحَ المشيبِ على كلامي دليلٌ ليس تنكره العقولُ
كَرَّكِبٍ عَرَّسُوا لَيْلاً فَلَمَّا بدا ضوءُ الصِّباحِ دنا الرِّحيلُ
وتتسع دائرة التغيُّرِ التي يحدثها الزمن كما يراها وجيه بن عبد الله التنوخي، فهي لا تشمل الإنسان فقط ، بل تمتد إلى مظاهر الطبيعة كذلك^(٢):

أراني والنَّفَالَةَ في نَفَادٍ على سفرٍ وليس لَدَيَّ زادُ
وقد بانَ الشَّبَابُ الغَضُّ مني وجاءَ الشَّيبُ ليس له ارتدادُ
إذا ما الزرعُ أَخْلَعَ واستبانَت سنابله فقد قَرُبَ الحصادُ
لم تقتصر النظرة التأملية في شعر الأسر الشامية على الشعراء المعريين؛ فقد صور أبو سلامة مرشد بن علي التأمل في الشيخوخة ، وفعل الشيخوخة فيه ، فقد أنذرتَه بفراق الأحبة ، وتركتَه وحيداً بلا أتراب، فبات فرداً. كما أنَّ الناس حوله لم يرحموه ، فصاروا يبحثون عن هفواته لضعفه، ولعل أجمل ما في الأبيات أسلوب التقسيم حيث أورد أقسام العمر من شباب وكهولة وشيخوخة، وما يعتري كل مرحلة من أحوال وألوان للمشيب، فبدأ الشعر الأسود ثم رمادياً (أشهب) ، ثم (أبيضاً ناصعاً) كل ذلك يُكَلِّله إحساس بالحزن والضعف ، حيث صور

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة : ٨٨/٢ .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٣٩٩ / ٦٢

قواه المنهاره وكأنها الحبال (الرثة) التي توشك على الانقطاع، حتى أنه
تمنى الموت للحاق بسكان الأجداث^(١):

إِنَّ اللَّيَالِيَّ أَنْذَرَتْ بِفِرَاقِ مَنْ أَهْوَى وَوَالَتْ رُسُلَهُنَّ حِثَا
الْبَسَنِّي مِنْ كُلِّ لَوْنٍ صِبْغَةً قَسَمَتْ حَيَاتِي بَيْنَهَا أَثْلَا:
لَوْنًا غُدَافِيًّا وَلَوْنًا أَشْهَبًا أَضَحْتُ حِبَالَ الْعِيشِ مِنْهُ رِثَا
وَأَتَتْ بِلَوْنٍ بَعْدَ ذَلِكَ نَاصِعٍ عَادَتْ قُوَايَ لِنَقْضِهِ أَنْكَاثَا
إِنِّي لِأَحْسُدُ بَعْدَ طُولِ تَلَهْفٍ وَتَأْسُفٍ مِنْ يَسْكُنُ الْأَجْدَا
وَعُمُرْتُ فَرْدًا فِي الْأَنَامِ فَلَا أَرَى إِلَّا أَمْرَاءَ عَنْ هَفَوْتِي بَحَا

ويرى أسامة بن منقذ أن مظاهر الحياة خادعة ؛ إذ سرعان ما
تزول ويدعو إلى عدم الوثوق بها^(٢):

قُلْ لِلَّذِي خَضَبَ الْمَشِيبَ جَهَالَةً دَعِ عَنْكَ ذَا فَلَكَ صِبْغٍ مَاحٍ
أَوْ مَا تَرَى صِبْغَ اللَّيَالِي كُلَّمَا جَدَّدْنَهُ يَمْحُوهُ ضَوْءُ صَبَاحٍ
ويحث عز الدين فروخشة على العدل وإعطاء الحقوق لاهلها،

وكراهية الظلم^(٣):

إِذَا شِئْتَ أَنْ تُعْطِيَ الْأُمُورَ حُقُوقَهَا وَتُوقِعَ حُكْمَ الْعَدْلِ أَحْسَنَ مَوْقِعِهِ
فَلَا تَصْنَعْ الْمَعْرُوفَ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ فَظَلَمَكَ وَضَعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ

ويلحق العماد على الأبيات السابقة قائلاً: " هذان البيتان ينبئان عن
فضله ، وكرم طبعه، فإنه مُغْرَمٌ بإكرام الفاضل ورفعهِ ، مُغْرَى بِإِهَانَةِ
الجاهل ووضعهِ..".

(١) أسامة بن منقذ ، لباب الأدب : ٣٧٥.

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشَّام) : ٥٠٥ / ١.

(٣) العماد الأصفهاني ، الخريدة (بداية قسم شعراء الشَّام) : ١١٥.

ويقدم تاج الملوك بوري حكماً ومواعظاً حول الكرم ومن يستحقه
والنظرة إلى اللئيم ، وهو يستمد حكمته من الموروث القديم^(١) :
أهن اللئيم فما الكرامة عنده يوماً بنافعة إذا أكرمته
ودع الكرامة للكريم فإنما يخشى الكريم إذا الكريم أهنته

(١) حسن محمد عبد الهادي ، تاج الملوك لبوري ابن سعيد ، دار الينابيع ، عمان ،

١٩٩٧م : ٧٢.

الفصل الثالث

الدراسة الفنية

- ١- بناء القصيدة .
- ٢- الصورة الفنية .
- ٣- اللغة والأسلوب

بناء القصيدة :

أولى النقاد القدامى أهمية كبيرة لبنية القصيدة العربية، ولا سيّما مطلعها، وحسن تقسيمها، وتخلصها، وخاتمتها، فرأوا أن حسن الافتتاح من دواعي نجاح الشاعر ولطف مأخذه، فقال ابن رشيق:

" إن حسن الافتتاح داعية الانشراح ومظنة النجاح " (١)، كما رأى " أن الشعر قفل أوله مفتاحه، وينبغي أن يوجد ابتداء شعره فإنّه أول ما يقرع السمع " (٢) وأشار أبو الحسن حازم القرطاجنيّ إلى حُسن الاستهلال والمطالع على أنّه أحسن ما في الإبداع، لأنّه الدّال على ما بعده ويأخذ من القصيدة منزلة الوجه والغرة التي " تزيد النفس بحسنها ابتهاجاً ونشاطاً لتلقّي ما بعدها " (٣).

وقد حاول النقاد القدامى الربط بين مقدمات القصائد وأغراضها، ولا سيّما القصائد التي لا يبدو للوهلة الأولى أنّ ثمة رابطة بين مقدماتها وغرضها؛ إذ ما الرّابطة بين ذكر الطلل والمرأة الراحلة عنه والممدوح؟ وعلى رأس هؤلاء ابن قتيبة في الشعر والشّعراء، الذي جعل ذكر الطلل ذريعة لذكر الراحلين عنه، وهي المرأة المحبوبة، لأن ذكر المرأة لائط بالقلوب كي يستميل قلب الممدوح، وبذا يدخل إلى غرضه الأساسي (٤).

(١) ابن رشيق القيرواني، العمدة : ٣٨٨/١.

(٢) المصدر نفسه : ٣٨٩/١.

(٣) القرطاجني، أبو الحسن حازم (ت ٦٨٤هـ) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: مُحمّد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان : ٣٠٩.

(٤) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ) الشعر والشّعراء، تحقيق : مُحمّد بن عبد المنعم العريان، ط ٣، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٧ : ٣١.

ولعل هذه الذرائع للانتقال من جزئية إلى أخرى في القصيدة ، هي ما دعا النقاد بعد ذلك للحديث عن ظاهرة حسن التخلص في الشعر ، وهو الذي عرفه ابن الأثير بقوله : " هو أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني ، فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره وجعل الأول سبباً إليه فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض ، من غير أن يقطع كلامه ، ويستأنف كلاماً آخر ، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغاً ، وذلك مما يدل على حذق الشاعر وقوة تصرفه " ^(١) ، ويقول ابن وكيع التنسي في تعريفه لحسن التخلص : " هو حسن الخروج المليح إلى الهجاء والمديح " ^(٢) .

وقد علل حازم القرطاجني ضرورة إحسان الشاعر لتخلصه من موضع إلى آخر في القصيدة بقوله : " إن الشاعر إذا انتقل من فن إلى فن مباين له من غير جامع بينهما وملائم بين طرفيهما ، وجدت الأنفس في طباعها نفوراً من ذلك ، و نبت عنه " ^(٣) .

هكذا قسّم النقاد القدماء عناصر البناء للقصيدة ، وجعلوا منها معياراً للمفاضلة ، فاشتروا على الشاعر أن يجتهد في " تحسين

(١) ابن الأثير ، ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧هـ) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، قدّم له : أحمد الحوفي ، بدوي طبانة ، ط ١ ، مكتبة نهضة مصر القاهرة ، ١٩٦٢م : ١٢١/٣ .

(٢) ابن وكيع التنسي ، الحسن بن علي (ت ٣٩٣ هـ) ، المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره ، قرأه وقدّم له : محمد رضوان الدايرة ، دار قتيبة ، دمشق ، ١٩٨١م : ٨٢ .

(٣) حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء : ٣١٩ .

الإستهلال ، والتخلص وبعدهما الخاتمة ، لأنها المواقف التي تستعطف
أسماع الحضور ، وتستميلهم إلى الإصغاء^(١).

وقد نهج شعراء الأسر الشامية نهجاً مقارباً في بناء قصائدهم ، ولا
سيّما قصائد المدح حيث كانت تتألف من ثلاثة أجزاء رئيسية: من ذلك
قصيدة ثقة الملك الحسن بن أبي جرادة التي بدأها بمقدمة غزلية ،
استغرقت أربعة عشر بيتاً وصف فيها أشواقه لسكان الخيام (المحبوبة)
وهي مقدمة ذات إحياء طللي قديم ، لوّنها بمشاعره وأحاسيسه التي توحى
بالبعد والفراق فقال^(٢):

لعلّ تَحَدَّرَ الدمعِ السَّفوح	يُسْكَنُ لَوْعَةَ القلبِ القريح
وعلّ البرقَ يروي لي حديثاً	فيرفعه بإسنادٍ صحيح
ويا ريح الصَّبَا لو خَبَّرْتَنِي	متى كان الخيامُ بذِي طُلُوح
فلي من دمعِ أجفاني غَبُوقٌ	تُدار كؤوسه بعد الصَّبُوح
وأشواقٌ تَقَاذِفُ بي كَأَنِّي	عَلَوْتُ بها على طَرْفِ جَمُوح
ودهرٌ لا يزال يَحُطُّ رحلي	بمَضَيَّةٍ وَيُرْوِينِي بُلُوح
كريمٌ بالكريمِ على الرِّزَايا	شحيح حين يُسأل بالشَّحِيح
وأيّامٌ تُفَرِّقُ كلَّ جَمْع	و أحداثٌ تجيز على الجريح
فيا لله من عَوْدٍ بَعُودٍ	ومن نَضُوٍ على نَضُوٍ طَلِيح
وأعجبُ ما مُنِيتُ به عِتَابٌ	يُورِّقُ مُقْلَتِي وَيُذِيبُ رُوحِي
أتى من بعد بُعْدٍ واكتئابٍ	وما أنكى الجروحَ على الجروح

(١) الجرجاني ، علي عبد العزيز (ت ٣٩٢هـ) الوساطة بين المتبني وخصومة ،
تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي ، القاهرة ، ١٩٤٥م : ٤٧ .

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٢١٣/٢ - ٢١٥

وقد أحسن بعض شعراء الأسر الشاميّة التخلّص من مقدّماتهم إلى صلب الموضوعات بطريقة فنية، بحيث تبدو القصيدة كوحدة موضوعية مترابطة متسقة وهذا ثقة الملك يتخلّص من مقدّمته الغزلية ذات الإيحاء الطللي، بأسلوب رشيق، بحيث يتدرج بإرسال السلام والأشواق مع شروق الشمس، ولكنه هذه المرة ليس إلى المحبوبة، وإنّما إلى صاحب الشّمالك والسّجايا، القاضي الأجل الأشرف ابن البيساني:

وقد أسرى بوجدي كلُّ وفدٍ	وهبّت بارتياحي كلُّ ريحٍ
على تلك الشّمالك والسّجايا	وحسن العهد والخلق السّجّيح
على أنس الغريب إذا جفاه الـ	قريبٌ ومَحْتَدِ المجدِ الصّريح
على ذي الهمة العلياء والمنـ	ة البيضاء والوجه الصّبيح

ثم شرع الشاعر بعد ذلك بذكر سجايا الممدوح وخصاله الطيبة.

وقد بدأ تاج الملوك بوري قصائده المدحية على عادة الشعراء الذين يقدمون لمديحهم بالغزل، من ذلك قصيدته التي قالها يمدح الملك الناصر صلاح الدين وقد بدأها بمقدمة جميلة، مؤثرة مليئة بالتساؤل عن الحبيب النائي إن كان سيعود أو يقترب من جديد^(١):

هل من نأى من حبيب النفس مقتربُ أم هل يُسرّ بجمع الشمل مكتئبُ

ولعل ما يميز هذه المقدّمة صدق إحساس الشاعر ، الذي يظهر من خلال تساؤلاته الحوارية التي تدور بينه وبين السائلين:

وقائل: كيف طعمُ العيش بعدهمُ	أجبتَه وضلوعي لوعةً تجبُ
يا سائلي عن لذيق العيش منذ ناوا	سلّ من له في حياةٍ بعدهم أربُ

(١) حسن مُحمّد عبد الهادي ، تاج الملوك لبوري : ١٢٢ - ١٢٤.

فيخيل للقارئ لفرط صبابته وولعه أن القصيدة قد أنشئت لغرض
الغزل ، ولا سيما أنها طالت حتى بلغت عشرة أبيات:

هل من نأى من حبيب النفس مقتربُ	أم هل يسر بجمع الشمل مكتئبُ
صبراً فكم مدرك بالصبر بُغيته	من حيث لم يحتسب أو حيث يحتسبُ
ما دام خيرٌ ولا شرٌّ على أحدٍ	للدهر صرفٌ وللحالات مُنقلبُ
أحباب قلبي وفي قلبي لفرقتكم	نار على مدد الأيام تلتهب
بُعْدْتُمْ فسروري كله أسفٌ	وراحتي كلها من بعدكم تعب
ولو بكيت دماً من بعد فرقتكم	قضيت قبل قضائي بعض ما يجب
وليس موتي عجيباً بعد فرقتكم	وإنما في حياتي بعدكم عجب
وقائل: كيف طعم العيش بعدهم	أجبتة وضلوعي لوعة تجب
يا سائلي عن لذيق العيش منذ نأوا	سل من له في حياة بعدهم أرب
أعطى الزمان نفيساً ثم عاد به	وهكذا يسترد الدهر ما يهب

فإن علمنا بأن القصيدة تبلغ قرابة أربعين بيتاً فإنَّ المقدمة تشكل
ربع القصيدة، وهي نسبة كبيرة من الأبيات في قصيدة مدحية، ولا تعليل
لطول المقدمة إلاَّ اندفاع الشاعر مع حرارة مشاعره الحقيقية اتجاه
(الحبيبة) مما دفعه إلى الإطالة وتصوير ما يعتل في نفسه بعفوية
وتلقائية صادقة .

وينتقل بعد مقدّمته الغزلية إلى الموضوع الأساسي، وهو المديح
على نحو مفاجئ، دون تدرج في الانتقال عبر الموضوعين، فنجد
يخاطب الممدوح دون تمهيد:

يا مالكاَ عمّت الدنيا مواهبه كما تعمّ إذا ما سحت السحب

وبذلك يَشعر القارئ بفجوة خلفها هذا الأسلوب المفاجئ في الانتقال؛ إذ يشرع في وصف فضائل الممدوح ومواهبه، فهو الذي عمّت الدنيا عطاياه كالسحب التي تسحّ بالخير . هذه العطايا الجزيلة التي أدنى ما تقدمه هو (الذهب) وهذا تنويه بمطامع الشاعر وتكسّبه ، في هذا النص إذ تظهر رغبته في استجداء الممدوح واضحة في الأبيات اللاحقة، ولم يتورع الشاعر عن الكشف عنها :

جون(١) وليست بغير الماء سافحةً يوماً وأدنى عطايا كفه الذهب

أجبرُ بصنعك قلبي وهو منكسرٌ مثل الزجاج كسراً ليس ينعشب(٢)

لا تتركّن صروف الدهر تلعب بي
يا مالك الرقّ خذها نفثةً صدرت
(إذا رأى بعده عن باب مالكة)
وحالتي لو رآها حاسدٌ لرثى
كلّ يفوز بعزٍّ منكم أبداً
فعند مثلك لا يُستحسن اللعبُ
عن نازح قلبه بالود مقترب
يصيح واحرباً لو ينفع الحرب
وكان من رحمة يبكي وينتخب
وما نصيبني إلّا الذلّ والنصب

غير أن هذا الاستجداء يشوبه رثاء الشاعر لنفسه ووصفه لسوء أحواله، فهو المنكسر مثل الزجاج تلعب به صروف الدهر ، وهو الذي لو رآه الحاسد لبكى عليه وانتخب ، وهو الذي يقف بباب الممدوح مستعطفاً مسترحماً طالباً العون والفوز بعطاياه ، كل ذلك جعل هذه

(١) السحب الجون : السحب القائمة الممطرة .

(٢) ينعشب : ينصدع .

الأبيات تخرج عن معاني المدح للشكوى ، مما يكشف أبعاد القصيدة والدوافع الحقيقية وراء إنشائها .

وبعد هذا العرض الذاتي والشكوى من سوء الأحوال يعود لموضوع المدح من جديد ، فيستأنف ما بدأه حول فضائل الممدوح وحسن سجايه ، فهو خير من سمح به الدهر ، وخير من يَمّمته العجم والعرب ، وهو رمز الوفاء والمجد والكرم ، وهو سبب انتصار الإسلام يوم الوغى ، وهدم الشرك ، وهو رمز للعلم والمعرفة والعلو:

يا خيرَ من سمحَ الدهرُ الضنينُ به	وخيرَ ما يَمّمته العُجمُ والعربُ
لأنتَ أكرمُ من لاذَ الأنامُ به	نفساً وأعظمُ من تسمو به الرتبُ
لولاك ما كان لا مجدٌ ولا كرمٌ	ولا وفاءٌ ولا فضلٌ ولا حسبُ
لولاك ما انتصر الإسلامُ يومَ وغى	ولا دهمُ الشركَ لا ويلٌ ولا حربُ
يا من توقّدَ من علمٍ ومعرفةٍ	كما توقّدَ في ظلماتها الشهبُ
لأنتَ كالشمس تنأى رفعةً وعلأً	ونورها في جميع الأرضِ مقتربُ
كالبحر يقذفُ للداني جواهره	جوداً ويُبعثُ للنائي به السحبُ

ثم يخرج في مديحه عن الأوصاف التقليدية التي اعتادها الشعراء في وصف الممدوحين بالشمس والبحر والسحب ، إلى حلقة جديدة في علاقته بالممدوح تشكل وتراً حساساً في النص ، وهي رابطة الدم التي تربطه بالممدوح (أخيه) حيث تجمعهم بالممدوح صلة القرابة ، ووحدة الدم فالوالد واحد والدم واحد ، ولعل هذا أكثر تأثيراً في الممدوح من وصفه بالوصف التقليدي السابق:

لو لم يكن أيّها المولى أبوك أبي	لقلتُ : إنك لي في الحالّتين أبُ
وفرطُ حبك فيما بيننا نسبٌ	ثانٍ ولو لم يكن ما بيننا نسبُ

يا أكثر الناس بي علماً ومعرفةً (متى تغيّر عن أعراقه الذهب)

هذه الرابطة دعته أن يستغيث بأخيه ، وأن يطلب إليه الإنعام والعطف وأن يزيل عن نفسه ما انتابها من الريب والشك في جور أخيه ، والتعدي عليه ، هذا الأخ الذي يستحيل عليه أن يتركه في حاله هذا وهو الأدرى به علماً ومعرفة:

أحال رأيك عما كنت أعهد
يا من أموري وأحوالي بأجمعها
عطفاً عليّ وإنعاماً فقد (علقت
إذا حرمت مرادي في زمانكم
إن تظلموا فعليكم أستغيث بكم
رأيت من فعلكم ما أستريب به
(حتى بدا لك أن الدر مشّخلب)
إليه في سائر الأحوال تنتسب
يداي منك بحبل ليس ينقضب)
فما الذي بعده أرجو وأرتقب ؟
مستعدياً ، وإليكم منكم الهرب
وكان أولى به أن تذهب الريب

و ينتقل بعد هذا الفاصل من التأكيد على الممدوح بعدم التخلي عنه، متوسلاً بالرابطة المقدسة التي تربطهما ، رابطة الأخوة إلى ختام النص وذلك بالدعاء له أن يكون منزهاً عن الظلم ، أو عوناً لصروف الدهر عليه فادياً إياه بنفسه وروحه ناعثاً إياه بالملك (جم الصفات) كناية عن الكمال داعياً له بالبقاء :

حاشاكم أن تكونوا عونَ حادثة
أفديك من ملكٍ جم الصفات به
مولاي لا خلت الدنيا وسكانها
(فما بقيتم فأيامي بجودكم
أو ترتمي بي على أيديكم النوب
تطوي الخطوب وفيه تُنشر الخطب
من عدل دولتكم ودامت الحقب
كما أحبّ وأحوالي كما تجب)

وهي كما نرى خاتمة توحى بانتهاء النص حيث " تُوقنُ النفس بأنَّه آخرُ القصيدة " (١) ، حيث تدرج إليها الشاعر تدرجاً طبيعياً فجاء دعاء الشاعر للممدوح بالبقاء تنويعاً لفضائله وثقته بعفويته له فشرع القارئ بأنّ النص قد وصل إلى النهاية.

غير أنّ ثمة نصوص أخرى تلج إلى موضوعاتها ولوجاً مباشراً ، دونما تقيد بالطريقة التقليدية التي اعتادها الشعراء من التقديم لقصائدهم حيث تكون القصيدة ذات موضوع ومغزى واحد ، كما في قصائد الجهاد والغزل والإخوانيات، فهي ذات موضوع واحد ، وينسحب عليها اتجاه عاطفي واحد ، خذ قول الملك الناصر داود في قصيدته التي هنأ بها الإمام المستعصم بالله بالفتح ، بعد انتصاره على التتار سنة (٦٤٣هـ—) ومطلعها (٢):

كذا فليقم من قام لله بالأمر وجاهد فيه بالردينية السمر
والقصيدة ذات موضوع واحد هو تمجيد الخليفة القائم بأمر هذا
الفتح، وتمجيد البطولة ، ويبدو المطلع وكأنه يحمل طاقات شعورية عميقة
، ماثلة للقارئ والتي تظهر للوهلة الأولى عند قراءة القصيدة ، وكأنه
يريد استباق الأبيات ليخوض في غرضه الأساسي:

تهنّ أمير المؤمنين بنصرة أتتكَ من الله القدير على قدر
أهنت عزيز المال في حب نصره فأعطاك بالتهوين عزاً على الدهر
وجدتَ بنفسٍ لا يُجَادُ بمثلها فجوزيتَ بالنصر المُعَجَّل والأجر

(١) أسامة بن منقذ ، البديع في نقد الشعر ، تحقيق : عبد ، علي مهنا ، ط ١ ،

دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ١٩٨٧ : ٤٠٢ .

(٢) الملك الناصر داود ، ديوانه : ٢٢٥-٢٢٦ .

ويمضي الشاعر معبراً عن نشوته بهذا الظفر ، وتمجيده للخليفة
القائم بأمر الجهاد بين حضارتين ، الحضارة الإسلامية بنصرها وتفوقها،
والحضارة الصليبية بكفرها وذللها وضعفها:

لقيت ملوك الترك إذ جاء جمعها	(نجاء) (١) لدين الله بالكرّ والفرّ
فللت ملوكاً ما تسى لهمة	ملوكية قصد لعسكرها المجر
وقابلتهم إذ قابلوك بعزيمة	كعزم رسول الله في غزوتي بدر
وصلت عليهم صولة هاشمية	أذاقتهم كأساً أمراً من الصبر
تركتهم صرعى وأشلاء صيدهم	توزع بين النون والسيد والنسر
وحق لمن قام في نصر دينه	بصدق يقين أن يؤيد بالنصر

ويختتم الشاعر قصيدته بالحديث عن الفوز الذي حققه بالمديح ،
وبهذا الحديث عن الفوز والثناء على الممدوح ختم الشاعر قصيدته:

مدحتك أرجو أن (أزان) (٢) بزينه يُزانُ بها شعري ويعلو بها قدري

وإلا فمن جاء الكتاب بمدحه لفي غنية منه عن المدح بالشعر

وقد كثرت المقطوعات الشعرية في شعر الأسر الشامية ، ولا سيما
في الغزل ، والإخوانيات ، ورثاء المدن ، والغربة ، والنقد الاجتماعي
الذي جاء بشكل مقطوعات قصيرة عبّر من خلالها الشعراء عن
مشاعرهم وأحاسيسهم، وقد تميزت بعض المقطوعات بالإيجاز والتركيز،
حيث أدت المعنى بأقل الكلمات كما اتسمت بقوة العاطفة وحرارتها ، من

(١) غير واضحة من الديوان ، لعلها (تجالد) كما وردت عند ابن واصل .

(٢) وردت أفوز عند ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣٥٥/٥.

ذلك الأبيات التي شكا فيها علي بن منقذ من غربته وتذمره من حكم
الدهر يقول^(١):

فيا أيها الدارُ التي شَطَّ أهلُها	وبالرَّغْمِ مني أنْ سكَانَها شَطُّوا
رَضِيتُ بِحُكْمِ الدهرِ فيكَ وإنَّما	رَضَى من نَاتٍ أَحبابُهُ بالنَّوى سُخْطُ
بهم كانت الدُّنيا التي غَدَرَتْ بهم	كَأَنَّهُم فيها الحَيَا، والورى قَحْطُ
تَزِيدُ بهم هذي البسيطة بسطةً	ومنْ مثلهم يُسْتَحْسِنُ القَبْضَ والبَسْطُ
أعارتهم الأيامُ وارتجعتُهمُ	وكلُّ بخيلٍ في مواهبِهِ ضُبْطُ

ونظم تقي الدين عمر بن شاهنشاه معظم غزلياته بشكل مقطوعات
شعرية ، اتَّسمت بتوهج العاطفة وحرارتها كما جاء في قوله^(٢):

إِنِّي لَأَكْتُمُ لَوْعَتِي وَأُظْنُهُ	يَوْمَ التَّفَرُّقِ بِالمَدَامِ فاضِحِي
لا تَجْمَحُوا في هجركم فَلَرَبَّما	خَشِيَ العِثَارُ على الحِصَانِ الجامِحِ
كم عَنَّفُونِي في هَواكم مَرَّةً	فأبى فَوادي أنْ يُصِيخَ لِناصِحِ

ونظم شعراء الأسر حكمهم وشعرهم التأملي بشكل مقطوعات
قصيرة مستقلة كقول الملك عز الدين (فروخ شاة) في معنى كراهية الظلم
وحب العدل^(٣):

إذا شئت أن تعطي الأمورَ حَقُوقَها	وَتَوَقَّعَ حُكْمَ العَدْلِ أَحْسَنَ مَوَاقِعَها
فلا تصنعِ المعروفَ مع غيرِ أهله	فَظَلَمَكَ وَضَعَ الشَّيْءَ في غيرِ مَوَاضِعَها

(١) أسامة بن منقذ ، المنازل والديار : ٣٠٨ .

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (بداية قسم الشام) : ٩١ ، ٩٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١١٥/٢ .

الصورة الفنية :

يرد تعبير الصورة الفنية، أو التصوير في النقد العربي القديم والحديث مرادفاً لمعنى الإبداع الفني، وكأنّ الفنّ الشعريّ يعني فنّ التصوير، وقد عرّف الجاحظ قديماً الشعر فقال : " الشعر صناعة ، وضرب من النسيج وجنس من التصوير " ^(١)، ويذهب عبد القاهر الجرجاني إلى أنّ حسن الكلام إنّما يكون بحسن الصورة فيقول : " متى حسنت الصورة الأدبية باستكمال حسن النظم، وحسن الألفاظ في مواقعها، فقد حسنَ الكلام " ^(٢).

وقد صارت الصّورة الشعريّة تشكل عنواناً كبيراً في الدراسات النقدية الحديثة ، فانبرى النقاد لتعريفها ، وتوضيح أهميتها ، فقالوا : "بأنّ أهمية الصورة تنبع من قدرتها على شدّ الانتباه للمعنى ، وتتأثر به ، إنها لا تشغل الانتباه بذاتها إلّا لأنها تريد أن تلفت انتباهنا إلى المعنى الذي تعرضه " ^(٣).

ويرى عبد القادر الرّباعي " أنّ قيمة الصورة الشعريّة تكمن في أنّها تعمل على تنظيم التجربة الإنسانية الشاملة للكشف عن المعنى

(١) الجاحظ ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) الحيوان ، تحقيق : عبد السلام هارون ، مصر ، ١٩٦٥ : ١٣٢/٣ .

(٢) الجرجاني ، عبد القاهر (ت ٤٧١هـ) ، دلائل الإعجاز في علم المعاني ، صححه : مُحمّد عبده ، ومُحمّد الشنقيطي ، وعلق حواشيه ، مُحمّد رشيد رضا ، مكتبة القاهرة ، ١٩٦١م : ١٦٨ .

(٣) جابر عصفور ، الصورة في التراث النقدي والبلاغي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٣ : ٣٦٣ .

الأعمق للحياة والوجود ، المتمثل في الخير والجمال من حيث المضمون ،
والمبني بطريقة إيحائية مخصصة من حيث الشكل " (١).

وسوف نعرض لبعض الصور المبتوثة في ثنايا أشعار الأسر
الشامية ، لننتبين أهم المصادر التي استمد من خلالها الشعراء صورهم
الشعرية ، علّها تلقي الضوء على خصائص فنهم الشعري .

ويظهر اهتمام بعض شعراء الأسر الشامية بتوليد بعض الصور
الجديدة ، ممّا أثار إعجاب معاصريهم ، من ذلك الأبيات التالية التي قالها
الأمير مرشد بن علي لأبيه الأمير أبي الحسن علي بن المقلد في غلام
ضربه ، فعلق العماد عليها في قوله : " وما أبدع هذا المعنى وأغربه ،
وأعجزه وأعجبه " (٢)، وهذه الأبيات (٣):

أسطو عليه ، وقلبي لو تمكّن من كفي غلّها غيظاً إلى عنقي
وأستعز إذا عاتبته حقّاً وأين ذلّ الهوى من عزّة الحقّ

وذهب العماد إلى أنّ " استعارة الحق في هذا الموضع ، معنى
مبتكر له حسن الموقع ، فما أقوى هذا التحقيق ، وما أحسن هذا
التطبيق " (٤).

(١) عبد القادر الرباعي ، الصورة الفنية في شعر أبي تمام ، ط ٢ ، جامعة اليرموك ،
الأردن ، ١٩٩٩م : ١٥ .

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٥٥٥/١ .

(٣) المصدر نفسه : ٥٥٥/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٥٥٦/١ .

وعمل شعراء الأسر على استخراج الصور الجديدة وتوليدها من أشعار أسلافهم ، فتشبيه الحبيبة بالشمس والبدر تشبيه تقليدي ، غير أن أبا سعد ابن الغالب بن حصين المعري أخذ هذا التشبيه وأخرجه إخراجاً جديداً ، عندما وصف حبيبته وهي تقف أمام المرأة^(١):

رَأَيْتُ مَرَاتَهَا تَقَابِلُهَا فَقُلْتُ وَالْقَلْبُ فِي تَلْهُبِهِ
كَأَنَّمَا الشَّمْسُ عِنْدَ مَشْرِقِهَا قَابِلُهَا الْبَدْرُ عِنْدَ مَغْرِبِهِ

وقد أعجب العماد بالبيتين السابقين ، ورأى أن الجمال فيهما يكمن " في تشبيه المرأة ، والمرأة المتقابلين بالقمرين إذا تقابلا في المطلع والمغيب محاكيين للحب والحبيب " ^(٢).

ومن الصور المبتكرة عند شعراء الأسر ما جاء به أسامة بن منقذ في معنى الشيب فقال^(٣):

أَنَا كَالدُّجَى لَمَّا تَنَاهَى عُمُرُهُ نَشَرْتُ لَهُ أَيْدِيَ الصَّبَاحِ ذَوَائِباً
وذهب العماد إلى أن معنى هذا البيت " مبتكر في الشيب لم يسبق إليه " ^(٤)، ومن هذه الصور في وصف الصبح ، قول أبي الفضل كمال الدين الشهرزوري ^(٥):

وَلَقَدْ أَتَيْتُكَ وَالنُّجُومُ رَوَاصِدٌ وَالْفَجْرُ وَهْمٌ فِي ضَمِيرِ الْمَشْرِقِ

(١) العماد الاصفهاني، الخريدة (قسم الشام) : ٦٤/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٦٤/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٥٠٤/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٥٠٤/١ .

(٥) المصدر نفسه : ٣٢٦/٢ .

وركبتُ مِ الأهوالِ كلَّ عَظيمةٍ شوقاً إليك لعنا أن نلتقي

وقوله : " والفجر وهمٌ في ضمير المشرق في غاية الحسن ممّا
سمح به خاطر اتفاقاً ، وفاق الكمال إشرافاً وأشراقاً" (١).

ومن مظاهر اهتمام الشعراء بصورهم الشعريّة شيوع ظاهرة
التدوير في التشبيه، وهو تفصيل القول في تشبيه واحد والتركيز عليه ،
ليقرّر معنى معيناً بعد ذلك ؛ على نحو ما نجد في قول ساطع بن عبد
الباقي التتوخي ، يمدح الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب بقصيدة
تحدث في مقدمتها عن مجلس خمرة ، وأطال في وصفه وذكر جزئياته،
وما يدور فيه ، منها (٢):

تُدِيرُ فيها شمسَ الراح في فلك	من الزجاجة أقمارٌ منيرات
يا قوّةً تجتلي من درة ولها	لآلئ من حبابٍ مستديرات
وقتٌ وقد سفك الراوق من دمها	الحرام ما حلت منه الإراقات

ويستغرق عرض هذه الصورة التي تصور مجلس الخمرة ثمانية
عشر بيتاً ينتهي الشاعر إلى مقارنتها بدولة الملك غازي التي كملت
وصفاً :

كانّها دولة الغازي التي كملت وصفاً وعمت رعاياه الرعايات

(١) العماد الاصفهاني، الخريدة (قسم الشام) : ٣٢٦/٢.

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب : ٤٠٩٦/٩.

واتكأ بعض الشعراء على حسن التعليل وهو ما يقصد به " أن يدعي لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقي " (١) ، على نحو ما نجده عند أبي المجد مُحمَّد بن عبد الله التتوخي ، في الأبيات التالية التي التمس فيها أبو المجد التتوخي تعليلاً طريفاً لقلة الشَّيب في رأسه (٢) :

قالتْ رأيتُك لم تشبْ	والشَّيبُ يُسرِع في المُحبِّ
فأجبتُها يا هذه	ما الذنبُ إن انصفتِ ذنبي
أنتِ التي عوّقتِ جيَّـ	ش الشَّيب عن رأسي بقلبي

كما وصف تاج الملوك بوري بن أيوب بهجة وجهه المحبوب في شعره، وكأنه قمرٌ بدا متوهجاً في ليلة ظلماء، وهي صورة تقليدية غير أن تاج الملوك يعلل وقوف عقرب الصدغ فوق خد غلامه تعليلاً جميلاً ، وذلك إذ يقول (٣) :

وكانَ بهجةً وجهه في شعره	قمرٌ بدا في ليلة ظلماء
وكانَ عقربَ صدغه في خده	وقفتْ مخافة ناره والماء

ومن مظاهر اهتمام شعراء الأسر بالصور الشعرية ، تركيزهم على تعدد الصور الشعرية في البيت الواحد أو المقطوعة الواحدة ، كما

(١) القزويني، جلال الدين مُحمَّد بن عبد الرحمن (ت ٧٣٩هـ) الإيضاح في علوم البلاغة، قدّم له وبوّبه، علي بو ملحم: ط٢، دار مكتبة الهلال ، بيروت - لبنان ، ١٩٩١ : ٣٠٨.

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ١٣/٢.

(٣) حسن مُحمَّد عبد الهادي، تاج الملوك لبوري : ١١٩.

في قول الملك الناصر يصف جمال المحبوبة بيت جمع فيه عدّة تشبيهات
متتالية^(١):

لو عاينت عينك حسن معذبي ما لمتني ولكنك أول من عذر
عين الرشا، قد القنا، ردف النقا شعر الدجى شمس الضحى وجه القمر

فشبهه مياسم الحسن في المحبوبة بعين رشا، وبالقنا ، والنقا ،
والدجى، والضحى ، والقمر.

وتكرر هذا النمط من التصوير عند شعراء الأسر، كما في قول ثقة
الملك الحسن بن أبي جرادة يصف قطع الخليج ، وما تخلل ذلك من
المرأى البهيج ، والدعاء والضجيج ، مستمداً تشبيهاته من عناصر
الطبيعة^(٢):

حبّذا كسر الخليج وهو ذو مرأى بهيج
حبّذا ما نحن فيه من دعاء وضجيج
والشّواني فيه تجري كالصياصي في النسيج
نحن في جوّ سماء ما لديها من فروج
كبذور في بُروج أو ملوك في سروج

وقد تنوعت المصادر التي استقى منها شعراء الأسر الشّاميّة
صورهم الشعريّة، فقد تستمد الصورة الشعريّة في شعر الأسر من
أسلافهم القدامى في معانيها القديمة وموروثهم القديم، ولعل هذه الصور
من أكثر الصور الشعريّة في أشعارهم ، ويمكن أن نجتهد في تعليل تعلق

(١) الكتبي ، فوات الوفيات : ٤٢٧/١ .

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٢١٧/٢ .

شعراء الأسر في التراث القديم بسبب طبيعة العصر وما فيه من حروب وأخطار تهدد حضارة الأمة العربية بعدما عبث الغزو بمقتنياتهم الحضارية ، ولا سيّما المصنّفات الأدبية ، وقد أسلفنا قصة أسامة بن منقذ ومصنّفات التي صادرها الصليبيّون ، فكانت حزازة في نفسه، ولعل إحساس بعض الشعراء بالمعاناة من واقعهم جعلهم يشعرون بالحنين إلى ربوع الماضي، فاستحضروا صوراً مستمدة من البيئة التي يغلب عليها طابع البداوة، واستحضروا صورة الناقة ، وصوراً تقليدية أخرى وهذا ما نجده عند الملك الأمجد بهرام شاه في ديوانه الغزلي، ولعله أيضاً لجأ إلى الماضي لأنه وجد فيه الإحساس بالطمأنينة والأمان في وقت شعر فيه بتخلي المجتمع والأسرة عنه، ومن هذه الصور الشعرية المأخوذة من البيئة البدوية صورة البعير ، الذي به هوج في سرعته ، فقد اختار الملك الأمجد مواد التشبيهية لهذا البعير من البيئة الصحراوية، فهو لسرعته يبدو وكأنه يحاذر حيّة كانت تحاذيه لتنهشه، فراح يغذ السير في الظلام مثل الذئب^(١):

يخوض الدجى والقفى لا يعرف الوجا	إذا ما اشتكاه العيس في لا حب السبل
وينصاع في ثني الزمام كأنه	يحاذر صلاً ^(٢) منه أو نهشة الصل
وإن أسدل الليل البهيم ستوره	سرى عنقاً في البيد يغسل كالطمل ^(٣)

(١) الأمجد بهرام شاه ، ديوانه : ١٢٠ .

(٢) صلاً: الحية القاتلة.

(٣) الطمل : الذئب.

ومن المعاني التقليدية القديمة في شعر الأسر : وصف الحبيبة
بالبدر^(١)، والشمس^(٢) والغلام بالطبي^(٣)، والخمر بالشمس^(٤)، والممدوح
كالبحر في عطائه^(٥)، والفرسان كالأسود في قوتها وبأسها^(٦).

ولعل أبرز مصادر الصور التي استقى من خلالها الشعراء
صورهم الشعرية الواقع الحربي في بلاد الشام ، فاستعاروا كثيراً من
صورهم من القتال وما يتعلق به ، فقد رسم الأمجد بهرام شاه لوحة فنية
لمشهد حربيّ توسّل فيه بأساليب متعدّدة ، فظهرت الحركة القوية السريعة
لمشهد الفرسان فوق الخيول، (صورة حركية)، وبدت أصوات تحطيم
الرماح وتكسير السيوف ، وخطاب لسان السيوف، ومنابر الرؤوس
المقطوعة، وحركة الخيول وسط أصوات الأسلحة، مما يحيل اللوحة إلى
ميدان قتال صاخب تآزرت من خلالها الصور الجزئية، جميعاً في بناء
صورة كليّة حافلة بالحركة والحياة تتابعها العين والأذن والخيال معاً ،
يقول^(٧):

وأحماس حرب فوق كلّ طميرة مضبرة المتنين محبوكة القرا
ليوث و غى يوم الكفاح تراهم أقلّ عديداً في اللقاء وأكثرأ

(١) حسن مُحمّد عبد الهادي، تاج الملوك لبوري : ١٤٥، ٢١١.

(٢) المصدر نفسه : ١٤٥.

(٣) الملك الناصر داود ، ديوانه : ٢٧٨.

(٤) المصدر نفسه : ٢٨١، ٢٩٠.

(٥) المصدر نفسه : ٢٢٣.

(٦) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ٢٥٣.

(٧) الملك الأمجد بهرام شاه ، ديوانه : ٣٤٠.

مُعَوَّدَةٌ أَنْ تَتَرَكَ الْبَيْضَ فِي الْوَعَى
بَحِثْ لِسَانُ السِّيفِ يَصْبَحُ خَاطِباً
وَإِنْ أَقْبَلْتَ زَرْقُ الْأَسِنَّةِ شَرَّعاً
بَأَيْدِي رِجَالٍ مَا أَخْفَأَ إِلَى الْوَعَى
رَأَيْتَهُمْ وَالْمَوْتُ مُرٌّ مَذَاقُهُ
أَسْوَدُ تَخَالُ السِّمْهَرِيَّةُ فِي الْوَعَى
يَبِيعُونَ فِي يَوْمِ النَّزَالِ نَفُوسَهُمْ
وَأَمَّا دَعَا دَاعِي الصَّرِيخِ وَأَقْبَلْتَ
يَحْفُونَ بِالْبِزْلِ الْحَرَايِجِ سُهُماً
وَمَنْ كَانَ فِي يَوْمِ اللَّقَاءِ ابْنُ حَرَةٍ
بِعِزْمٍ يُفْلُ الْمَرْهَفَاتِ بِحَدِّهِ

مَحْطَمَةٌ وَالسِّمْهَرِيُّ مَكْسَرًا
وَحَيْثُ يَكُونُ الْهَامُ لِلْسِّيفِ مَنْبِرًا
وَعَايِنْتَ فِي أَطْرَافِهَا الْمَوْتَ أَحْمَرًا
إِذَا مَا دَعَا دَاعِي الْجِلَادِ وَأَصْبَرًا
يَخُوضُونَ مِنْهُ فِي الْمِلْمَاتِ أَبْحَرًا
لَهَا أَجْمٌ وَالْمَشْرِفِيَّةُ أَظْفَرًا
إِذَا مَا رَأَوْا ابْنَ الْمُحَامِدِ يُشْتَرَى
كَتَائِبُ يَحْمِلُنَ الْقَتَا وَالسَّنُورَا
إِلَيْهَا وَبِالْجُرْدِ الْعِنَاجِيجِ ضُمًّا
تَقْدَمُ لَا يَخْتَارُ أَنْ يَتَأَخَّرَا
وَيَهْزِمُ فِي يَوْمِ الْكَرْيَةِ عَسْكَرَا

وقد تكررت في شعر الجهاد صورة الرمح الدائرة ، حتى عز
الصبر معها كما يقول مجد الدين عبد الرحمن بن عمر بن العديم^(١):

وكذلك تأثر وصف الطبيعة بالحياة الحربية، فقد شبه الأُمجد بهرام
شاه لمعان البرق اليماني فوق أسنمة الغمام، بصورة السيف المجلو
يتحرك فيبتز القلوب بوميضه يقول^(٢):

وما لي وللبرق اليمان وقوده
يهتتر كالغضب الصنيع مجرّداً
يبتر قلبي بالوميض اللامح؟
من فوق أسنمة الغمام الرائح

(١) المقرئزي، المقفى الكبير: ٩٠/٤.

(٢) الأُمجد بهرام شاه ، ديوانه : ١١٨.

وشبه القاضي المرتضى الشهرزوري الغدر بالخيول التي تتحرك
في حلبه الهجر، وشبه المكر بالكمين يرصد حركة طلائع الصبر المتجه
نحو القلب، وذلك إذ يقول^(١):

وجالت خيول الغدر في حلبه الهجر وفي شُعب النُعمى كمين من المكر
وجاءت على آثار ذاك طلائع من الصد نحو القلب قاصدة تجري

وجعل الملك الناصر داود للملاحه ميادين تستهوي الأعف الأوثقا،
وتجري بها جيوش الحسن^(٢):

فغدت ميادين الملاحه بضه برواه تستهوي الأعف الأوثقا
أجرى جيوش الحسن فيها عارض ما أنفك في ترتيبها متأنقا

وتكثر الصور الغزلية التي تستمد صورها من الواقع الحربي فهذا
المبارك ابن كامل بن منقذ يصف الحب بالمعركة، ومواطن جمال
محبوبته بالعساكر التي تغير على العشاق^(٣):

وهيفاء ما زالت عساكر حُسنها تغير على العشاق ثارة ثائر
لها في احمرار الخد خال مؤرد به خضرة شفافة للنواظر
فقلت لها: ماذا النجيع الذي أرى وهل صيغ خال قبله من جواهر
فقلت وقد لاح الحياء بوجهها وجالت جيوش السحر بين المحاجر
سفت دماء واشتقت مرائراً فما ذاك إلا من دم ومرائر

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٣٠٩/٢ ، ٣١٠ .

(٢) الملك الناصر داود ، ديوانه : ٢٩١ .

(٣) الفتح البنداري ، سنا البرق الشامي : ١٩١ .

ورسم تقي الدين عُمر صورة لمفاتن الحبيبة فقرن قَدَّها بالرمح
الرشيقي، ونظرة عينها بالسهم^(١):

لها من قَدَّها رمحٌ رشيقٌ ومن أَلحاظٍ مقلتها سِهامٌ
وكثيراً ما صُوِّرت الأَلحاظ وهي ترشق المحبين بسهام الغرام على
نحو ما نجد عند ثقة الملك الحسن بن أبي جرادة^(٢):

وقفنا وللأَلحاظِ في مَعْرَكِ النَّوى سهام غرامٍ في القلوب وقوعها
وجعل ثقة الملك من النظرة سهماً مسدداً من الجفن فقال^(٣):

سَدَّدَ السَّهْمَ من جفونٍ إذا ما فُوقَتْ لم يكن لها من فُواقٍ
وجعل كمال الدين عمر بن العديم انثناء الحاجب كانثناء القسي التي
ترسل بسهامها إلى كبد المحب^(٤):

حَنَّتْ لي قَوْسِي حَاجِبِيهَا وَفُوقَتْ إلى كَبْدي من مُقْلَةٍ العَيْنِ أسْهُمًا
ويصور الملك الأُمجد الحب معركة، وشهيد هذه المعركة هو
المحب الذي تراق دماؤه هدرًا بأسياف الهوى^(٥):

دمٌ أريقٌ بأسيافِ الهوى هَدَرٌ في يوم رامة والأظعان تبتكرُ

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (الشام) : ١٠٧/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢١٢/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٠٣/٢ .

(٤) ياقوت الحموي، مُعْجَم الأَدْبَاء : ٤٦٠/٤ .

(٥) الأُمجد بهرام شاة ، ديوانه : ٢٢١ .

وشبهه الملك الناصر داود مقالة العتاب بالقوس التي تسدد سهامها
نحو الشاعر يقول^(١):

يا قاطعَ الرَّحْمِ التي صلتى لها كُتِبَتْ على الفلكِ الأثيرِ بعسجدِ
سددت نحوي بالعتابِ مقالةً جاءت كسهمٍ للنصالِ مُسدِّدِ

ويستمد شعراء الأسر من عناصر الطبيعة موضوعات لرسم
خطوط لوحاتهم التشبيهية ، كالرياح ، والحدائق ، والثمار ، والخيول ولا
عجب في ذلك فالبيئة الشامية بيئة يغلب عليها طابع الخضرة والحدائق
الغناء؛ فقد رسم القاضي المرتضى صورة لأشواقه الروحية في شعره
الصوفي ، واصفاً ما اعتراه من أحاسيس الطرب والشوق إلى الذات
الإلهية، مصوراً ذلك بمشهدٍ طبيعي جميل ، مجسماً أشواقه تلك بطريقة
طريفة وكأنها حدائق تهتز فيها ثمار الحب، كما أنه جسم معنى الهجر،
فمضى كخيل شاردة مطرودة بعساكر القرب، أما الوصل فشموسه
تخترق بشعاعها الحجب^(٢):

هبت رياحُ وصالهم سَحْراً بحدائقِ للشوقِ في قلبي
واهتز عُودُ الوصلِ من طربِ وتساقطتْ ثمرٌ من الحبِّ
ومضتْ خيولُ الهجرِ شاردةً مطرودةً بعساكرِ القُربِ
وبدت شמושُ الوصلِ خارقةً بشعاعها لسُرادقِ الحجبِ

وقد نزل الأمير عز الدولة أبو الحسن علي بن مقلد بن منقذ مع
جماعة بروضة فيها الشقائق والأقحوان ، فاستحسنوها فنظم الأمير عز

(١) الملك الناصر داود ، ديوانه: ٢٥٧.

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (الشام) : ٣٢١/٢.

الدولة شعراً صور فيه هذا المنظر مشبهاً الشقائق بخدود حسان خجلت
من الحياء والأقحوان بثغور ضاحكة يقول^(١):

كَأَنَّ الشَّقَائِقَ وَالْأُقْحُوَانَ خُدُودٌ تُقْبِلُهُنَّ الثُّغُورُ
فَهَاتِيكَ يُخْجِلُهُنَّ الْحِيَاءُ وَهَاتِيكَ يُضْحِكُهُنَّ السُّرُورُ

ويصور علي بن مرشد بن منقذ الورد بالأمير، مما جعل الأقحوان
يبتسم فرحاً، والمنثور يتلون لقدومه^(٢):

قَدْ قُلْتُ لِلْمَنْثُورِ إِنَّ الْوَرْدَ قَدْ وَافَى عَلَى الْأَزْهَارِ وَهُوَ أَمِيرُ
فَافْتَرَّ ثَغْرُ الْأَقْحُوَانِ مَسَرَّةً بِقُدُومِهِ وَتَلَوْنَ الْمَنْثُورُ

وجعل نصر الله بن عبد المنعم للهو غصوناً وثمرات ، مستخدماً
الألفاظ المتعلقة بالزراعة ، يقول^(٣):

أَغْرَسَ غُصُونُ اللَّهِوْ مَهْمَا تَسْتَطْعُ فَإِنْ بَدَتْ ثَمَرَاتُ لِهَوْكَ فَاقْطِفِ

وصور القاضي المرتضى الشهرزوري الآمال بالغرس ، غير أنه
لا يجنى من ثمارها سوى اليأس ، وذلك إذ يقول^(٤):

وَكَمْ أَغْرَسُ آمَالِي وَمَا أَجْنِي سَوَى الْيَاسِ

وشغف الملك الناصر داود بإيراد الصور المتعلقة بالطبيعة في
وصف محاسن المحبوبة ، فيستعمل الألفاظ الزراعية ، وصنوف أسماء

(١) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم الشام) : ٥٥٧/١.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة : ٢٨٩/٥.

(٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان : ١٠٥/٣.

(٤) العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام) : ٣٢١/٢.

الورود، كالسوسن والبنفسج ، يقول^(١):

ما رأينا من قبل خديه ورداً يانعاً فوق عارض سوسني
كيف يجنى البنفسج الغضُّ منه وهو يُحمى بالناظر السرجسي^(٢)

وكثيراً ما شبّه الشعراء محاسن الحبيبة بالروضة ، كما نرى في
قول الملك المظفر تقي الدين عمر^(٣):

لها روضة من نفسها اجتمعت بها غرائب من حُسن أحاط بها المرط
فمن قدها غصنٌ ، ومن ردفها نقاً ومن خدها وردٌ ، ومن ريقها استفط

وقول تاج الملوك بوري يصور ظيباً من الترك كأنه غصن خيزران^(٤):

ظبي من الترك ذو دلال يستحسن الجور والتعدي
كأنه غصن خيزران إذا انثنى أو قضيب رند

ومن عناصر الطبيعة التي ظهرت في أشعارهم صورة البحر وقد
استعاروا صورة البحر كناية عن الجود والكرم ، كما فعل أسلافهم من
قبل إلا أن الطريف في هذه الصورة أن البحر لا يطفئ ظمأ الواقفين على
شاطئه ، كما في قول الملك الناصر داود في سياق التعريض^(٥):

ومن عجب أني لذا البحر واقفٌ وأشكو الظما والبحرُ جمٌّ عجائبه
وغير ملوم من يؤمك قاصداً إذا عظمت أغراضه ومطالبه

(١) الملك الناصر داود ، ديوانه: ٢٨٩.

(٢) وردت في الديوان السرجسي ولعلها النرجسي.

(٣) العماد الأصفهاني، الخريدة (بداية قسم الشام) : ١٠٠.

(٤) حسن محمد عبد الهادي، دراسة شعر تاج الملوك بوري مع تحقيق ديوانه: ١٥٢.

(٥) الملك الناصر داود ، ديوانه: ٢٢٣.

واستمدّ شعراء الأسر صورهم من عالم الحيوانات ، ومن هذه الحيوانات الزواحف كالحيات ، ولعل أبرز الشعراء الذين استخدموا صورة الأفعى الملك الأمجد بهرام شاه فيها هو يصور جدولاً يجري في دوح مخضل ، وسط روضة غناء بحية بيضاء تسير بين الأشجار^(١):

والدوحُ مخضَلُّ بِقَطْرِ النَّدى في روضةٍ غناءٍ مِغْطَارِ
يَخْتَرِقُ الْجَدُولُ أَرْجاءَهَا كالأيم بين النبع والغارِ

واستمدّ شعراء الأسر الشامية بعض صورهم من الحياة الاجتماعية، فقد استرشد نصر الله بن عبد المنعم الحواري، عناصر الصورة من الحياة اللاهية، حين تغزل بدمشق وقرنها بصورة غلام له عارضان، ومراشف معسولة يقول^(٢):

وإذا طلائعُ عارضيه بدتْ فقلْ قفْ يا عذارُ بخده واستوقفِ
واكشف قناعك إن أردتْ لذادةً لا خيرَ في اللذات إن لم يكشفِ
لا شيء أعذب من تهتك عاشقٍ في عشق معسول المراسف أهيفِ

وتكثر الصور الأنثوية المستمدة من المرأة وما يتصل بها في شعر الأسر الشامية؛ فقد صور أسامة بن منقذ مصر أنثى أتى عليها الهرم بعد أن ردت جميع خطّابها ، ولم يرضها إلاّ صلاح الدين الذي أعاد إليها شبابها ونضرتها بعد أن رأت فيه الخاطب الكفو ، وهي كما نعلم صورة تقليدية طالما لجأ إليها الشعراء في تصوير الفتوحات يقول^(٣):

ديارُ الهوى حياً معالمك القطرُ وجادك جودُ الناصر الغدقُ الهمرُ

(١) الملك الأمجد بهرام شاه، ديوانه: ١١٥.

(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان : ١٠٥/٣.

(٣) أبو شامة المقدسي، الروضتين: ١٢٦/٢، ١٢٧.

به رَجَعَتْ فِي عَنفَوَانِ شَبَابِهَا وَنَضَرَتْهَا مِنْ بَعْدَمَا هَرِمَتْ مِصْرُ
 وَكَمْ خَاطِبٍ رَدَّتْهُ لَمْ يَكُ كَفْأُهَا إِلَى أَنْ أَتَاهَا خَاطِبٌ سَيْفُهُ الْمَهْرُ
 حَمَاهَا حِمَى اللَّيْثِ الْعَرِينِ وَصَانِهَا كَمَا صَانَ عَيْنَا مِنْ مُلَمِّ الْقَذَى شَفْرُ
 واستثارة لمشاعر السلطان الناصر صلاح الدين مثل تقي الدين
 عمر القدس (عروساً بذلت نفسها لهذا السلطان لأنه كفاء لها) (١):
 جَاءَتْكَ أَرْضُ الْقُدْسِ تَخْطُبُ نَاكِحاً يَا كُفْأُهَا، مَا الْعُذْرُ عَنْ عِذْرَائِهَا
 زُفَّتْ إِلَيْكَ عُرُوسٌ خَذِرٌ تَجْتَلِي مَا بَيْنَ أَعْبِدْهَا وَبَيْنَ إِمَائِهَا
 إِيَّاهُ صِلَاحُ الدِّينِ خُذَهَا غَادَةً بَكَرَاءً، مُلُوكُ الْأَرْضِ مِنْ رُقْبَائِهَا
 وتكررت هذه الصورة في شعر الملك الناصر داود إذ رسم لبغداد
 صورة عروس ، زُفَّتْ لِلْبَطْلِ الْخَلِيفَةِ بَعْدَ أَنْ دَافَعَ عَنْهَا وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ (٢):
 رَأَى وَلِيَّ الْأَمْرِ كَفُوءاً فَرَفَهَا إِلَيْكَ تَهَادَى حِينَ أَغْلَيْتَ فِي الْمَهْرِ
 فَجَاءَتْكَ بَكَرَاءً وَانْتَبَتْ وَهِيَ ثِيْبٌ فَأَحْسَنَ بِهَا فِي الدَّهْرِ مِنْ ثِيْبٍ بِكَرٍ
 ومن الصور التي استمدها الشعراء من الحياة الاجتماعية صورة
 المأتم، إذ رسم القاضي المرتضى الشهرزوري للهجر صورة المأتم الذي
 ينوح بها غراب البين ، وسط أحزان الصبر الذي شق أثوابه فقال (٣):
 وَنَاحَ غَرَابُ الْبَيْنِ فِي مَأْتَمِ الْهَجْرِ وَرَقَّقَ حَتَّى شَقَّ أَثْوَابَهُ صَبْرِي
 وَبَانُوا فَكَمْ دَمَعٌ مِنَ الْأَسْرِ أَطْلَقُوا بِخِيَعاً وَكَمْ قَلْبٌ أَعَادُوا إِلَى الْأَسْرِ
 فَلَا تَنْكَرَا خَلْعِي عِذَارِي تَاسَفًا عَلَيْهِمْ فَقَدْ أَوْضَحْتَ عِنْدَكُمْ عِذْرِي

(١) العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام) : ٨٦/٢.

(٢) الملك الناصر داود ، ديوانه: ٢٢٥.

(٣) العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام) : ٣١٠/٢.

كما تظهر بعض المعاني الاجتماعية التقليدية المفارقة بين الناس
 (كالعقم) في شعرهم ، فهذا الأمد يصور المعطاء من الناس بالبحر
 المملوء جوهرأ ، كما أن البخيل بحر بلا عطاء (عقيم)^(١) :
 وما الناس إلا كالبحور، فبعضهم عقيم وبعض معدن للجواهر
 كما استمد شعراء الأسر الشاميّة بعض صورهم من معطيات
 حياتهم الثقافية، فظهرت في صورهم أوصاف الحروف الهجائية ،
 وبعض مسميات العلوم كالبلاغة ، والمواقف الفكرية المتعلقة بالقضاء
 والمحاکمات ، كما ظهرت بعض المظاهر الحضارية المتعلقة بالثقافة
 كالطرس والقلم والأوراق، وهذا شاهدٌ على غنى الحياة الفكرية والثقافية
 آنذاك، فهذا ثقة الملك الحسن ابن أبي جرادة يصور لقاءه بالمحبوبة بعد
 الفراق بالتقاء حَرْفي الألف واللام ، حيث لا يرد هذان الحرفان في
 التعريف إلا متّصلين^(٢) :

ومُضمرٍ في حِشاه من مَحاسنكم	لفظاً هو الدَرّ لا ما يُضمرُ الصدفُ
كنا كغصنين حال الدهرُ بينهما	أو لفظتين لمعنى ليس يختلفُ
فأقصدتنا صُرُوفُ الدهر نائلةً	حتى كأنّ فؤادينا لها هدفُ
فهل تعود ليالي الوصلِ ثانيةً	ويصبح الشمل منا وهو مؤتلفُ
ونلتقي بعد يأسٍ من أحببتنا	كمثل ما يتلاقى اللامُ والألفُ

أما قدّ الحبيبة في شعر أبي المجد المعريّ ، فمعتدل كحرف الألف^(٣) :
 شبهته في اعتدال القد بالألف وبالقضيب قضيب البانة القصف

(١) الملك الأمد بهرام شاه، ديوانه: ٢٤٠.

(٢) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء: ٤/٤٣٩، ٤٤٠.

(٣) العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام) : ٢٢/٢.

وحاجبا الحبيبة في شعر الملك الناصر متقوسان كحرف النون^(١):
وقوست حاجبيها عندما غضبت كما تقوَّس حسنُ الخطِّ في النون
وهذا ثقة الملك يحسد اللام والألف على اتصالهما في كتاب ورد إليه^(٢):
فبتَّ أشتاقُ منه عنبراً أرجأ طوراً وانظر منه روضةً أنفأ
أودَّ لو أنني من بعض أسطره شوقاً وأحسُّدُ منه اللام والألفا
وتظهر في شعر الأسر صور الأوراق والأقلام ، واستمدوا منها
بعض التشبيهات والصور الفنية ، وهذا كما أسلفنا شاهد على تمكن
الكتابة وأدواتها من حياتهم الثقافية . فالمعاني كالشموس التي تبرقعت
بالمداد، والطرس قفر خالية جرت عليها السطور كالرواحل ، على نحو
ما نجد عند عبد الرحمن عمر بن العديم في وصف المعاني الواردة في
كتاب وصل إليه^(٣):

شموس معادنٍ بالمداد تبرقعتُ مخافة أن يغشى عيون النواظرِ
سرى في ظلام النفس طيفٌ حديثكم فيا لك من طيفٍ لعيني وناظري
رأى الطرس قفراً والسطور رواحلاً فوافى إلى صَبٍّ لبعْدك ساهر
وقد استحضروا معاني الثقافة في شعرهم فكانت البلاغة بصورها
أردية ملونة تجلّ الشعر وترصعه، وأثواباً تزيّنه وتكسوه حسناً، يقول
كمال الدين عمر ابن العديم يصف أبياتاً وصلته^(٤):
رَقَّتْ وراقتْ فجاءتْ وهي لابسةٌ من البلاغة والترصيع ألوانا

(١) الملك الناصر داود ، ديوانه : ٢٨٨ .

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (الشام) : ٢٠٦/٢ .

(٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان : ٣١٦/٣ ، ٣١٧ .

(٤) ياقوت الحموي، معجم الأدباء : ٤٥٩/٤ .

حكّت بمنثورها والنظم إذ جُمعا بأحرف حسنت، روضاً وبستانا
جَرّت على جَرول أثوابَ زينتها إذ أصبحت وهي تكسو الحسن حسانا

وقد تكون مصطلحات القضاء والمحاكمات شاهداً آخر على حضور الحياة الثقافية في صورهم الفنية، فقد أقاموا للهوى محاكمة جعلوا له قضاة وكفلاء وغرماء وخصوم ، فالمعشوق هو الخصم الذي يهدد بالفراق وعيونه النجلاء هي القضية والفتوى والجسم المنهك من الهوى هو المتضرر في هذه المحاكمة ، والدموع المنهمرة هي الشهود على هذه القضية، والقلب كان رهيناً لدى المحبوبة، وقد طالبه بالكفيل ولكن عبثاً ، فلا كفيل إلا الغرام ؛ كل ذلك في صورة محاكمة فنيّة تضج بالحياة والحركة والخصوم والشهود وقد تكون شاهداً على نشاط حركة القضاء آنذاك، أو لتعاقب مهنة القضاء في أفراد هذه الأسر، لذلك هيمنت هذه المصطلحات على هذه القصيدة التي قالها مُحمّد بن عبد المنعم بن حواري^(١):

ما ضرّقاضي الهوى العذريّ حين ولي	لو كان في حكمه يقضى عليّ ولي
وما عليه وقد صرنا رعيته	لو أنّه مُغمّد عنا ظبي المقل
يا حاكم الحبّ لا تحكم بسفك دمي	إلاّ بفتوى فتور الأعين النجل
ويا غريم الأسى الخصم الألدّ هوى	رفقاً عليّ فجسمي في هواك بلي
أخذت قلبي رهناً يوم كاظمة	على بقايا دعاوٍ للهوى قبلي
ورُمت مني كفيلاً بالأسى عبثاً	وأنت تعلم أنّي بالغرام مكّي
وقد قضى حاكم التبريج مجتهداً	عليّ بالوجد حتى ينقضي أجلي
لذا قذفتُ شهودَ الدمعِ فيك عسى	أنّ الوصال يُجرح الجفن يثبت لي

(١) الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٤٨ / ٤

لا تسطون بعسال القوام على ضعفي فما آفتي إلا من الأسل
هددني بالقلبي حسبي الجوى وكفى أنا الغريق فما خوفي من البلل

ومن اللافت للنظر تكرر صور هذه المحاكمات ، ولكن على وجه الحقيقة فوصفوا هيئة القضاة في هذه الجلسة وجمال صورهم؛ فهم كالبدور في الظلام والخلائق من حولهم كالنجوم، فإن خطبوا كانوا من أفصح الناس، وإن خطّوا بالأقلام كانوا خير من وشى على الطروس ، وإن قالوا كان كلامهم كالدر وذلك لأنهم يستمدون من الشريعة أحكامهم كما يقول ابن العديم مفتخراً بقومه القضاة^(١):

إذا ما دُعُوا عند النَوَائِبِ إن دجت أنا رُؤَا بكَشَفِ الْخُطْبِ ما كان أظلما
وإن جَلَسُوا في مجلسِ الْحُكْمِ خِلْتَهُمْ بدور ظلامٍ والخلائق أنجماً
وإن هُمْ تَرَقَّوْا مِنْبَرًا لَخُطَابَةٍ فافصحُ من يَوْمًا بوعظٍ تكلّما
وإن أَخَذُوا أَقْلَامَهُمْ لَكِتَابَةٍ فأحسنُ من وشى الطروس ونمنا
بأقوالهم قَدْ أَوْضَحَ الدُّرُّ وَاغْتَدَى بأحكامهم عِلْمُ الشَّرِيعَةِ مُحْكَمَا

ومن المصادر التي استمدوا من خلالها صورهم ، مقتنيات حياتهم الحضارية ومعطياتها وأدواتها. وهذا النوع من الصور يعكس واقع الحياة الاجتماعية ومستوياتها آنذاك ، وما وصلو إليه من مراتب الغنى والترف ولا سيّما أن هذه الأسر كانت تنحدر من أصول عريقة ، وكانت تعيش في مستوى اجتماعي يكتتفه الترف والحياة الكريمة ، فهذا إسماعيل بن أبي عساكر، يصف جامعة دمشق فتظهر في قصيدته ألوان حضارية من الترف والبذخ في تصويره ، فالمحراب من سندس ، ولؤلؤ وزمرد، والزجاج عبقرى مسدل، والمصابيح مدلاة في سلاسل كالأسنة والرماح،

(١) ياقوت الحموي ، معجم الأديباء : ٤ / ٤٦٢

والنافورة من فضة يسيل كالمعين السلسال، يصور كل ذلك في صور
جميلة تستمد عناصرها من واقع مشاهداتهم، وما كان يسيطر على
أذهانهم من معان وصور بصرية، فقبة المسجد (كقلة الماء) ومنبره
كالمعقل، والقباب مزدانة كالعرائس في الحلي والزينة^(١):

وكان جامعها البديع بناؤه	ملك يمير من المساجد جحفا
ذو قبة رفعت فضاهت قلة	ومنابر بُنيت فحاكت معقلا
تبدو الأهلّة في أعاليها كما	يبدو الهلالُ تعاليا وتهلّلا
ويريك سقفاً بالرصاص مُدثراً	يعلو جداراً بالرُخام مزملا

* * *

فكأنما محرابه من سُندسٍ	أو لؤلؤ وزمردٍ قد فصلا
تُلي القرآنُ به وراع بحسنه	فهدي المصيخ وحير المتأملا
وجداره القبلى رام بناؤه	هود فجاب له الصخور واثلا
وتخال طاقات الزجاج إذا بدتْ	منه للحظك عبقرى مسدلا

* * *

وله مصابيحُ لهن سلاسل	تحكى الأسنة والرماح الدبلا
تبدو القبابُ بصحنه لك مثلما	تبدو العرائسُ بالحلي لتجتلا
وعلتْ به فوارةٌ من فضةٍ	سالتْ فظنوها معينا سلسلا
وببابه حركات ساعاتٍ إذا	فُتحتْ لها بابٌ تراجع مقفلا

(١) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق: ٢٥٩/١.

وكما ظهرت مظاهر الترف في وصفهم للمساجد ، ظهرت في تصويرهم لمظاهر حضارية أخرى كبركة الماء ، فهذا أبو حامد الشهرزوري يصف بركة أحاطت بها مظاهر النعيم يقول^(١):

ونحن جميعاً لدى بركةٍ	يروق لنا مأوها الرقرقُ
كان أنابيبها بالجين	من كل ناحية تدفقُ
وفوارة مأوها في السماء	فهي على مثله تعلق
ترد على السحب ما كان جاد	على الأرض صييبها المغدق

ووصف أبو اليسر شاعر بن عبد الله المعري ناعورة مشبهاً عيونها بعيون العاشق ، التي أخذت تذرف الدموع الغزيرة خوفاً من الفراق يقول^(٢):

وباكية حنت ففاضت دموعها	تراها بكت من خوف بين يروعها
لها أعين تجري بأدمع عاشق	وما عرفت عشقاً فمم دموعها؟

وهذا المستوى الاجتماعي الذي عاشته هذه الأسر جعل بعض الصور الحضارية تنتشر في شعرهم بصورة متكررة كصورة اللؤلؤ والعقيق والدر فدموع المحبوبة لؤلؤ ، ومدامع العاشق عقيق ، يشكلان معاً منظومة عقد واحدة على نحو ما نجده في شعر أبي يعلى بن حصين^(٣):

ولما التقينا للوداع فقلبها	وقلبي يفيضان الصبابة والوجد
بكت لؤلؤاً رطباً ففاضت مدامعي	عقيقاً ، فصار الكل في نحرها عقدا

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ١٨٦/٥٥ .

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (الشام) : ٣٥/٢ .

(٣) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٦١/٢ .

وَيَصِفُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ شَمْسَ الدَّوْلَةِ بْنِ مَنْقِذٍ ، غُلَامًا حَسَنَ
الْوَجْهِ بِقَوْلِهِ^(١):

وَأَغِيدُ مُسَبِّحًا لِلْعُقُولِ بِوَجْهِهِ وَثَغْرِ تَبْدَى دَرَهُ مِنْ عَقِيقِهِ
إِذَا لَدَغْتَ قَلْبِي عَقَارِبُ صَدْغِهِ فَلَيْسَ شِفَائِي غَيْرَ دِرْيَاقِ رِيْقِهِ
وَيَقُولُ أَبُو سَلَامَةَ مَرُشِدُ بْنُ عَلِيٍّ فِي إِحْدَى مَدَائِحِهِ وَاصِفًا هَذِهِ
الْمَدَائِحَ بِالْأُفْرِجِ الْمَرْصُوعِ^(٢):

وَرَصَعْتُ فِي عَلِيَّكَ دُرًّا مِدَائِحِ تَخَالُ نَجُومَ الْأُفُقِ فِيهَا قَوَافِيَا
تَحَلَّتْ بِدُرٍّ مِنْ صِفَاتِكَ زَانَهَا كَمَا زَانَ مَنْظُومُ اللَّالِي الْغَوَانِيَا
وَيَصُورُ أَسَامَةُ بْنُ مَنْقِذٍ الدَّرَّ عَلَى نَحْرِ جَارِيَةٍ سُودَاءَ يَقُولُ^(٣):

عَلَى نَحْرِكَ الدَّاجِي زَهَا الدَّرَّ مِثْلَمَا زَهَتْ فِي دِيَاغِي اللَّيْلِ الزَّهْرُ أَنْجَمُهُ
وَتُظْهِرُ بَعْضَ الْأَدَوَاتِ الْآخَرَى كَالشَّمْعِ وَالْمَرَّاةِ ، وَعَلَى الْأَغْلَبِ
تَرْدُ صُورَةِ الشَّمْعَةِ مُعَادِلًا لَذُوبَانِ النَّفْسِ الْمُنْهَكَةِ وَالْأَسَى ، يَقُولُ أَسَامَةُ
بْنُ مَنْقِذٍ رَائِيًا نَفْسَهُ الْحَزِينَةَ^(٤):

أَمْسَيْتُ مِثْلَ الشَّمْعِ: يُشْرِقُ نُورُهُ وَالنَّارُ فِي أَحْشَائِهِ تَتَلَهَّبُ
حَيْرَانًا ، وَجْهِي لِلتَّجَمُّلِ ضَاكِكُ طَلُقْ ، وَقَلْبِي لِلْهَمُومِ مُقْطَبُ
وَيَصُورُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْقَاسِمِ الشَّهْرَزُورِي شَمْعَةً ذَائِبَةً ، مُسْقَطًا عَلَيْهَا
أَحْزَانَهُ فَيَخَاطِبُهَا بَيْنَمَا دُمُوعُهَا تَتَهَمَّرُ وَزَفْرَاتُهَا تَتَلَهَّبُ يَقُولُ^(٥):

(١) الصَّفْدِيُّ ، الْوَافِي بِالْوَفَايَاتِ : ٢٥٢/١٨ .

(٢) ابْنُ مَنْظُورٍ ، مُخْتَصَرُ تَارِيخِ دِمَشْقَ : ١٦٦/٢٤ ، ١٦٧ .

(٣) أَسَامَةُ بْنُ مَنْقِذٍ ، دِيَوَانُهُ : ٢٠٧ .

(٤) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ : ١٠٧ .

(٥) الْعَمَادُ الْأَصْفَهَانِيُّ ، الْخَرِيدَةُ (الشَّامُ) : ٣١٨/٢ .

ناديتها ودموعها
والنار من زفرتها
ماذا التئب والبكا
تحكى سوابق عبرتي
تحكى تلهب زفرتي
ء فأعربت عن قصتي

أما المرأة فترتبط في صورهم بمظهر النساء الحسان، وقد وقفن يتأملن حسنهن، فهذه صفحة الماء وقد انعكست على وجهها صورة الأشجار، والأغصان الملتفة حول النهر متصافحة فبدت كالمرأة وقد وقفت أمامها نسوة ينظرن أيهن أحسن يقول عمر بن العديم^(١):

كَانَ وَجْهَ النِّهْرِ إِذْ حَفَّتْ بِهِ أَشْجَارُهُ فَصَافِحَتُهُ الْأَغْصَنُ
مِرَاةً غِيْدٍ قَدْ وَقَفْنَ حَوْلَهَا يَنْظُرْنَ فِيهَا أَيُّهِنَّ أَحْسَنُ
وصور أبو البركات عبد القاهر بن علي بن أبي جرادة الخط الجميل وقد عكس محاسن الأدب كالمرأة^(٢):

وَالْخَطُّ كَالْمِرَاةِ نَنْظُرُهَا فَتَرَى مَحَاسِنَ صُورَةِ الْأَدَبِ
واتبع شعراء الأسر الشامية في تشكيل صورهم الشعرية أنواعاً مختلفة من التشبيهات والاستعارات، ولم تكن الصورة في أشعارهم جامدة، بل توسل الشعراء في رسمها وطرق تشكيلها بالتشخيص، والتجسيد، والحركة، واللون؛ فإذا الأشياء ترتفع إلى مرتبة الكائن الحي وتستعير صفاته.

وتغلب على شعر الأسر الشامية الصورة التشبيهية؛ ونعنى بالتشبيه في أبسط معانيه " صفة الشيء بما قاربه وشاكله، من جهة واحدة أو

(١) ابن حجر العسقلاني، احمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) الدرر الكامنة في أعيان المائة

الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب، مصر، ١٩٦٦، ٣/٢٦٦.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ٤/٤٤٠.

جهات كثيرة لا من جهاته " (١)، بأداة ملفوظة أو ملحوظة؛ وإذا تتبعنا شعر الأسر الشامية نجد نماذج كثيرة على ذلك .

ونجد أن أكثر الأدوات التشبيهية استخداماً في شعرهم (كأن) ثم حرف (الكاف) وهذا أسامة بن منقذ يصف الأساطيل وقوتها في البحر فيقول (٢):

غزوتهم في البحر حتى كأنما الأساطيل فيه موجة المتلاطم
بفرسان بحر فوق دهم كأنما على الماء طير مألهن قوادم
فالأساطيل غدت في وسط البحر موجة قوية بحركتها وقوتها،
وفرسان البحر بدوا وكأنهم يركبون الخيول، وراح يصور الخيول في
سرعتها ونشاطها في البحر كسرعة ونشاط طير الماء وقدّم الشاعر
صورته في تشبيه تمثيلي.

وفي موضع آخر يستخدم مرشد بن علي الأداة (كأن) ليمنح
القارئ إحساساً بالصورة، مشبهاً نفسه في تجاهله الإساءة عن كل
صاحب وعدم الرد عليه بالجماد الذي لا يحفل بما يلقي ، يقول (٣):
تجاهلت عما ساء من كل صاحب كاني جماد لا أحس بما ألقى
وهذا حميد بن منقذ يستخدم تشبيه التمثيل في وصف الخمرة،
فيقرنها بدموع الصب في صفائها ونقاء لونها ، مشبهاً الحباب البيضاء

(١) ابن رشيق القيرواني، العمدة : ٤٨٨/١ .

(٢) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ٢٧٦ .

(٣) أسامة بن منقذ، لباب الآداب : ٣٨٦ .

التي علتها الفقاقيع، بصورة وجه المحب الأحمر الذي علتة الدموع
الصافية البيضاء ثم بصورة الذهب الذي علتة الفضة يقول^(١):

وقهوة كدموع الصب صافية تكاد في الكأس عند الشرب تلتهب
يطفو الحباب عليها وهي راسبة كأنه فضة من تحتها ذهب

ثم يأتي حرف الكاف في تشبياتهم، وهذا الملك الناصر داود يشبه
قد الحبيبة بالغصن القويم، وإذا ما تثنت فإنها تحاكي اهتزاز القضيب
على الكتف يقول^(٢):

وهيفاء كالغصن القويم قوامها تثب كما اهتز القضيب على الكتف
بوجه له حسن الهلال إذا بدا وقد جنحت شمس النهار إلى الغرب
ويبدو الليل عند ثقة الملك الحسن بن أبي جرادة طويلاً ليس له من
سحر كيوم الحساب^(٣):

وليل كيوم الحسا ب ليس له من سحر
كما اتكأ شعراء الأسر على الأسماء والأفعال في تشبيعاتهم، نحو
(شبه)، (تخال)، وهذا تاج الملوك بوري يشبه قد أحد غلمانه بالرُمح في
اعتداله ولحظه بالسيف مستعيناً بأدوات التشبيه مثل (شبيه) (تحكي)
يقول^(٤):

أيا حامل الرُمح الشبيه بقده ويا شاهراً سيفاً حكى لحظة عضبا

(١) ياقوت الحموي ، مُعجم الأدباء: ١٢٢٦/٣.

(٢) الملك الناصر داود ، ديوانه: ٢٨٤.

(٣) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٢٠٨/٢.

(٤) العماد الأصفهاني، الخريدة (بداية قسم الشام) : ١٣٧.

وهذا تقي الدين عمر استخدم الفعل (تحكي) فوجه المحبوبة كالبدن إذا أماطت عنه اللثام، في حين شبه صورتها وهي تضع اللثام بصورة الهلال يقول^(١):

تريك البدن إن سَفَرَتْ وتحكي هلالاً حين يسترها اللثام
واتكأ الأمير مرشد بن علي على الأداة الظنية (تخال) للربط بين طرفي الصورة التشبيهية يقول^(٢):

ورصعتُ في عليكِ دُرَّ مدائحٍ تخالُ نجومَ الأفقِ فيها قوافيا
ومن أنواع التشبيه التي اعتمد عليها شعراء الأسر (التشبيه البليغ) وهو التشبيه بدون أداة ، وبذلك يقترب من الاستعارة^(٣)، وذهب القزويني إلى أن الباعث من وراء ترك التشبيه كقولك (زيدٌ أسد في الشجاعة) لأن " فيها نوع قوة " ^(٤)، وقد أجاد شعراء الأسر في هذا النوع من التشبيه على نحو ما نجده عند الملك الناصر داود في وصف الصحراء ، فأشجار الصحراء نيع، والحجارة سيوف ، والأعشاب نبل ، والمياه دم ، وهي صورة للطبيعة مستمدة من الواقع الحربي، وقد خلت من أدوات التشبيه وهذا يضيفي على الصورة مزيداً من التأكيد وكأنها هي ذاتها المشبه به يقول^(٥):

فأشجارها نيعٌ، وأحجارها ظبيٌّ وأعشابها نبلٌ، وأمواؤها دمٌ

(١) العماد الاصفهاني، الخريدة (بداية قسم الشام) : ١٠٧.

(٢) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق : ١٦٦/٢٤.

(٣) عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في شعر أبي تمام: ٢٠٤.

(٤) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة : ٢٢٧.

(٥) الملك الناصر داود، ديوانه: ٢٣٦.

ومن أنواع التشبيه التي اعتمد عليها شعراء الأسر (التشبيه المقلوب) وهو " جعل المشبه مشبهاً به بادعاء أن وجه الشبه فيه أقوى وأظهر " (١)، ومن ذلك ما نجده في وصف بطولة العائلة اليوسفية ومآثرها في الحرب عند الشاعر التنوخي ساطع بن عبد الباقي حيث جعل الشاعر من عناصر الطبيعة المرئية كالليل والرعد والبرق صوراً شبيهها بما صنعه الأبطال في أرض المعركة، وكأن أفعالهم من إثارة للغبار، وصهيل الخيل، وبرق السيوف هي الأصل الذي تستمد منه الطبيعة سماتها ، فالليل يشبه أرض المعركة، كما أن الرعد يشبه صهيل الخيل، والبرق يشبه لمع سيوف الأبطال وهذا كناية عن إحساس الشاعر بأصالة ما فعله الأبطال ، وثبات أفعالهم يقول (٢):

إذ بدا الليل نقعاً والرعود صهيل الجرد والبرق بيض مشرفيات
والسمهرية كالأشطان واردة خرساتها شرع والسحب هامات
وكما نلاحظ فإن الشاعر شكل صورته بغير فن من فنون البلاغة فصورة الليل نقع (صورة بصرية)، والرعود صهيل الجرد (صورة صوتية) والبرق بيض مشرفيات (صورة بصرية حركية) .

وقد اعتمد شعراء الأسر على الصور الاستعارية في بناء صورهم الشعرية والاستعارة تعني " أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيئ إلى رسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه " (٣)، وجعل ابن رشيق الاستعارة من محاسن الكلام، فهي أفضل

(١) علي الجارم، البلاغة الواضحة ، ط١٧، دار المعارف، مصر ، ١٩٦٤ : ٥٩ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب : ٤٠٩٧/٩ .

(٣) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، صححه : محمد الشنقيطي ، علق عليه محمد رشيد رضا ، ط١ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٩٤ : ٦٠ .

المجاز، وأول أبواب البديع "وليس في حُلِّي الشعر أعجبُ منها" ^(١)، ومن الملحوظ أن الاستعارة من أكثر أنواع البيان استخداماً في شعر الأسر الشاميّة، ولعلمهم مالوا إلى استخدامها لأنها تساعد " بحيويتها ورشاققتها وعمق دلالتها على أداء المعنى مصوراً، وذلك لأنها تحول الجماد إلى ناطق، وتبرز دور الكلمة في تأثيرها في الآخرين، لما فيها من حذف يترك القارئ يمكن الصورة ويعمل فكره فيها " ^(٢)، من ذلك ما نجده عند ساطع بن عبد الباقي التنوخي يقول ^(٣):

أسد لها السرد لبد والظبي عوض من البراثن والأرماح غابات
وفي كلمة (الأسد) استعارة، فقد شبه الأبطال بالأسد غير أنّه أخفى المشبه به ثم استعار القرينة اللفظية له المانعة من إيراد المعنى الحقيقي وهي (الظبي عوض ، الأرماح) .

ويستعير أبو المجد مُحمّد بن عبد الله التنوخي للحاكم الذي لا يتقن الإحسان للرعيّة صورة (القرد) إمعاناً في السخرية منه يقول ^(٤):

كن ساجداً للقرد في زمانه ومُدّ للجاهل في عِنايه
وداره وخَلَّه لشاناه فإنّه يعثرُ في ميدانه
وكثرت الصور الاستعارية التي اتخذت من التشخيص أداة لبنائها مما أضفى على الصور الجامدة الحياة والحركة .

(١) ابن رشيق القيرواني ، العمدة : ٤٦٠/١ .

(٢) زينب مُحمّد صبري ، الصورة الفنية في الشعر العربي خلال العهد العثماني مجلة الأحمدية ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ، ع ٩ رمضان ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م : ٢٢٤ .

(٣) ابن العديم، بغية الطلب: ٤٠٩٧/٩ .

(٤) العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام) : ٣٠/٢ .

ولعل من أجمل الصور الشعرية التي ضجت بالحركة والحياة بعد أن استمدت عناصرها من واقع الإنسان وحركاته، وسكناته وضحه وبكائه، ما قاله الملك الناصر داود حين صور في مقدمته المدحية منطقة الكثيب حين ألم بها الغيث، فشخص الأمطار وكأنها إنسان لاحت ذوائبه على ظهر الكثيب، وقهقهت رعوده في تلك الربوع وبكت سحائبه على تلك الطلول يقول^(١):

ودان، ألت بالكثيب ذوائبه وجنح الدجى وحفّ تجول غياهبه
تقهقه في تلك الربوع رعوده وتبكي على تلك الطلول سحائبه
وتتوالى الصور الحركية، فيصور عن طريق التشخيص أيضاً مقدم الصبح وهروب الليل خائفاً مرعوباً في تلك الربوع بعد تلك الليلة الماطرة:

إلى أن بدا من أشقر الصبح قادم يراع له من أدهم الليل هاربه
ومن الصور التشخيصية التي بعثت الحياة والحركة في الأشياء الجامدة ما ورد عند الأمير علي بن مرشد؛ فقد شخص البين باليد التي جارت عليه^(٢)، وشخص إسماعيل بن سلطان بن منقذ الأيام باليد التي رمته بالسهم^(٣)، وشخص محي الدين الشهرزوري الزمان باليد التي رمته بقوس الغدر^(٤)، وشخص الملك الأمجد الأرض بفتاة تبسم ثغرها

(١) الملك الناصر داود ، ديوانه : ٢٢١.

(٢) أسامة بن منقذ ، المنازل والديار : ٧٦.

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب : ١٦٤٠/٤.

(٤) العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام : ٣٣٢/٢.

زمن الصبا^(١)، وشخص الملك الناصر الرياض بالثغور الضاحكة ،
والربيع بلسان يُثني بعبارات الشكر والمديح^(٢).

كما اتكأ شعراء الأسر على التعبير الكنائي ، فهذا أسامة بن منقذ
يكني عن القوة والشجاعة والنصر، بالناب الحديدية والظفر، يقول في
وصف الجند^(٣):

لهم في الوغى النَّابُ الحديدُ والظُّفَرُ هم الأسد من بيض الصَّوَارِمِ والقَنَا
والملك الناصر داود كنى عن حزنه ببكاء عيون القلب فقال^(٤):

تضاحك ثغر الرأس بالشيب أبيضاً فأبكى عيون القلب بالأدمع الحمر
أما ثقة الملك الحسن بن أبي جرادة فقد كنى عن الفراسة التي تميز
بها ممدوحه في قوله^(٥):

حديذ الطرف في فعل جميل وقور السمع عن قول قبيح
مددت يدي إليه فشدّ أزري وذاد نوائب الدهر اللّحوح

اعتمد شعراء الأسر من خلال كنيائهم على صورة الرمز " وهو يعتمد
على الإحالة إلى شخصية معروفة في التاريخ، دينية أو غير دينية،
ويكون استدعاؤها في مخيلة الأديب وسيلة للتعبير عن حالة مادية أو
معنوية، ولذلك فإن المشبه به يكون أقوى دلالة وتأثيراً"^(٦).

(١) الملك الأمجد بهرام شاه ، ديوانه: ١١٩.

(٢) الملك الناصر داود ، ديوانه : ٢٩٠.

(٣) أسامة بن منقذ ، ديوانه: ٢٥٣.

(٤) الملك الناصر داود ، ديوانه: ٣١٤.

(٥) العماد الأصفهاني ، الخريدة (الشام) : ٢/٢١٤ - ٢١٥.

(٦) مجلة الأحمدية ، العدد التاسع ، ٢٠٠١ ، الصورة الفنية : ٢٢٨.

ولعل أكثر شعراء الأسر استحضاراً لهذه الصور الملك الناصر
داود الذي لاذ برب العباد من ظلم العشيرة له، وقد حشد كثير من صور
الأنبياء للتعبير عن معاناته فاستحضر قصة سيدنا إبراهيم، الذي أحرقه
أهله وأقاربه بالنار، فكانت بأمر ربها برداً عليه، كما استحضر قصة
سيدنا يونس (وقد ضمه بطن من الحوت مظلم) فأخذ ينادي ربه،
واستحضر قصة سيدنا يعقوب وحزنه العميق، فرد إليه ربّ العزّة بصره
(بالقميص)، وبذل بؤسه نعيماً، واستحضر صورة يوسف وهو في
السجن، فردّه رب العزّة إلى مكانته، وردّ عليه ملكه، وساق إليه والديه
وإخوته، واستحضر قصة موسى، وعصاه التي شقت البحر؛ فنعم بالأمن
من بعد ضيقه^(١):

ألست الذي لاذ الخليل بلطفه	ونمرود في إجهاضه متجهضم
تردّده في مارج النار سلطه	وألهوبها في الجو يضري ويضرم
فقلت لها: كوني، فبرد حرها	وأمرّك في الأكوان يجري ويجزم
ويونس إذ يدعو رجاءً وخيفة	وقد ضمه بطن من الحوت مظلم
يناديك فيه وهو يمرّخ بطنه	يساجل أحياناً وحيناً تبسم
فردّ من البلوى محاطاً مسلماً	ومن مركز البلوى يحاط المسلم
ويعقوب إذ وافا نداك مسلماً	وإياك في الحاجات يأتي المسلم

* * *

رددت إليه بالقميص (بصاره)	تكفّفه داء العمى وهو أبهم
ويوسف إذ بالسجن قدّرت ملكه	فعاد إليه الطرف وهو مطهم
وسقت إليه والديه كليهما	وإخوته والأمر للأمر يبرم

(١) الملك الناصر داود ، ديوانه : ٢٦١ - ٢٦٢

وموسى غداة البحر والبحر زاهر
أمرت به فانشق طوعاً أديمه
فنعمة بالأمن من بعد خيفة
وأحمد إذ أخفيته لظهوره
وأودية تخطو الجبال وتحطم
لديه كما شق الرداء المسهم
وكل شقي فيك فهو المنعم
يواريه شق من تهامة أبكم

كما استثمر الأمير مرشد بن علي قصة سيدنا أيوب وصبره على المرض فشبه حاله وهو في السجن في صراعه مع البراغيث ، التي لبس منها قميصاً لو لبسه أيوب لاشتكى من الألم ، ويبدو لي أن الشاعر رمز بذلك إلى صبره على أقاربه فاستخدم في مقطوعته الثقافة الدينية ووظفها، ورغم مرارة الحال التي يعيشها صاحب الشعر فإننا نشعر بأن المقطوعة ساخرة يقول^(١):

صاحبت من براغيث أظل بها
كأنما صبحه قد ضل أو عدما
مكلاً من براغيث أظل بها
أعض كفي من ذلي بها ندما
لبست منها قميصاً لو تقمصه
أيوب لحظة عين لاشتكى ألما

كما رمز شعراء الأسر إلى الحب الإلهي بالخير وأبرز هؤلاء الشعراء الملك الناصر داود، وما هو يرمز بروضة الخمر إلى نشوة الحب الإلهي^(٢):

فهاتها قهوة شذاها
كنفحة الغبر المصون
كانت مع الدهر في ابتداه
قبل تجزيه في السنين
كالمشتري حل في الثريا
من كف خمصانة فتون

(١) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر : ١٦٨/٢٤ .

(٢) الملك الناصر داود، ديوانه: ٣١١ .

كما اتكأ شعراء الأسر على الألوان في بناء صورهم، فبرز اللون الأسود بشكل واضح . فاستخدموه لوصف جمال شعر المحبوبة، وهذا الملك الأمجد يصور غدائر الشعر السوداء التي اتخذت من الظلام لوناً؛ فكانت من خير حلى الشعور^(١):

وتَقَلُّ من لونِ الظلامِ غدائراً سَفْعاً وخيرُ حَلَى الشعورِ الأسْفَعُ
ويستعين مرشد بن علي بالألوان لرسم أقسام العمر: من شباب، وكهولة، وشيخوخة، وما يعتري كل مرحلة من أحوال وألوان للمشيب فبدأ شعراً (أسود) يمثل مرحلة الشباب، ثم (رمادياً) يمثل مرحلة ما بعد الشباب، ثم اللون (الأبيض الناصع) الذي يمثل مرحلة الكهولة والشيخوخة يقول^(٢):

إنَّ اللَّيالي أَنْذرتُ بفراقٍ من أهوى ووالَّتْ رُسُلُهُنَّ جثائِ
ألبسنني من كلِّ لونٍ صبغةً قسمتُ حياتي بينها أثلاثا
لونا غذاً فياً وَلَوْناً أَشْهباً أضحتُ حبالَ العيشِ منه رثائِ
وأنتَ بلونٍ بعد ذلكِ ناصعٍ عادتُ قُواي لنقضهِ أنكاثِ
واستحضر أسامة بن منقذ صورة الطرس، وهو بلا قيمة إذا ما وشي بسواد المداد يقول^(٣):

ونورُ الشيبِ مكروءٌ وتهوى سوادَ الشعرِ أصنافُ العبادِ
وطرسُ الخطِّ ليس يفيدُ علماً وكلُّ العلمِ في وشي المدادِ

(١) الملك الأمجد ، بهرام شاه، ديوانه: ٢٤٣.

(٢) أسامة بن منقذ، لباب الآداب: ٣٧٥.

(٣) ياقوت الحموي ، مُعجم الأدياء: ٥٧٨/٢.

ولا يعني هذا أن اللون الأسود هو اللون الغالب؛ إنما استخدم الشعراء ألوان الجواهر من لؤلؤ وعقيق، وقد سيطر عليها اللون الأبيض الصافي كما أسلفنا.

كما استخدم الشعراء اللون الأحمر، والذي غالباً ما يقترب بلون الدماء في شعر الجهاد وهذا أسامة بن منقذ يصف دماء الأعداء التي امتزجت بمياه البحر بقوله^(١):

دماؤهم في البحر حمراً سواحٍ وهامهم في البرّ سُحماً جوائمُ
ولم يقتصر اللون الأحمر على لون الدماء؛ إنما قرن الملك الناصر الدموع باللون الأحمر كناية عن حزنه فقال^(٢):

تضاحك ثغر الرأس بالشيب أبيضاً فأبكى عيون القلب بالأدمع الحمر
ووردت في أشعارهم الصورة السمعية ، ولا سيما في خطاباتهم التي كانوا يرسلونها إلى أحبّتهم على نحو ما نجد عند عبد الرحمن بن عمر بن العديم يقول^(٣):

إيه نسيم الصبا كرر حديثهم في مسمعي فحديث القوم أسمارُ
بالله يا نسمة الوادي عسى خبر يهديه عنهم إلينا الشيخ والغارُ
ولا تقولي غداً آتي به سحراً فكل أوقات من أهواه أسحارُ
ويأتي الملك الناصر داود بصورة الحديث العذب بين الأحبة الذي يؤنس النفس ويعللها يقول^(٤):

(١) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ٢٧٦ .

(٢) الملك الناصر داود ، ديوانه : ٣١٤ .

(٣) محمد الطباخ ، إعلام النبلاء : ٤٧٨/٤ .

(٤) تقي الدين الحنفي ، الطبقات السنية : ٢٢٨/٣ .

كَرَّرَ عَلَى نَازِحٍ شَطَّ الْمَزَارُ بِهِ حَدِيثُكَ الْعَذْبَ لَا شَطَّتْ بِكَ الدَّارُ
وَعَلَّ النَّفْسَ عَنْهُمْ بِالْحَدِيثِ بِهِمْ إِنْ الْحَدِيثَ عَنِ الْأَحْبَابِ أَسْمَارُ

كما استخدم الشعراء الصورة الذوقية على نحو ما نجد عند الملك
الأمجد بهرام شاه يقول^(١):

ذُقَ النَّمِيرَ الَّذِي اسْتَعَذِبْتَ مَشْرِبُهُ جَهْلًا فَأَصْبَحْتُ لَمَّا غَاضَ مَلْتَا حَا
ونجد أحياناً تراسلاً للصور وهو " أَنْ يُعْطَى صِفَاتٌ إِحْدَى الصُّوَرِ
الْأُخْرَى"^(٢)، على نحو ما نجده عند القاضي أبي البركات علي بن أبي
جرادة^(٣):

قَنَعْتُ بِأَنْ أَرَاكَ بَعِينٍ سَمْعِي عَلَى أَنْ اشْتِيَاقِي فِي اتِّقَادِ

(١) الملك الأمجد بهرام شاه ، ديوانه: ١٢١.

(٢) عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية: ١٨١.

(٣) العماد الأصفهاني ، الخريدة : ٢٢٢/٢.

الأسلوب واللغة :

تنبه النقاد القدامى إلى أهمية الربط بين موضوعات الشعر والأسلوب الذي يرد فيه، وذهب ابن الأثير إلى ضرورة الانسجام بين الموضوع والأسلوب فقال: " الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف، وأشباه ذلك ، أما الرقيق منها ، فإنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام البعاد واستجلاب المودات، وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك" (١) ، ومعنى ذلك أن لكل غرض شعري أسلوباً يتلاءم معه، فشعر الغزل يناسبه الأسلوب الرقيق السلس ، وهو غير الأسلوب الذي يناسب شعر الفخر الذي يتطلب الألفاظ القوية ، وهذا ما ألمح إليه القرطاجني الذي يرى " أن يستعمل في كل طريق الألفاظ المستعملة فيه عرفاً لأن ما كثر استعماله في غرض ما واختص به أو صار كالمختص لا يحسن إيرادُه في غرض مناقض لذلك الغرض، ولأنه غير لائق به لكونه مألوفاً في ضده وغير مألوف فيه..." (٢) .

وبعد قراءة شعر الأسر الشاميّة نستطيع القول أن معظم شعراء الأسر الشاميّة حرصوا على المواءمة بين أغراضه الشعرية وأساليبه الفنية؛ فجاءت لغتهم منسجمة مع الموضوعات الشعرية ولا سيما في معاني الشعر التقليدية، على نحو ما نجده عند الملك الأمجد تقي الدين

(١) ابن الأثير ، ضياء الدين ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ٢٤٠/١٠ .

(٢) أبو الحسن ، حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء : ٣٦٤ .

بهرام شاة الذي سلك سبيل الشعراء الأقدمين، فبدأت قصائده بالوقوف على الأطلال، وبكاء الأهل والأحباب الراحلين عنها، ووصف الناقة وما تعانيه في رحلتها إلى الأحباب، والافتخار بقوته وشجاعته في اقتحام المخاطر والأهوال ، واستطاع الملك الأمجد أن يصوّر البيئة البدوية الصحراوية تصويراً دقيقاً " فانتخب من الألفاظ أجزلها، وسلك في النظم أمتن سبله، وكأنه أراد أن يبتعد عن كل ما كان في بيئته الرقيقة، ونزح إلى البوادي والقفار، وما له صلة بها من إنسان ، وحيوان ، ونبات..... ومن يتخذ لنفسه بيئة كهذه فهو أميل إلى الجزالة والمتانة منه إلى الرقة والسهولة والسلاسة.." (١)، كما في الأبيات التالية التي يبث فيها جواً صحراوياً ، ويصطنع الألفاظ القويّة ، والتعابير الجزلة الرصينة (٢):

أترى تُبَلِّغني الأحبة عِرمس ^(٣)	وجناء تهزأ بالنعام السارح؟
كالهيق بين نجائب مزمومة	قلص ترامى في الفلاة روازح ^(٤)
من فوقهن عصابة قد هونوا	في الحب روعة كل خطب فادح
بعد الحباب عنهم فتوقلوا ^(٥)	أكوار عيس كالقسي طلاح
تدني مناسمها الديار وقد نأت	عنها فتصبح وهي غير نوازح

(١) الملك الأمجد بهرام شاه، ديوانه: ٦٨.

(٢) المصدر نفسه: ١١٨.

(٣) العرمس: الناقة الصلبة الشديدة.

(٤) الروازح: الإبل الشديدة الهزال.

(٥) توقلوا: صعدوا.

من دونها ببداء طامسة الصوى^(١) بهماء^(٢) ذات أماعز^(٣) وصحاصح

جاوزتها بأيانق، أدمى الوجا أخفافهن ، إلى بريقة سافح

فسقى عراص الدار مزن هامع يبكي على ضحك البريق اللاح

كما كانت معاني الشعر تقليدية مكررة في المديح؛ إذ نعتوا الممدوح بكثير من الصفات والمناقب الحميدة التي طالما ردها القدماء، وجاءت لغتهم جزلة الألفاظ، واضحة المعاني، مع مبالغة في الأوصاف، كما في قول الملك الناصر داود يمدح الإمام المستنصر بالله^(٤):

له العزمات اللائي لولا نصالها تزعزع ركن الدين وانهد جانبه
بصير بأحوال الزمان وأهله جدود، فما يخشى عليه نوائبه
بديهة تغنيه في كل مشكل وإن حنكته في الأمور تجاربه
حوى قصبات السبق مذ كان يافعا فأربت على زهر النجوم مناقبه

واصطنع شعراء الأسر في الحماسة وأشعار الجهاد الألفاظ الفخمة، والتعابير الجزلة، والصور الموحية بالقوة والفخامة، فجاءت لغتهم في هذا الغرض متلائمة تماماً مع الموضوع ، وأشار القرطاجني إلى هذا الغرض وما يجب أن تكون عليه الألفاظ فرأى " أن تُفخَّم العبارات وتُهَوَّل الأوصاف .. وتحسُن الإحالة على التواريخ في هذا الموضع "^(٥).

(١) الصوى: أعلام من حجارة منصوبة في الفيافي المجهولة يستدل بها على الطريق .

(٢) بهماء: خفية لا تستبين.

(٣) أماعز : أرض حزنة غليظة ذات حجارة.

(٤) الملك الناصر داود ، ديوانه: ٢٢١ - ٢٢٢.

(٥) أبو الحسن ، حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء : ٣٠٦.

ويطالعنا في هذا الموضوع قصيدة أسامة بن منقذ التي تصف
البطولة والأبطال ومطلعها^(١):

أبى الله إلا أن يكون لنا الأمرُ لتحيا بنا الدنيا ، ويفتخر العصر

وقد استخدم الشاعر في قصيدته السابقة اللغة الجزلة الرصينة ،
والألفاظ الفخمة ، والصور الموحية بالقوة والفخامة ، كما في قوله:

صوارُنا حمرُ المضارب من دمٍ قوائمها من جودنا نضرة خضرُ
نسيرُ إلى الأعداء والطير فوقنا لها القوت من أعدائنا، ولنا النصرُ
فبأسٍ يذوب الصخرُ من حرّ ناره ولطفٌ له بالماء ينبجسُ الصخرُ
وجيشٌ إذا لاقى العدو ظننتهم أسودَ الشرى عنت لها الأدمُ والغفرُ

ويبدو هذا الأسلوب أيضاً في أشعار الملك الأمجد بهرام شاه
الحماسية ، على نحو ما نجده عنده في وصفه للخيل في المعركة،
وحركة السيوف المقاتلة^(٢):

وجراءُ مثلَ الريح تسبقُ ظلّها إلى الغاية القصوى ، وأجردُ شيطمُ
وفي كلِّ وجهٍ للمهندِ مضربُ وفي كلِّ نحرٍ للمثقفِ لهذمُ
وفي كلِّ أرضٍ من سنايكِ خيلهم عجاجِ مثارُ في العنانِ مخيمُ
وللأرضِ ثوبٌ بالنجيعِ مخضبُ وللشمسِ وجّةٌ بالقتامِ ملثمُ

بيد أن شعراء الأسر الشامية حرصوا على أن يصفوا شعرهم من
الألفاظ الغريبة، والتراكيب الوعرة، باستثناء بعض الألفاظ التي نجدها
متناثرة في ديوان الملك الأمجد إذ يقول^(٣):

(١) أسامة بن منقذ، ديوانه: ٢٥٣.

(٢) الملك الأمجد بهرام شاه، ديوانه: ١١٢، ١١٣.

(٣) المصدر نفسه : ٣٣٤.

يا أيها النظمُ قد أغربتُ فيك وقد أغربتُ، والحقُّ شيءٌ ليس يندفعُ

ومن هذه الألفاظ الغريبة التي ذكرها الملك الأمجد - على سبيل

التمثيل - (مُتَعَجَّر) وتعني السائل من الماء ووظفها في شعره قائلاً^(١):

مُتَعَجَّرًا مَلَأَ الْغَيْطَانُ زَاخِرَهُ فساخَ في الأرضِ رِيًّا بعدما سَاحَا

وجاء بلفظة (الهرجاب) وتعني الناقة الطويلة الضخمة^(٢):

حُرِمْتُ لَذِيذَ الْعَيْشِ، لَمَّا تَرَحَّلْتُ بِكَ الْعَرِمُسُ الْهَرْجَابُ، يَا رَبَّةَ الْخَدْرِ

ويبدو أنَّ معظم شعراء الأسر الشاميَّة آثر الأسلوب المُتَّسِم بالرقَّة

والعذوبة الذي يناسب طبيعة معظم أغراضهم الشعريَّة ، ولعل هذا الملمح

الأسلوبي قد اتضح في كثير من الشعر الذي ورد في فصول هذه

الدراسة، ولاسيما الاتجاه الذاتي.

ويطالعنا في قصائد الغزل ومقطوعاته كثير من الألفاظ الرقيقة

والمعاني العذبة التي تتناسب وموضوع الغزل، من ذلك غزل عبد القاهر

بن علي بن أبي جرادة^(٣):

إِلَى مَنْ سَوَاءٌ عِنْدَهُ الْمَنَعُ وَالْبَذَلُ

بَأْنِي مِنْ شُغْلِ الَّذِي هُوَ لِي شُغْلُ

وإنَّ شِفَاءَ الدَّاءِ مَمْتَنٌّ سَهْلُ

فَعَادَ الذَّنْبُ لِي وَلَهُ الْفَضْلُ

تَبَيَّنْتُ أَنَّ الرَّايَ فِي غَيْرِهِ جَهْلُ

أَمْتُ بِبَذْلِي خَالِصًا مِنْ مَوَدَّتِي

وَتَحَسَّبُ نَفْسِي - وَالْأَمَانِي ضِلَّةٌ^(٤)

أَلَا إِنَّ هَذَا الْحُبَّ دَاءٌ مُوَافِقُ

عَفَى اللَّهُ عَمَّنْ إِنْ جَنَى فَاِحْتَمَلْتُهُ

وَمَنْ كَلَّمَا أَجْمَعْتُ عَنْهُ تَسْلِيًّا

(١) الملك الأمجد بهرام شاه، ديوانه : ١٢٢.

(٢) المصدر نفسه : ١٤٩.

(٣) ياقوت الحموي، مُعْجَمُ الْأَدْبَاءِ : ٤ / ٤٤٠، ٤٤١.

(٤) الضِّلَّةُ : ضد الهدى .

سَاعَرِضُ إِلَّا عَنْ هَوَاهُ فَإِنَّهُ جَمِيلٌ بِمِثْلِي حُبٌّ مِنْ مَالِهِ مِثْلُ

وَعَلَقَ يَاقُوتَ الحَمَوِي عَلَى الأَبْيَاتِ السَّابِقَةِ مَبْدِئاً إِعْجَابَهُ بِهَا قَائِلاً:

" هَذَا لِعَمْرِي وَاللَّهِ الْغَايَةُ فِي الْحُسْنِ وَالطَّلَاوَةِ ، وَالرَّوْنَقِ وَالْحَلَاوَةِ " (١)

وَيَفِيضُ غَزَلَ شَرْفِ الدَّوْلَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ سُلْطَانَ بْنِ مَنْقُذِ رَقَّةَ

وَعَذُوبَةَ ، وَلَا سَيِّمًا فِي وَصْفِ أَشْوَاقِهِ لِلْمَحْبُوبَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ (٢):

سَقَيْتُ كَأْسَ الْهَوَى عَلَاً عَلَى نَهْلٍ فَلَا تَزِدْنِي كَأْسَ اللُّومِ وَالْعَذْلِ

نَأَى الْحَبِيبُ فَبِي مِنْ نَأْيِهِ حُرْقٌ لَوْلَابَسْتُ جِبِلًّا هَدَّتْ قَوَى الْجَبَلِ

وَتَتَضَحُّ رَقَّةُ الْأَسْلُوبِ وَفَصَاحَةُ اللَّفْظِ فِي شَعْرِ الْقَاضِي الْمُرْتَضَى

الشَّهْرَزُورِيِّ ، الَّتِي سَلَكَ بِهَا مَسْلَكَ الْحَقِيقَةِ ، فَوَصَفَ مَعَاصِرَهُ الْعِمَادَ

أَسْلُوبَ شَعْرِهِ قَائِلاً : " رَاقٍ وَرَقٌّ ، مَعْنَاهُ جَلٌّ وَدَقٌّ ، ... فَصِيحُ اللَّفْظِ ،

حَسَنُ السَّجْعِ ، لَطِيفُ الطَّبَعِ .. " (٣).

كَمَا أَتْنَى عَلَى أَبْيَاتٍ لَهُ وَاصِفاً لَغْتَهَا بِأَنَّهَا فِي " رَقَّةِ السَّلْسَلِ

وَالشَّمُولِ ، وَدِقَّةِ الشَّمَالِ وَالْقَبُولِ " (٤) إِذْ قَالَ (٥):

بَدَا لَكَ سِرٌّ طَالَ عَنْكَ اِكْتِتَامُهُ وَلاَحَ صَبَاحٌ كَانَ مِنْكَ ظِلَامُهُ

فَأَنْتَ حِجَابُ الْقَلْبِ عَنْ سِرِّ غَيْبِهِ وَلَوْلَاكَ لَمْ يُطْبِعْ عَلَيْهِ خِتَامُهُ

وَوَصَفَ أَحَدَ الْبَاحِثِينَ الْمُحَدِّثِينَ أَسْلُوبَ الْقَاضِي الْمُرْتَضَى

الشَّهْرَزُورِيِّ فِي قَصِيدَتِهِ الْمُوَصِّلِيَّةِ ، وَالَّتِي عَدَّهَا مِنْ رَائِقِ شَعْرِهِ فَقَالَ:

(١) يَاقُوتَ الحَمَوِي ، مُعْجَمُ الْأَدْبَاءِ : ٤ / ٤٤١ .

(٢) الصَّفْدِيُّ ، الْوَافِي بِالْوَفَايَاتِ : ٩ / ١١٨ .

(٣) الْعِمَادُ الْأَصْفَهَانِيُّ ، الْخَرِيدَةُ (الشَّام) : ٢ / ٣٠٨ .

(٤) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ : ٢ / ٣٠٨ .

(٥) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ : ٢ / ٣٠٩ .

" لا تلمس فيها غير الإجادة في السبك ، وأسلوب القصيدة أسلوب قصصي أحسبه يرضى دعاء الشعر القصصي المعاصرين ولو إلى حد .. كذلك فيها التواءات في التعبير لا تخرج بها إلى حد الغموض أو اللبس "(١) ومطلعها (٢):

لمعت نارهم وقد عسعس الليـ ل ومل الحادي وحر الدليل
كما عمد بعض الشعراء في لغته إلى السهولة والوضوح ، فاقتربت من اللغة المحكية ، والتعبيرات العامية الدارجة ، واستخدم الشعراء في هذا النمط من الشعر الألفاظ الأعجمية والعامية ، ومن هؤلاء الشعراء تقي الدين عمر بن شاهنشاه؛ إذ وجد له بعض نماذج شعرية اقتربت من اللغة العامية وقد ذكر العماد عن تقي الدين أنه " نظم الشعر طبعاً ، ولم يميزه خفضاً ، ونصباً ورفعاً "(٣) .

ولعل إيثار الشاعر للسهولة والبساطة في شعره، وتعجّله في نظم الشعر دون إعادة نظر وتنقيح ؛ لانشغاله بأمور الدولة والجهاد كان له الأثر السلبي على شعره ، كما في الأبيات التالية التي جاءت لغتها تقريرية مباشرة خالية من الإبداع (٤):

قد فاز من أصبح يا هذه وذنبه وصلك يوم الحساب
وكأنك الجنة من حلّها نال أماناً من أليم العذاب

(١) ماهر كنعاني ، شعراء الواحدة ، ط ٢ ، مطبعة النقاء ، بغداد ، ١٩٨٥ م : ٧٧ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٤٩/٣ .

(٣) العماد الأصفهاني ، الخريدة (بداية قسم الشام) : ٨٢ .

(٤) المصدر نفسه ، (بداية قسم الشام) : ٨٧ .

واقتربت لغة أبو المجد محمد بن عبد الله التنوخي من لغة النثر
المباشرة فجاءت لغته تقريرية^(١):

جَسَّ الطَّيِّبُ يَدِي جَهْلًا، فَقُلْتُ لَهُ إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّ الْيَوْمَ بُحْرَانِي
فَقَالَ لِي، مَا الَّذِي تَشْكُو، فَقُلْتُ لَهُ إِنِّي هَوَيْتُ لَجَهْلِي، بَعْضُ جِيرَانِي
فَقَامَ يَعْجَبُ مِنْ جَهْلِي، وَقَالَ لَهُمْ إِنْسَانٌ سَوَى فِدَاوُوهِ بِإِنْسَانٍ

ويستخدم أبو الفتح عبد الله بن الحسن بن أبي جرادة لفظة (جُلْنَار)
وهي كلمة فارسيّة تعني (ورد الرمان) في قوله^(٢):

مَنْ ذَا مُجِيرِي مِنْ يَدَيَّ شَادِنٍ مُهْفَهَفٍ الْقَدِّ مَلِيحِ الْعِذَارِ
قَدْ كَتَبَ الشَّعْرُ عَلَى وَجْهِهِ أَسْطَرَّ مِسْكَ طَرِسُهَا جُلْنَارِ^(٣)

كما يستخدم أبو سهل عبد الرحمن بن مدرك المعري كلمة (دروغ)
وهي فارسيّة بمعنى (كذب) في قوله^(٤):

فَإِنْ قَالَ: لَا أَسْلُوهُ، قُلْتُ صَدَقْتَنِي وَإِنْ قَالَ: أَسْلُو عَنْهُ، قُلْتُ: دَرُوغُ

وتبدو النزعة الشعبية واضحة في شعر تاج الملوك بوري بن
أيوب، إذ أدخل بعض الكلمات الأعجمية في شعره حتّى وصلت أحياناً
إلى نظم الشطر الأول من البيت الشعري باللغة الفارسيّة ، في حين جعل
الشطر الثاني باللغة العربية ويبدو ذلك من خلال المقطوعة التالية^(٥):

(١) العماد الاصفهاني، الخريدة (قسم الشام) : ١٠/٢ .

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ٤٤٢/٤ .

(٣) الجلنار: معرب كلنار بالفارسية - واحدة جلنارة ، انظر ، ياقوت الحموي، معجم
الأدباء، الحاشية : ٤٤٦/٤ .

(٤) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٤٧/٢ .

(٥) حسن محمد عبد الهادي، تاج الملوك لبوري : ٧٨ ، ٢٢٦ .

دلما ارفاق بوسحتاه يا هلالاً على الوري قد تاه
جند مسلم ازحور بوكفتاه من ترى بالصدود قد أفتاه
وأدخل تاج الملوك بوري أسماء بعض الغلمان الأتراك في تغزله
من هذه الأسماء (الدكز) كما في قوله^(١):

من لمحِبٍّ قد رزِي ومن لقلبٍ قد عزي
أَلَدَكْزُ أَتْلَفَنِي فَآهٍ مِنْ أَلَدَكْزِ

واستخدم بوري في أشعاره العبارات الشعبية الدارجة التي تميل
إلى الكلام العامي والتي يخاطب بها أهل مصر في حياتهم اليومية من
ذلك^(٢):

يا عذولي في حبه كَفَّ عذلي أنا ما للعذول فيه ومالي
وقوله^(٣):

لن أحب المقام فيها ولو أصـ بح مالي موازن الأهرام
هذا و لم يتنكب شعراء الأسر الشاميّة طريق الصناعة اللفظية في
شعرهم شأنهم في ذلك شأن كل من جاء بعد بشار بن برد ومسلم بن
الوليد وأبي نواس الذين اعتبرهم النقاد رواد مدرسة الصنعة في الشعر
والبديع فقال ابن المعتز حول هذه الريادة : " ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا

(١) حسن عبد الهادي ، تاج الملوك لبوري : ١٧٦ .

(٢) نفسه : ٧٧ ، ٢٠٥ .

(٣) نفسه : ٢١٧ .

نواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم وسمي بهذا الإسم.." (١).

وقد حددت أبواب البديع بخمسة أبواب رئيسه هي : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، ورَدّ أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامي (٢) ، والتي ازدادت فيما بعد في دراسات النقاد فكثرت تفرعاتها وألغيت بعض أبوابها كالاستعارة التي صارت تتبع علم البيان.

وعند النظر في شعر الأسر الشاميّة نجد أنهم قد عرجوا على أبواب هذه الصناعة ، فمحسنٌ منهم ومفرط ، أو كما قال ابن المعتز حين وصف ولع حبيب ابن أوس بهذه الصناعة ومن جاء بعده بأن بعضهم قد " شغف به حتّى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض وتلك عقبى الافراط وثمره الإسراف " (٣).

وسنعرض الآن لفنون الصناعة اللفظية الواردة في شعر الأسر الشاميّة ولا سيما من تعتمد ذلك منهم، وربما أفرط بدافع الاستعراض والتنافس الفني بين الشعراء حيث كان البديع حلية ضرورية لا يكون الشعر جميلاً إلا بها .

(١) ابن المعتز ، عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ) البديع ، ط ٣ ، عني بنشره : إغناطيوس

كراتشكوفسكي ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٨٢م : ١ .

(٢) ابن المعتز ، البديع : ٣ ، ٢٥ ، ٣٦ ، ٤٧ ، ٥٣ .

(٣) ابن المعتز ، البديع : ١ .

دلما ارفاق بوسحتاه يا هلالاً على الورى قد تاه
جند مسلم ازحور بوكفتاه من ترى بالصدود قد أفتاه
وأدخل تاج الملوك بوري أسماء بعض الغلمان الأتراك في تغزله
من هذه الأسماء (الدكر) كما في قوله^(١):

من لمحّبٍ قد رزّي ومن لقلبٍ قد عزي
ألدكرُ أتلّفني فآه من ألدكر

واستخدم بوري في أشعاره العبارات الشعبية الدارجة التي تميل
إلى الكلام العامي والتي يخاطب بها أهل مصر في حياتهم اليومية من
ذلك^(٢):

يا عذولي في حبه كفّ عذلي أنا ما للعذول فيه ومالي
وقوله^(٣):

لن أحب المقام فيها ولو أصـ بح مالي موازن الأهرام
هذا و لم يتنكب شعراء الأسر الشاميّة طريق الصناعة اللفظية في
شعرهم شأنهم في ذلك شأن كل من جاء بعد بشار بن برد ومسلم بن
الوليد وأبي نواس الذين اعتبرهم النقاد رواد مدرسة الصنعة في الشعر
والبديع فقال ابن المعتز حول هذه الريادة : " ليُعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا

(١) حسن عبد الهادي ، تاج الملوك لبوري : ١٧٦ .

(٢) نفسه : ٧٧ ، ٢٠٥ .

(٣) نفسه : ٢١٧ .

ونبدأ بظاهرة التجنيس أو الجناس وهو " الإتيان بمتماثلين في الحروف أو بعضها أو الصورة أو زيادة في أحدهما أو بمتخالفين في الترتيب والحركات، أو بمماثلٍ يرادفه معناه مماثلاً آخر نظماً "(١).
ومن أنواعه الجناس التام وهو ما اتفق الركنان فيه في أربعة أشياء، نوع الحروف ، وعددها ، وهيئاتها من الحركة والسكون وترتيبها.

وتعد قصيدة تاج الملوك لبوري بن أيوب الغزلية أوضح مثال على الولع بهذا النوع وتعمره ، حيث جاءت القصيدة بأكملها استعراضاً فنياً لهذا النوع... ويمكننا القول أنه استعراض زخرفي مبالغ فيه أتى به الشاعر لذاته لا لغاية معنوية(٢):

يا بانهةً لحبّها	في القلب أصل قد نبت
سيوف صبرٍ عن سيو	ف مقلتيك قد نبت
تلك لحاظ أعين	أم اسد غيل وثبت
قد صحّ عند الحق قتـ	لي في هواها وثبت
لواحظ لو برزت	في يوم حرب لسبت
وعقرب الصدغ التي	لكل قلب لسبت

فالأبيات مبنية على الجناس ، فهناك الجناس التام بين كلمتي (نبت ونبت) في قافية البيتين الأولين حيث أتت الأولى بمعنى (نما، زرع) والثانية بمعنى (غير قاطع) وكذلك (وثبت ، وثبت) حيث جاء معنى

(١) صلاح الدين الصفدي ، جنان الجناس في علم البديع، ط١، مطبعة الجوانب ، القسطنطينية، ١٨٨١م: ١٩-٢٠.

(٢) حسن عبدالهادي، تاج الملوك لبوري: ١٤٢

الكلمة الأولى (قفزت) والثانية (تمكّن) وكذلك (لسبت ، لسبت) حيث جاءت الأولى بمعنى (أسرت) والثانية بمعنى (لسعت) .

ومن أنواع الجناس التي تناولها النقاد (جناس التصحيف) وهو أن تكون النقط هي الفرق بين الكلمتين^(١)، ولم تخلُ الأشعار الشّاميّة من هذا النوع، من ذلك قول شرف الدين عيسى بن الملك العادل^(٢):

وسر الغداة إلى العداة مبادراً
بالضرب في هام العدو دراكا
يظهر الفرق في النقط وعدمه في كلمتي (الغداة) و (العداة) ،
كذلك يلاحظ في قول الملك الأمجد^(٣):

كانت بهن حواليا فأعادها ريب الزمان عوطلاً وخوالياً
حيث أتت (حوالياً) الأولى بمعنى لبس الحلي ، و (خوالياً) الثانية
أي خالياً من لبس الحلي.

كما ظهر " جناس التصريف " في ثنايا الشعر الشّامي ويعنى أن
تتفرد كل كلمة من الكلمتين بحرف^(٤)، كما في قول القاضي أبي مسلم
وادع^(٥):

ولما تلاقينا وهذا بناره حريقٌ وهذا بالدموع غريقُ
فالفرق جاء في الحرف الأول في كلمتي (حريق) و (غريق) .

(١) أسامة بن منقذ، البديع في البديع: ٣٤.

(٢) الأزدي، بدائع البدائ: ٣٢١.

(٣) الملك الأمجد بهرام شاه ، ديوانه: ٩٠.

(٤) أسامة بن منقذ ، البديع: ٤١.

(٥) العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام) : ٤٠/٢.

كما ظهر عندهم جناس التركيب " وهو أن تكون الكلمة مركبة من كلمتين" (١) على نحو ما نجد عند تاج الملوك لبوري (٢):

عُجَّ بي على من شَفَّنِي كَمَدًا وصِبابَةٌ بالتيه والعجب
سِرُّ بي ولا تسأَمُ لعلَّ ترى عيني غُزِيلَ ذلك السربِ
سل بي عسى تنبيكَ مقلته من ذا أباح للحظها سلبِي

كما ظهر جناس الترجيع، وهو أن ترجع الكلمة بذاتها (٣) على نحو ما نجد عند ساطع بن عبد الباقي التتوخي (٤):

عهدي بنا قبل وشل البين يجمعنا ظل ظليلٌ وروضاتٌ أريضاتُ
تجلا على الشرب في شرب تمزقه الأفواه وهو بأعلى الجام جاماتُ
وللنفوس لما تختار أنفسه من صالح لا تدانيه الدنياتُ
كأنها دولة الغازي التي كملت وصفاً وعمت رعاياه الرعاياتُ

ومنه قول كمال الدين بن العديم (٥):

فَمَا على طيفها لو عَادَ يطرقنا فربما زارَ أحياناً وأحياناً

ويبدو أن بعض شعراء الأسر بذل جهداً في السّعي وراء اللون البديع، وجاءت مستحسنة ، فقد أثنى العماد على البيتين التاليين لأبي سعد عبد الغالب بن حصين (٦):

(١) أسامة بن منقذ ، البديع : ٤٨ .

(٢) حسن محمد عبد الهادي، تاج الملوك لبوري : ١٢٦ .

(٣) أسامة بن منقذ ، البديع : ٤٨ .

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب : ٤٠٩٦ / ٩ .

(٥) ياقوت الحموي ، معجم الأدياء : ٤٥٩ / ٤ .

(٦) العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام) : ٦٣/٢ .

قَلْبٌ وَقَلْبٌ فِي يَدَيْنِ — كَ مُعَذِّبٌ وَمُنْعَمٌ
ظَمَانٌ يَطْلُبُ قَطْرَةً — تَشْفِي صَدَاهُ وَمَفْعَمٌ

فقد علّق العماد عليهما قائلاً : " هذان البيتان كنت استلمحتهما كم
بعض الكتب فاستلمحتهما، فإنها جمعا التجنيس ، والتطبيق والموازنة ،
ولزوم ما لا يلزم ، واللطافة والرقّة والمعنى واللفظ " (١).

ويضفي الجناس والطباق على بعض الأشعار جمالية ممكنة ، كما
في المقطوعة التالية التي بثّ فيها هذان المحسنان موسيقى عذبة ،
وتناظراً دلالياً جميلاً (٢):

يا مالكا رقي برقة خدهِ — ومُعذبي دُون الأنامِ بصدِّهِ
ومُكذّبي، وأنا الصدوقُ، وهاجري — وأنا المشوقُ، ومانعي من رفدهِ
لما تيقن قلبه أني أرى — فَقَدَ الحياةَ الذّي من فقدهِ
أشتاقه وأنا الجريحُ بلحظه — وأحبّه وأنا الطعين بِقَدِّهِ

إذ جانس الشاعر بين (رقي برقة) وجاء الطباق بين (مكذبي -
الصدوق) والتكرار بين (فَقَدَ وفقدهِ) والمقابلة بين موقفين أشتاقه وأنا
الجريح بلحظه ومثله في الشطر الثاني .

ومن أبرز السمات الأسلوبية التي وردت في شعر الأسر التكرار،
منه ما هو حرفي ، ومنه ما هو لفظي ، ومنه ما وزد في المعاني
والصور .

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (الشام) : ٦٣ / ٢ .

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة (بداية قسم الشام) : ٩٣ .

ورد التكرار الحرفي عند القاضي أبي مرشد سليمان التتوخي الذي
التزم بحرف النون في كل كلمة من قصيدته النونية ، والتي تتحدث عن
الحكم والمواعظ^(١):

نزّه لسانك عن نفاقٍ منافقٍ وانصح فإن الدين نصح المؤمن
وتجنب المن المنكد للندى وأعن بنيلك من أعانك وامنن
وتناه عن غبنٍ وغبنٍ واغتنم حسن الثناء من الأثام وأحسن
ولعل أبرز أنواع التكرار عند شعراء الأسر هو التكرار اللفظي إذ
يكرر الشاعر اللفظة في البيت الواحد كما في قول ساطع بن أبي حصين
حين أنشد لنفسه بظاهر حلب^(٢):

دعاها فبرق الأبرقين دعاها أيا حادييها والغرام دعاها
وقول مجد الدين عبد الرحمن بن العديم^(٣):
تطيلون تعذيبي بعيني بك وأطيله ومالي منكم بعد ذلك طائل

* * *

ترى هلى أراكم أو أرى من يراكم وأبلغ منكم بعض ما أنا آمل
وله أيضاً^(٤):
يا كاتباً قبلت ما خطه إذ بعدت يد الكاتب
وغائباً في خاطري حاضر وغائباً أفديه من غائب

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (الشام) : ٤٥ / ٢ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب : ٤٠٩٩ / ٩ .

(٣) محمد الطباخ ، اعلام النبلاء : ٤٧٨ / ٤ .

(٤) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان : ٣١٢ / ٣ .

وقول الملك الناصر داود^(١):

فسار يطلبُ نورَ النورِ مُهْتَدِيًا بنورِ نورٍ من الأنوارِ فيّاضٍ
ونلاحظ أن الشاعر كرّر لفظة (النور) عدّة مرّات ، ولعل ذلك له
علاقة باهتمام الشاعر بهذا المعنى فسلط الضوء عليه ولا سيّما أن
الشاعر من المتصوفة.

وأحياناً يكرر الشاعر لفظة بعينها في أبياتٍ متتابعة على نحو ما
نجدّه في مرثية ابن العديم لمدينة حلب ، فيكرر الشاعر (أَمَا كُنْتُ) في
ثلاثة أبيات متتابعة منها^(٢):

أَمَا كُنْتُ مُلْجَأً لِمَنْ خَافَ حَايِرًا وَفِيكَ لَذَى الْبِأْسَاءِ وَالضَّرِّ أَنْعَمُ
أَمَا كُنْتُ غَوْثًا لِلْوُفُودِ وَمَقْدًا يَخَافُكَ ذُو شَرٍّ وَيَرْجُوكَ مُعْدِمُ
أَمَا كُنْتُ لِلدَّاعِي إِذَا مَا دَعَى جَدَا وَفِيكَ لِمَنْ يَبْغِي مِنَ الْبَغْيِ مُقْدِمُ

كما نجد أحياناً أن الشاعر تستحوذ عليه ألفاظ وتعبيرات وصور
معينة في أماكن متعددة من شعره ، ونجد مثل هذا التكرار في ديوان
الملك الأمجد بهرام، شاه الذي كرّر جذر (غَرَبَ) بجميع أشكاله ولعل
لذلك علاقة خاصة بالشاعر منها^(٣):

حقيق بأن يبكي الديار غريبها بادمع عين لا تجفّ غروبها

* * *

(١) الملك الناصر داود ، ديوانه: ١٩٩.

(٢) العيني ، عقد الجمان : ١ / ١٩.

(٣) الملك الأمجد بهرام شاه ، ديوانه : ٣٤٠ ، ٣٥٨ ؛ وانظر أيضاً ٣٥٩ ، ٣٧٣ ، ١٠٦ ،
٣٣٤.

فكلُّ غريبِ الحسنِ أمس مدَّ لهاً عليه محبٌ في الغرامِ غريبُ

* * *

فليس من الغرائب أن تعينا غريبَ هوى تكنفه الهوان

وتكرر في شعر الملك الأمجد صورة الدماء الهدر التي أريقَت
بسبب الحب كما في قوله^(١):

كم دمٍ راحَ جُبَّاراً في الهوى عندهُ أجراهُ في الوجدِ وظلُّه

* * *

دمٌ أريقَ بأسيافِ الهوى هَدَرُ في يومِ رامةٍ والاضعانُ تبتكرُ

* * *

وعلى الغذيبِ أو أنسَ مثلُ الدَّمى غيْدٌ يُرقنَ دمَ المحبِّ تعمداً

* * *

كم قد سفكنَ بهاتيكَ العيونُ دماً وما رأيتُ لها ثأراً ولا قَواد

* * *

فكم أضاعوا محباً في الغرامِ بلا ذنب، وكم طُلُ فيه من دمٍ هدرُ

ونجد أحياناً أن بعض الشعراء يكررون أبياتاً بعينها أو باختلافٍ
قليل على نحو ما نجد عند الملك الناصر في رثاء الخليفة^(٢):

سأبكيه أيامَ الحياة، وإن أمتُ بكتَه عظامي في قرارةٍ مضجعي

وفي قصيدة رثاء أخرى نجده يقول^(٣):

سأبكيك يا سعدى حياتي فإن أمتُ بكتك عظامي في قرارةٍ ملحدي

(١) الملك الأمجد بهرام شاه ، ديوانه: ١٣٤، ٢٢١، ٢١٧، ٣٢٩، ٢٤٧.

(٢) الملك الناصر داود ، ديوانه: ٢٦٧.

(٣) المصدر نفسه : ٢٧٣.

ويذهب د. عبد الجليل عبد المهدي إلى تعليل هذه الظاهرة إلى
" قلة تنقيح الشعر " (١).

ومن الزخارف البديعية التي أكثر الشعراء من استخدامها التصدير
أو ما يعرف بـ " ردّ أعجاز البيوت على صدورها " (٢)، واستحسن ابن
رشيقي القيرواني هذه الصنعة لأنه " يكسب البيت الذي يكون فيه أبهةً ،
ويكسوه رونقاً وديباجةً ، ويزيده مائيّةً وطلاوةً " (٣).

كما ذهب أبو هلال العسكري إلى أن " لردّ الأعجاز على الصدور
موقعاً جليلاً من البلاغة ... وله في المنظوم خاصة محلاً خطيراً " (٤) .

وقد قسم أبو هلال هذا الباب إلى ثلاثة أقسام:

أولاً : " ما يوافق آخرُ كلمةٍ في البيت آخرُ كلمةٍ في النصف الأول " (٥)،
على ما نجده في ديوان الملك الناصر داود (٦):

فلا زلتَ يا مولى الأيادي مؤيداً على كاهلِ الجوزاءِ تغلو مؤيدا
وله أيضاً (٧):

(١) عبد الجليل عبد المهدي، الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري، ط ١ ،
مكتبة الأقصى ، عمان ، ١٩٧٧م : ٣٨٧.

(٢) أسامة بن منقذ ، البديع: ٨٥ .

(٣) ابن رشيقي القيرواني، العمدة: ١ / ٥٧٣.

(٤) أبو هلال العسكري ، الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥ هـ) كتاب
الصناعتين، الكتابة والشعر ، تحقيق: مفيد قميحة ، ط ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت
- لبنان ١٩٨٤م : ٤٢٩.

(٥) أبو هلال العسكري ، الصناعتين : ٤٢٩.

(٦) الملك الناصر داود ، ديوانه : ٢٤٤ ؛ انظر ابن المعتز ، البديع: ٤٧.

(٧) المصدر نفسه: ٢١٠.

ما هذه الدنيا بدا ر للمهذب والبصير
لا تغرر بغرورها فالت في دار الغرور

وقول ابن شقير محمد بن عبد المنعم التتوخي^(١):

وكنْتُ أشكو ولي صبرٌ ولي رمقٌ فكيف حالي ولا صبرٌ ولا رمقُ
ثانياً: " ما يوافق أول كلمة منها آخر كلمة في النصف الأخير " ^(٢).

ونجد ذلك في شعر تقي الدين عمر بن شاهنشاه^(٣):

أسمرٌ كالرُمحِ معتدلٌ ليتني أمسيت من سمره
قمرت الحافظ مقلته قلباً من يرنو إلى قمره
عمرٌ يشكو الغرام به وزماناً ضاع من عمره

وقول ثقة الملك الحسن بن أبي جرادة^(٤):

وطليق قلبي موثقٌ وحبيسٌ دمعي في انطلاق
ثالثاً: ما يكون في حشو الكلام في فاصلته^(٥): نجد ذلك عند تقي الدين
عمر^(٦):

حفظاً عهود الغانيات ولم يكن لهن على طول الزمان عهودٌ
وله أيضاً^(٧):

(١) الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٤٩/٤ .

(٢) السابق ، الصناعتين : ٤٣٠ .

(٣) العماد الأصفهاني ، الخريدة (بداية قسم الشام) : ٩٦ .

(٤) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٢٠٨/٢ .

(٥) أبو هلال ، الصناعتين : ٤٣٠ .

(٦) العماد الأصفهاني ، الخريدة (بداية قسم الشام) : ٩٥ .

(٧) المصدر نفسه : ٢ .

كم بالكثير الفرد لي من أهيف
وقول المبارك بن كامل^(١):

وكان ما في كاسه في خده
ومدح الملك الناصر داود شيخه شمس الدين أبا الفضل
الخروشاهي بأبيات تكلف فيها هذه الحلية البديعية^(٢):

وسيد تاه به عصره
والعصر بالسيد تياه
أعطاه ربّ العرش من فضله
والرب لا تحصى عطياه
آيات علم قد حباه بها
يا حسن ما آي : حبا الله
كم ميت جهل أمه علمه
في حفرة الجهل فأحياه

ومن الزخارف البديعية التي استخدمها شعراء الأسر (العكس)
وأوضح مثالا على ذلك ما نجده في ديوان الملك الأمجد بهرام شاه ،
وله أبيات قيل إنها " من الآيات البينات ، وهي أحق بأن تسمى بالفصول
والغايات ، ومن معجزها أن كل بيت منها يقرأ من آخره إلى أوله ، كما
يقرأ من أوله إلى آخره " ^(٣) ، يقول ^(٤):

زعموا أنني خؤون في الهوى
أثموا حقاً وقد ظنّوه بي
ظلموا لما رأوني منصفاً
علموا ما في فوادي منهم
في الهوى أنني خؤون زعموا
بي وقد ظنّوه حقاً أثموا
منصفاً لما رأوني ظلموا
منهم ما في فوادي علموا

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين : ٢٧٦/٢ .

(٢) الملك الناصر داود ، ديوانه : ٢٤٨ .

(٣) الملك الأمجد بهرام شاه ، ديوانه : ٣٤٩ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٤٩ .

ويستمر الأمجد بهذا الفن إلى آخر القصيدة.

ولم يقتصر هذا الفن عند الأمجد على القصيدة السابقة بل نجد أبياتاً أخرى ومقطوعات وردت في ديوانه^(١):

واستخدم شعراء الأسر من فنون البديع أيضاً التطريز، وقد عرّفه أبو هلال العسكري فقال: " هو أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن فيكون فيها كالطراز في الثوب وهذا النوع قليل في الشعر"^(٢)، ونجد هذا واضحاً في قصيدة لأسامة بن منقذ التي مدح بها الملك الناصر صلاح الدين يقول^(٣):

لا زلتَ يا ملكَ الإسلامِ في نعمٍ	قرينُها المسعدان: النصرُ والظفرُ
تردي الأعادي وتستصفي ممالكهم	وعونُك الماضيان: السيفُ والقدَرُ
فأنت إسكندرُ الدنيا بنورك قد	تضاعلَ المظلمان: الظلمُ والضررُ
أعدت للدهر أيامَ الشباب وقد	أظلك المهرمان: الشيبُ والكبرُ
وظهر التطريز أيضاً في شعر الملك الأمجد بهرام شاه من ذلك قوله ^(٤) :	
بادي اللهب، وحرُّ الشوق مضطرمُ	يذكرُهما المؤلمان: الذُكْرُ والقلقُ
فكيف ينسى الهوى صبُّ يروعهُ	بعدَ النوى الأخوان: الصُّبحُ والغسقُ؟
وفي موضع آخر له ^(٥) :	
من كلِّ ذي غبنٍ منهم، وذي قحةٍ	يلقيهما المُرديان: الجهلُ والحنقُ

(١) وانظر ديوان الأمجد : ٣٤٨ ، ٣٥٠ .

(٢) أبو هلال العسكري، الصناعتين: ٤٨٠ .

(٣) العماد الأصفهاني ، الخريدة (الشام) : ١٠ / ٥٤٥ .

(٤) الملك الأمجد بهرام شاه ، ديوانه: ٢٦٥ .

(٥) المصدر نفسه : ٢٦٧ .

وله أيضاً^(١):

أَظْلُ فِيهَا حَلِيفُ الْكُورِ مُنْتَصِباً فِيهِ أَلِيفَايَ: تَخْوِيدٌ وَتَهْجِيرُ

كما وجد هذا اللون الزخرفي في شعر ابن شقير التتوخي يقول^(٢):

وَقَدْ تَشَارَكْتُمَا فِي فَتْحِ بَابِ هَوًى سُدَّتْ عَلَى سَلَوَتِي مِنْ دُونِهِ الطُّرُوقُ

سَعَيْتُمَا فِي دَمِي بَغِيَا فَنَالَكُمَا لَفَرَطُ بَغِيكُمَا : التَّبْرِيحُ وَالْأَرْقُ

حَتَّامٌ لَا تَرَعُوهُ يَا قَلْبُ ذُبْ كَمَدًا فَحَسْبُكَ الْمَزْعَجَانُ: الشُّوقُ وَالْقَلْقُ

وقد اتكأ تاج الملوك بوري في علم البديع على التطريز، غير أن

هذا التطريز غير التطريز الذي تحدث عنه القدامى إذ " لجأ بوري إلى

تطريز اسم (الدكر) فجعل الحرف الأول من البيت الأول ألفاً، وجعل

الحرف الأول من الثاني لاماً ، والحرف الأول من الثالث دالاً ، والحرف

الأول من الرابع كافاً، والحرف الأول من الخامس زايًا^(٣)، يقول^(٤):

أَقْلَقْنِي الدَّكْرُ بِتَصْحِيفِهِ فَآهٍ وَآهِ يَلِي مِنَ الدَّكْرِ

لَهُ قَوَامٌ كُلَّمَا هَزَّهُ أَقَامَ فِي الْحَبِّ بِهِ عَذْرِي

دَوَاءَ قَلْبِي سَقَمُ أَجْفَانِهِ أَوْ مَا بَعَيْنِهِ مِنَ السَّحَرِ

كَأَنَّهُ الْبَدْرُ عَلَى أَنَّهُ يُخْجَلُ بِالْحَسَنِ سَنَا الْبَدْرِ

زَهَا بِهِ شَعْرِي فَمَا شَاءَ أَنْ يَعْرِفَهُ فَلْيَعْتَبِرْ شَعْرِي

(١) الملك الأمجد بهرام شاه، ديوانه : ٢١٣.

(٢) الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٤ / ٤٩.

(٣) حسن محمد عبد الهادي، تاج الملوك لبوري : ٥٧.

(٤) نفسه : ١٧٥.

وهذا كمال الدين ابن العديم حول الشعر إلى عملية اشتقاقية جافة ،
لتوليد بعض المعاني المتكلفة^(١):

احذر من ابن العم فهو مصف	ومن القريب فإنما هو أحرف
القاف من قبر غدا لك حافراً	والراء منه ردى لنفسك يخطف
والياء يأس دائم من خيرهِ	والياء بغض منه لا يتكيف
فاقبل نصيحتي التي أهديتها	إنّي بابناء العمومة أعرف

كما اعتمد شعراء الأسر على مصطلحات العلوم المختلفة ، ولا سيما العلوم الدينية واللغوية لزخرفة الشعر، وإخراجه عن المألوف ، إذ استفاد ثقة الملك الحسن ابن أبي جواده من مصطلحات الحديث الشريف لوصف أشواقه يقول^(٢):

وعلى البرق يروي لي حديثاً فيرفعه بإسناد صحيح

وذكر عبد الرحمن عمر بن العديم أسماء بعض السور القرآنية في مقطوعته التالية فذكر سورة ، الكهف ، ويوسف ، والإخلاص ، والكوثر ، والزمر ، وفصلت ، والنور ، والقصص ، والشعراء يقول :

مذ غدا الكهف له من يوسف	صار بالنصر عزيزاً في الورى
قال بالإخلاص منه جنة	وسقاها من يديه الكوثر
بارك الله فيها دوحه	لا يرى الطير فيها زمرا
فصلت للنور فيها قصص	ما سمعنا مثلها للشعراء

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء : ٤/٤٦١.

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة : ٢/٢١٣.

واستفاد الملك الأمجد بهرام شاه من علم العروض ، فظهر في شعره بشكل واضح يسترعي النظر، وذلك إذ يقول^(١):

يا ناقد الدر أصبته قلائده وموضح الكلمات الغرّ إيضاحا
خذها اليك من الإقواء^(٢) سالمة تعيد بحر بناء الشعر ضحاحا
فاستخدم الشاعر مصطلح (الإقواء) وهو من مصطلحات
العروض وله أيضاً^(٣):

رياض قريض قد رقت بساطها بفكر عزيز المثل في صنعة الرّقم
ينقحها فكري فتأتي سليمة مبرأة الألفاظ من خجل الخرم^(٤)
نلاحظ ان الشاعر استخدم كذلك مصطلح (الخرم) المستخدم في
علم العروض .

التأثر (الاستدعاء) في شعر الأسر الشاميّة :

ان التمعّن في الإنتاج الشعري للأسر الشاميّة لا يفوته أن يلاحظ
أثر الشعراء السابقين في شعرهم سواء أكان هذا التأثير على صورة
تضمين كامل لبعض الأبيات أو الشطرات الشعرية ، نقلوها كاملة
لشعراء مشهورين كالمتنبي أو أبي العلاء وغيرهم على سبيل التأثير
والإعجاب ، أو ظهرت معانيهم دون تضمين خلال السياق الشعري

(١) الملك الأمجد بهرام شاه، ديوانه: ١٣٤.

(٢) الإقواء : اختلاف حركات الروي في الشعر.

(٣) الملك الأمجد ، ديوانه: ٣٠٨.

(٤) الخرم في العروض ، ذهاب الفاء من فعولن فيبقى عولن ، ولا يكون الخرم إلا في أول الجزء من البيت.

بصورة لا تخفى على القارئ بحيث يدرك أن هذا المعنى قد استحضره من خلال قصيدة مشهورة لشاعرٍ سابق.

كما ظهر التأثير جلياً بآيات كتاب الله سواء في ذكر أسماء السور القرآنية أو تضمين لبعض الآيات بصورة واضحة في الشعر سنعرض لها بعد قليل.

ومن مواطن التأثير أيضاً بالتراث العربي القديم ، استحضار مادة الأمثال العربية ، إمّا بعرضها حسب المعنى أو إيرادها نصاً وحرفاً، ولا ضير في ذلك فالأدب العربي أدبٌ تراكمي يتبع فيه اللاحقون ما أتى به فحول الأدباء والشعراء السابقين ، ونبدأ باستعراض طائفة من الأشعار التي تأثر أصحابها بفحول الشعراء القدامى ، أو من عاصرهم من كبار الشعراء ، من ذلك ما عمد إليه تاج الملوك لبوري في قصيدته البائية التي مطلعها^(١):

هل من نأى من حبيب النفسِ مقتربٌ أم هل يسر بجمع الشملِ مكتئبٌ

حيث ضمن في البيت السادس عشر شطرة لأسامة بن منقذ :

(إذا رأى بُعدُه عن بابِ مالِكِه) يصيح واحربا لو ينفع الحرب

يقول أسامة في ديوانه^(٢):

إذا رأى بُعدَه عن بابِ مالِكِه يكادُ يقضي عليه الهمُّ والأسفُ

رغم أن أسامة ليس بعيداً عنه في الحقبة الزمنية ويعد معاصراً له،

وفي قوله يمدح الملك الناصر في القصيدة ذاتها:

كالبحر يقذفُ للداني جواهره جوداً ويبعثُ للنائي به السحب

(١) محمد حسن عبد الهادي ، تاج الملوك لبوري : ١٢٢-١٢٤.

(٢) أسامة بن منقذ : ديوانه : ٢٣٤.

فقد استحضر بيت المتنبي الذي يقول فيه^(١):

كَالْبَحْرِ يَقْدَفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِرًا جُودًا وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيدِ سَحَابِيًا

فقد غيرَ تغييراً طفيفاً في ألفاظ البيت السابق ، غير أنه لم يحاول إخفاء معالمة ، وكأنّه بذلك يريد أن يحتفظ بنسبته إلى صاحبه ، مصرّحاً بأنه قد تأثر به واستحضر معانيه.

ويتتابع ظهور التضمين في شعره لاسيّما أشعار مهيار الديلمي

فيقول:

يا أكثر الناس بي علماً ومعرفةً (متى تغير عن أعراقه الذهب)
حيث يقول مهيار^(٢):

يا ناقد الناس كشفاً عن جواهرهم متى تغير عن أعراقه الذهبُ
ويضمن بيتاً آخر لمهيار في قوله:
أحال رأيك عما كنت أعهدُه (حتى بدا لك أن الدرّ مشخّلب)
حيث يقول مهيار^(٣):

وكيف أفسد سوء الحظ خبرك بي حتّى بدا لك أن الدرّ مَخْشَلِبُ
وفي قوله:

عطفاً عليّ وإنعاماً فقد (علقت يدايَ منك بحبلٍ ليس ينقضُ)
فهذا تضمين لقول أبي نواس^(٤):

(١) المتنبي ، ديوانه، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٥م : ١١١.

(٢) مهيار الديلمي، أبو الحسن مهيار بن مرزويه (ت ٤٢٨هـ —)، ديوانه، دار الكتب المصرية ، ط ١ ، القاهرة، ١٩٢٥م : ١٣٠/١.

(٣) المصدر نفسه ، ديوانه مهيار : ١٣٠/١.

(٤) أبو نواس، الحسن بن هاني (ت ١٩٠هـ) ديوانه، تحقيق: بدر الدين حاضري ، محمد حمّامي ، ط ١، دار الشرق العربي ، بيروت ، ١٩٩٢م : ٨٦

نفسى فداؤك يا من لا أبوح به، علقّت مني بحبل ليس ينقضبُ
وهو كما نلاحظ في البيت السابق لا يكاد يغير في البيت إلا بعض
ألفاظ بينما يضمن بيتاً كاملاً لمهيار الديلمي مرّة أخرى في قوله:
حاشاكم أن يكونوا عونَ حادثة أو ترتمي بي على أيديكم النوبُ
وفي قوله:

(فما بقيتم فأَيّامي بجودكمُ كما أحب وأحوالي كما تجب)
مضمن بالإشارة إلى بيت مهيار الديلمي الذي يقول^(١):

فما بقيتم فأَيّامي بعزكمُ كما أحبُّ وأحوالي كما تجب
نلاحظ إذاً جزءاً غير هين من القصيدة اتكأ فيه الشاعر على
موروث قديم ومحدث لشعراء آخرين ذكرناهم وهذا يدل على أن ثقافة
تاج الملوك بوري الأدبية هي ثقافة مستقاة من التراث القديم ، كما أنّه
كان على اتصال بثقافة عصره وشعرائه بدا ذلك بتضمينه لشعر أسامه
بن منقذ .

وقد درس أحد الباحثين المحدثين هذا الجانب عند بوري ، وخرج
بنتيجة مؤدّاه أن بوري " استقى مادته الشعرية وصوره ومعانيه من
واقعه الذي أمامه، ومن مجتمعه الذي عاش فيه ، وهذا في الأغلب من
شعره ، أما في بقيته فتقرأ اتصاله بالتراث الذي تتقف به الشعراء
السابقون، وأغلب من تأثر بهم كانوا من الشعراء الإسلاميين . وإذا
 نظرنا إلى التضمين في شعر بوري وجدنا أن أغلبه من شعر هؤلاء
كالعباس بن الأحنف ، وأبي نواس ، وابن المعتز ، والمتنبي ، وأبي
فراس الحمداني ، وابن نباتة السعدي ، والوأواء الدمشقي ، ومهيار

(١) مهيار الديلمي، ديوانه : ١٣٢/١.

الدلمي وابن الخياط الدمشقي ، والطغرائي ، وطلائع بن رزّيك ، وأسامة بن منقذ . أما شعراء العصر الجاهلي فكان التضمين في أشعارهم قليلاً ، وقد انحصر في السموأل ابن عاديا، والنابعة الذبياني، وليبيد بن ربيعة العامري^(١).

ويقول الباحث أيضاً " إن شعر المتنبي حظي بالنصيب الأوفى من حيث التضمين في شعر بوري ، وهذا يظهر مدى تعلقه بشعره ، وتجلي تأثر شاعرنا بالمتنبي في فنون شعرية كثيرة عند المتنبي: كالغزل ، والرثاء ، والمدح، والحكمة، والوصف، والخمر^(٢). من ذلك قول بوري^(٣):

أهن اللئيم فما الكرامة عنده يوماً بنافعة إذا أكرمته
ودع الكرامة لكريم فإنما يخشى الكريم إذا الكريم أهنته

ويشير البيت بشكل واضح إلى قول المتنبي^(٤):

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمرّداً

ومن الشعراء الذين تأثروا بمن سبقهم من القدامى الملك الأمجد بهرام شاه، الذي تأثر بأبي العلاء المعري، وهذا ما نجده في أبياته التالية^(٥):

ما قلتُ وهو على الأجزاء معترضٌ يا ساهرَ البرقِ أيقظ راقِدَ السّمرِ

(١) حسن محمد عبد الهادي ، تاج الملوك لبوري : ٩٣ .

(٢) نفسه : ٩٣ .

(٣) نفسه : ١٤٢ .

(٤) المتنبي ، ديوانه : ٣٧٢ .

(٥) ديوان الملك الأمجد بهرام شاه : ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

ولا طلبتُ وقد أودى السهاد بنا
فالبیت الأول وعجز البيت الذي يليه، يكونان مطلع قصيدة لأبي
العلاء المعري^(١):

يا ساهرَ البرقِ أيقظ راقداً السمّرُ
وفي قوله^(٢):

ولي دمعٌ يخبرٌ عن ضميري
فهذا تضمين لقول أبي العلاء المعري^(٣):

يُعَبِّرُ سَيْفُهُ لَفْظَ الْمَنَايَا
ويضمن بيتاً آخر لأبي العلاء في قوله^(٤):

أبكي ولم أدرِ من حُزْنٍ ومن وَلَهٍ
ولأبي العلاء المعري^(٥):

أبكتُ تلکمُ الحمامة أم غـ
وينتزع الأمد بيته التالي^(٦):

تنصاعُ من خوفِ السَّيَّاطِ كأنما
من قول المتنبي^(١):

(١) المعري ، أحمد بن عبد الله (ت ٤٤٩ هـ) ، سقط الزند ، شرحه : أحمد شمس الدين ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م : ٣٦ .

(٢) الملك الأمجد بهرام شاه ، ديوانه : ١٣٠ .

(٣) المعري ، سقط الزند : ٥٣ .

(٤) الملك الأمجد ، ديوانه : ١٢٣ .

(٥) المعري ، سقط الزند : ١٩٦ .

(٦) الملك الأمجد ، ديوانه : ٩١ .

تُجاذِبُ فُرْسَانَ الصَّبَاحِ أَعْنَةً
وَنَظَرَ الْأَمْجَدِ فِي بَيْتِهِ التَّالِي (٢):
وَأَيْنَ تِلْكَ الْقُدُودُ الْمَلْدُ مَائِسَةً
إِلَى قَوْلِ عَمْرِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ (٣):
هَيْفَاءُ، لَفَاءُ، مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا
وَقَارِئُ الْبَيْتِ التَّالِي لِلْأَمْجَدِ (٤):
أَبْرَقُ تَبْدَى أُمٌ وَمِیْضُ سَنَا ثَغْرِ
حَيْثُ اسْتَحْضَرَ قَوْلَ النَّابِغَةِ الذَّبْيَانِي (٥):
أَلْمَحَةُ مِنْ سَنَا بَرَقِ رَأْيٍ بَصْرِي،
بَلْ وَجْهٌ نَعْمٌ بَدَأَ، وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ
وَفِي قَوْلِ ثِقَةِ الْمَلِكِ الْحَسَنِ بْنِ أَبِي جَرَادَةَ (٦):
وَيَا رِيحَ الصَّبَا لَوْ خَبَّرْتَنِي
تَضْمِينَ لِقَوْلِ جَرِيرٍ (٧):
مَتَى كَانَ الْخِيَامُ بِذِي طُلُوحٍ
سُقِيتَ الْغَيْثَ أَيْتَهَا الْخِيَامُ

(١) المتنبي ، ديوانه : ٤٤٣ .

(٢) الملك الأمجد ، ديوانه : ٢٢٤ .

(٣) عمر بن أبي ربعة (ت ٧١١ هـ) ، ديوانه ، دار بيروت للطباعة والنشر ، لبنان ١٩٨٤ : ١٣٥ .

(٤) الملك الأمجد ، ديوانه : ١٤٧ .

(٥) النابغة الذبياني ، ديوانه ، تحقيق : كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٥ م : ٥٠ .

(٦) العماد الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) : ٢ / ٢١٣ .

(٧) جرير بن عطية (ت ١١٤ هـ) ، ديوانه ، دار صادر ، بيروت : ٤١٦ .

ومن الشعراء الذين استقوا معانيهم وألفاظهم بل وأوزانهم من شعراء سابقين محي الدين الشهرزوري ، الذي أنشأ قصيدة رثا فيها أبيه ومطلعها^(١):

ألموا بسفحي قاسيون فسلموا على جدث بادي السنا وترحموا
فقد اقتفى خطى أبي فراس الحمداني في قصيدته التي ذكر فيها
أسر أبي العشائر، الحسين بن علي بن حمدان والتي مطلعها^(٢):
نفى النوم عن عيني خيال مسلم تأوَّب من أسماء والركب نومُ
فقد أنشأها على الوزن ذاته واستحضر معاني أبي فراس ذاتها في
بعض المواضع كقوله:

وقد كان من أقصى أمانيّ أني أجرعُ كاساتِ الحِمامِ ويسلمُ
سأنسى الورى الخنساء حزنا و حسرة ويخجل مني في البكاء متممُ
فهذا المعنى مستقى من قول أبي فراس:
وما ساءني أني مكانك عانياً وأسلم نفسي للإسار وتسلمُ
وما نحن إلا وائل ومهللُ صفاء، وإلا مالك ومتممُ
ولعل القاضي أبو المجد محمد بن عبد الله التنوخي نظر في بيته
التالي^(٣):

صدّ الهوى عني فواصلني الأسى وخفيتُ حتّى ما أبين من الضنا
إلى قول المتنبي^(٤):

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة (الشام) : ٢ / ٣٣٦ .

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، شرح وتقديم عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣م : ١٤٨ .

(٣) العماد الأصفهاني: الخريدة (الشام) : ٢ / ١٣ .

(٤) المتنبي ، ديوانه : ٧ .

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولًا أَنَّنِي رَجُلٌ لَوْلَا مَخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرْنِي
ومن الشعراء الذين تأثروا بالسابقين أسامة بن منقذ، ومن ذلك
قصيدته التي مطلعها^(١):

وَلَوْ، فَلَمَّا رَجَوْنَا عَدْلَهُمْ ظَلَمُوا فَلَيْتَهُمْ حَكَمُوا فِينَا بِمَا عَلَمُوا
وقد حاكى أسامة قصيدة المتنبي التي مطلعها^(٢):

وَأَحْرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمْ وَمِنْ بَجْسَمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمٌ
وقد جاء توظيف أسامة لهذه القصيدة في موضوع العتاب
والشكوى فأسامة يعاتب معين الدين أنر بعد نفيه من دمشق، والمتنبي
يعاتب سيف الدولة على تنكره له ، ولم يقتصر التأثر بتوظيف الشاعر
للموضوع فقط ، إنما تجاوز ذلك ليشمل كثير من التراكيب اللغوية
الواردة في قصيدة المتنبي ، ففي قوله:

وَمَا ضَنْتُكَ تَنْسَى حَقَّ مَعْرِفَتِي إِنَّ الْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ النُّهَى ذِمٌّ
وهذا قريب من قول المتنبي:

وَبَيْنَمَا لَوْ رَعَيْتُمْ ذَاكَ مَعْرِفَةً إِنَّ الْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ النُّهَى ذِمٌّ

لم يقصر تأثر شعراء الأسر بالسابقين ، بل استحضروا آيات
قرآنية، وأحاديث نبوية عملوا على توظيفها في نصوصهم الشعرية ،
ولعل ذلك يعود إلى تأثر الشعراء بظروف العصر وصراع العقائد بفعل
الحروب الصليبية.

(١) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ٩٠ .

(٢) المتنبي ، ديوانه : ٣٣١ .

وقد تأثر ابن العديم بالقرآن الكريم في مرثيته لحلب، فاستدعى الخطاب القرآني للتعبير ووصف هول ما حدث لحلب والذي يشبه يوم القيامة ففي قوله^(١):

وقد سيرت تلك الجبال وسجرت بهنّ بحار الموت والجو أقتم
وقد عطلت تلك العشار وأذهلت مراضع عما أرضعت وهي هيم
تأثر بقوله تعالى : " وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ، وَإِذَا الْعُشَارُ عُطِّلَتْ ،
وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ، وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ، وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ،
وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ " (٢).

وكذلك قوله تعالى : " يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ
وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ
عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ " (٣).

والمقام الذي تأثر فيه الشاعر بالآية ، ينسجم تماماً مع الخطاب القرآني، فالشاعر يشكو اليوم الذي جاء فيه التتار إلى حلب ، وقد فعلوا العجائب بأهلها ونسائها، وكل ما فيها، حتى وكأن ذلك اليوم الذي حلّ به الدمار بحلب يوم القيامة.

وقد تأثر عبد الرحمن بن عمر بن العديم أيضاً بالخطاب القرآني في قوله^(٤):

أيها النور الذي يجلو الغسق وجهك هذا قمر اذا اتسق

(١) العيني ، عقد الجمان: ٢٤٠.

(٢) سورة التكوير ، آية : ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ .

(٣) سورة الحج، آية : ٢.

(٤) اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ٣ / ٣١٧.

عيناك تدنو دنو من وفق نحو غلام وكتاب وطبق
استحضر قوله تعالى : " فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ، وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ،
وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ، لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ " (١) .
وتأثر النعمان بن وادع المعري في قوله (٢) :

بليت يدي وكتابهـا يبلي ولكن يعد حين
وكذاك يهلك كل شيء وغير رب العالمين
بقوله تعالى : " كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ
وَالْإِكْرَامِ " (٣) .

ومن الملاحظ أن الشاعر وظف الآية الكريمة في سياق منسجم
تماماً مع الموضوع حسب السياق الذي قيلت فيه وهو تأكيد حتمية
الموت.

وفي أبيات أخرى للنعمان بن وادع المعري ، نجد أن الشاعر لجأ
إلى الاقتباس المباشر دون أي تعديل في قوله (٤) :

عبدك يا ذا العرش فالطف به يا خير من أبلى ومن عافى
من فقراء قد غنوا عفةً لا يسألون الناس إحافاً
خاف فلا يرجوك إلا امرؤ أمته عدلك إذ خافاً

فالشطر الثاني من البيت الثاني ، هو اقتباس مباشر من قوله تعالى :
" لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ

(١) سورة الانشقاق ، آية ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٦٢ / ١٣٥ .

(٣) سورة الرحمن ، آية : ٢٦ ، ٢٧ .

(٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق : ٦٢ / ١٣٦ .

يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ
إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ^(١).

وتأثر الملك الناصر داود بالنص القرآني في قوله^(٢):

ولهُ الجوّاري كالمشمو س مخدرات في القصور

يرفلن في حلل الدمقـس في أفانين الحرير

والشاعر في الأبيات السابقة تأثر بقوله تعالى : " حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ
فِي الْخِيَامِ"^(٣).

ووظف بعض شعراء الأسر الأحاديث النبوية في شعرهم على نحو

ما نجد عند أسامة بن منقذ في قوله^(٤):

يا ربَّ حُسْنُ رَجَائِي فِيكَ حُسْنٌ لِي تَضِييعٌ وَقْتِي فِي لَهْوٍ وَفِي لَعِبٍ

وَأَنْتَ قُلْتَ لِمَنْ أَضْحَى عَلَى ثِقَةٍ بِحَسَنِ عَفْوِكَ: إِنِّي عِنْدَ ظَنِّكَ بِي

ففي الأبيات السابقة وتأثر بقول الرسول صلى الله عليه وسلم في

الحديث القدسي يقول الله عز وجل : " أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ

حِينَ يَذْكُرُنِي إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأْ

ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأْ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا

وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً"^(٥).

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٣.

(٢) الناصر داود ، ديوانه : ٢٠٩.

(٣) سورة الرحمن ، آية ٧٣.

(٤) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ٣٢٦.

(٥) مسلم ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ) ، بشرح الإمام النووي ، مناهل

العرفان ، بيروت : ١٧ / ٣٥٢.

وضمن إطار التأثر بالقديم استفاد الشعراء من الأمثال وقد جاء
توظيفها في شعر الأسر على غير ما صورة منها : أن يلجأ الشاعر إلى
الاقتباس المباشر للمثل العربي دون أي تبديل ، على نحو ما نجد عند
الملك الأمجد بهرام شاه^(١) :

يحدوه فضلُ جزالةٍ وطلاوةٍ فيه (وكلُّ الصيد في جوف الفراء)

استحضر المثل العربي القائل (وكلُّ الصيِّد في جوف الفراء)^(٢) ،
للتعبير عن التفضيل فهو يُضرب لمن يُفضِّل على أقرانه .
وفي قول الأمجد^(٣) :

أمسيتُ (أشعبَ) في إثثارِ وصلكمُ وواعدُ الوصلِ منكم وهو (عرقوب)

ويلحظ في البيت السابق أن الشاعر استحضر المثل (أطمع من
أشعب)^(٤) ، للتعبير عن حبه وإيثاره للأحبة و (أشعب) اسم رجل كان
طماعاً ، واستحضر (عرقوب) وهو رجل يضرب به المثل في الخلف
فقالوا مواعيد عرقوب .

وقد يلجأ الشاعر إلى استيحاء المثل العربي محوراً إيّاه في سياق
شعره فلا يبق منه إلا دلالته على نحو ما نجده في شعر أسامة بن
منقذ^(٥) .

(١) الملك الأمجد بهرام شاه ، ديوانه : ٢٨١ .

(٢) الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد ، مجمع الأمثال ، تحقيق : محمد أبو

الفضل إبراهيم ، مكتبة الإيمان ، ١٩٧٨ : ١١/٣ .

(٣) الملك الأمجد بهرام شاه ، ديوانه : ٢٧٧ .

(٤) الميداني ، مجمع الأمثال : ٢ / ٣٠١ .

(٥) أسامة بن منقذ ، ديوانه : ١٢٢ .

وأخافُ أن البينَ يُقْذِي ناظِرِي بفراقه، وما أومضت أشْفارُهُ
ظَنًّا سرَى الإشفاقُ في ترجيمه ولربّما أرْدَى الشفيقَ حَذَارُهُ

حيث استحضر الشاعر المثل العربي : (من مأمّنه يؤتى الحذر) ^(١).

(١) الميداني ، مجمع الأمثال: ٣ / ٣٢٩.

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة " شعر الأسر الشّاميّة ، زمن الحروب الصليبيّة، دراسة موضوعيّة وفنيّة " فوفقت عند أشهر الأسر الشّاميّة التي شهّرت بقول الشعر في العصر المذكور ، وبيّنت الدراسة الدور البارز لهذه الأسر في التّاريخ والسياسة ، ورصد الحركة الفكرية والأدبية في بلاد الشّام.

وظهرت خلال هذه الدراسة أهم القضايا العامّة في شعر الأسر، وكان شعر الجهاد في مقدّمة هذه القضايا ، إذ عبّر الشعراء عن مواقفهم اتجاه الحروب الصليبيّة ، فسجّلوا الأحداث الكبرى ، ومجّدوا الانتصارات ، وتغنّوا بالبطولات ، وحثّوا على تحرير البلاد المحتلّة ، وطرّد الغزاة منها، ولعل مايسترعي النظر في هذا الغرض أنّ شعراء الأسر الذين طرّقوا هذا الغرض كانوا قلة اقتصرّت على أسامة بن منقذ ، وبعض الملوك الشعراء من بني أيّوب ، في حين غابت أصوات باقي الأسر عن هذا الغرض.

وأبرزت هذه الدراسة صورة المدينة المحتلّة من خلال شعر رثاء المدن ، وهي صورة مأسوية لمدن منكوبة حلّ بها الدمار والخراب والمآسي التي طالت كل بيت ، وهزّت كل قلب ، وشتت كل شمل ، وغدت البلاد المنكوبة أطلالاً لا ترى فيها غير مسارب الوحش ، والرياح السوافي ، وأثار الدّموع ، والأحزان.

و نقل لنا شعر الأسر جوانب من المشاعر الدينيّة والمواقف الاعتقاديّة التي تميّزت بها الأسرة الشّهزوريّة. كما نقل لنا شعر الأسر بأسلوب انتقاديّ مقطوعات شعريّة عبّرت عن قضايا هامّة في المجتمع

في العصر المذكور شمل فئات عليا للدولة كشؤون الحكم والقضاء ، واحتكار أموال الدولة بسبب الفساد.

أمّا الاتجاه الخاص فقد غلبت موضوعاته بما تتضمنه من تعبير عن الهموم الذاتية ومشاعر خاصة في شعر الأسر على قصائدهم وفاقّت ظهور القضايا العامة.

كما عرضت الدراسة لأبرز الموضوعات الخاصّة التي عالجها الشعّر وما تميزت به كل أسرة من هذه الأغراض ، فتميّز بنو منقذ بالإخوانيات ، والغربة والحنين ، وتميّز المعريون بالشعّر التأمليّ ، وتميّز بنو أبي جرادة بالإخوانيات والفخر ، في حين غلب الغزل على الملوك الشعراء من بني أيّوب.

وبيّنت الدراسة على المستوى الفنيّ اتصال الشعراء بالموروث القديم ، سواء أكان ذلك في بناء القصيدة أم في صورها ولغتها وأساليبها، كما بيّنت أهم المصادر التي استقى منها شعراء الأسر صورهم الشعريّة.

وكشفت الدراسة الفنيّة عن بعض الزخارف البديعيّة التي استخدمها شعراء الأسر فعرضوا لنا نماذج يقرأ كل بيت منها من آخره إلى أوّله ، كما يقرأ من أوّله إلى آخره . كما وقف شعراء الأسر عند مظاهر الصنعة اللفظية فاستخدموا التجنيس ، والمطابقة ، والتطريز ، والتصدير ، وغيرها من الفنون الزخرفية .

أمّا اللّغة الشعريّة التي استخدمها شعراء الأسر فلم تكن على مستوى واحد ، فقد تباينت لغتهم الشعريّة بصورة واضحة، ولوحظ أن جانبا من الشعر مال إلى الجزالة والرّصانة والقوة في التعبير ، في حين أثر بعض

الشّعراء جانب الرقة والعذوبة ، ولوحظ أيضا أن بعض الشعراء قد مال إلى السهولة التي اقتربت بشعره من اللغة العامية . إضافة إلى استخدام بعض شعراء الأسر للألفاظ الأعجمية حتى وصل الأمر ببعضهم إلى نظم الشطر الأول من البيت الشعري بالفارسية.

ومما هو جدير بالذكر أن بعض شعراء الأسر الشامية من أمثال الملك الناصر داود في شعره التصوفي ، يستحق دراسة مستقلة توفيه حقه في الدراسة والعرض والتحليل .

وبذلك حاولت هذه الدراسة أن تغطي قدر الامكان ظاهرة الأدب عند الأسر الشامية في القرنين السادس والسابع عرضا ودراسة وتحليلا ولا تدّعي صاحببتها أنها احاطت بكل شيء ولكن سعت قدر استطاعتها أن تضمن ما وصلت إليه بين دفتي هذا الكتاب .

المصادر والمراجع

المخطوطات

- ابن الشعار الموصليّ، المبارك بن أحمد (ت ٦٥٤هـ) ، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان ، إصدار فؤاد سزكين ، معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية ، جامعة فرانكفورت ، ١٩٩٠م.

المصادر

- القرآن الكريم .
- ابن الأثير ، ضياء الدين الجزريّ (ت ٦٣٧هـ) ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، قدّم له ، أحمد الحوفي ، بدوي طبانة ، ط ١ ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٢م .
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن الكرم (ت ٦٣٠هـ) :-
 - أ- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق : عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ومكتبة المثني ، بغداد ، ١٩٣٢م .
 - ب- الكامل في التاريخ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩م .
 - ج- اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- الأزدي، علي بن ظافر (ت ٦١٣هـ) ، بدائع البدائيه، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ) :
 - أ- الاعتبار ، تحقيق : فيليب حتي ، مطبعة جامعة برنستون ، ١٩٣٠م .

- ب- البديع في البديع في نقد الشعر، تحقيق : عبدآ علي مهنا ، ط ١ ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧م .
- ج- ديوانه، تحقيق : أحمد أحمد بدوي ، وحامد عبد المجيد ، ط ٢ ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٣م .
- د- لباب الآداب ، تحقيق : أحمد شاكر ، ط ١ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩١م .
- هـ- المنازل والديار، تحقيق : مصطفى حجازي ، ط ٢ ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ١٩٩٢م .
- الأسنوي، جمال الدين عبد الرحيم (ت ٧٧٢هـ)، طبقات الشافعية، ط ١، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م.
- ابن إياس الحنفيّ ، محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ) ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق : محمد مصطفى ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٨٢م .
- البنداري، قوام الدين الفتح بن علي (٥٩٧هـ)، سنا البرق الشامي، اختصار من كتاب البرق الشامي للعماد الأصفهاني ، تحقيق : فتحية النبراوي ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٧٩م.
- تاج الملوك بوري (ت ٥٧٩هـ)، ديوانه، تحقيق محمد عبد الحميد سالم ، هجر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٨م .
- ابن تغري بردي، جمال الدّين أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ) :
أ- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق : محمد أمين، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ، ١٩٨٤م .

ب- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدّم له : محمد

حسين شمس الدين ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،

١٩٩٢م .

- تقي الدين التميمي، عبد القادر (ت ١٠٠٥هـ)، الطبقات السنيّة في

تراجم الحنفية، تحقيق : عبد الفتّاح محمد الحلو ، ط ١، دار

الرفاعي للنشر ، الرياض ، ١٩٨٣م .

- تقي الدين، عمر بن شاهنشاه الأيوبي (ت ٥٨٧هـ)، مضمار

الحقائق وسر الخلائق، تحقيق : حسن حبشي ، عالم الكتب ،

القاهرة، ١٩٦٨م .

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، الحيوان،

تحقيق: عبد السلام هارون ، ط ٢ ، مصر ، ١٩٦٥م .

- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت ٤٧١هـ)،

دلائل الاعجاز في علم المعاني، صححه : محمد عبده ، ومحمد

الشنقيطي وعلق حواشيه ، محمد رشيد رضا ، مكتبة القاهرة ،

١٩٦١م ، طبعة دار المعرفة ، بيروت - لبنان ، ١٩٩٤م .

- الجرجاني، القاضي علي بن عبد العزيز (ت ٣٩٢هـ)، الوساطة

بين المتنبي وخصومة، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم علي

محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٤٥م

- حازم القرطاجني، أبو الحسن حازم (ت ٦٨٤هـ)، منهاج البلغاء

وسراج الأدباء، تحقيق : محمد بن عبد المنعم العريان ، ط ٣، دار

إحياء العلوم ، بيروت ، ١٩٨٧م

- ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أحمد (ت ٨٥٢هـ) :
- أ- الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق : علي محمد البجاوي ،
دار النهضة ، مصر ، القاهرة .
- ب- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق : محمد سيد
جاد الحق ، ط ٢ ، دار الكتب ، مصر ، ١٩٦٦م .
- الحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت ٨٧٦ هـ)، شفاء القلوب في مناقب
بين أيوب، تحقيق: ناظم رشيد ، وزارة الثقافة والفنون العراقية ،
١٩٧٨م .
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي
(ت ٨٠٨ هـ)، تاريخ ابن خلدون، مؤسسة جمال للطباعة والنشر
، بيروت ، ١٩٧٩م .
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر
(ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان
عبّاس ، بيروت ، دار صادر ، (مج ١ ط ١٩٦٨ ، مج ٢ ط
١٩٦٩م، مج ٣ ط ١٩٧٠ ، مج ٤ ط ١٩٧١ ، مج ٥ ط ١٩٧٧) .
- ابن دقمان (ت ٨٠٩ هـ) ، الجواهر الثمين في سير الملوك
والسلاطين، تحقيق: محمد كمال علي ، ط ١ ، عالم الكتب ، بيروت،
١٩٨٥م .
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ) :
- أ- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عبد
السلام تدمري ، ط ١، دار الكتاب العربي ، بيروت ،
١٩٩٤م .

ب- تهذيب سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٩١ م .

ج- العبر في خبر من غير، تحقيق: أبو هاجر زغلول ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٥ م .

- ابن رشيقي القيرواني ، الإمام أبي علي الحسن (ت ٤٥٦هـ) ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق : محمد قرقرزان ، ط ١ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٨ م .

- سبط بن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف (ت ٦٥٤هـ) ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، الدكن ، الهند .

- السبكي، أبو نصر تاج الدين عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ) ، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق : عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي ، ط ١ ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩١٨ م .

- السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت ٥٦٢هـ) ، الأنساب :

أ- ج ٣ تحقيق : عبد الرحمن بن يحيى اليماني ، الناشر محمد

أمين، بيروت - لبنان ، شركة الفجر العربي ، ط ٢ ، ١٩٨٠ .

ب- ج ٧ تحقيق : محمد عوامة ، ط ١ ، شركة الفجر العربي ، بيروت - لبنان ، ١٩٧٦ م .

- أبو شامة المقدسي ، شهاب الدين عبد الرحمن (ت ٦٦٥ هـ) :

أ- تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، المعروف بالذيل

على الروضتين ، غني بنشره ، عزت الحسيني ، دار الجيل،

بيروت ، ١٩٧٤ م .

ب- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ،

تحقيق : إبراهيم الزبيق ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ،

١٩٩٧م .

- ابن شدّاد ، بهاء الدّين يوسف (ت ٦٣٢ هـ) ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيّة ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٩م .

- ابن شدّاد، عزّ الدّين محمد بن علي (ت ٦٨٤ هـ)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشّام والجزيرة ، تحقيق : يحيى عبّارة ، ط ١ ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٨٨م .

- الصّابوني ، جمال الدّين أبو حامد (ت ٦٨٠ هـ)، تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب، ط ١ ، عالم الكتب ، بيروت، ١٩٨٦م .

- الصفدي ، صلاح الدّين خليل بن أيّيك (ت ٧٦٤ هـ) :
• جنان الجناس في علم البديع، ط ١ ، مطبعة الجوانب ، القسطنطينية ، ١٩٨١م .

• الوافي بالوفيات :

أ- الجزء الأول ، باعتناء هلموت رينز ، فرانز شتاينز ، فيسباون ، ١٩٦٢م .

ب- الجزء الثالث ، باعتناء س . ديدرينغ ، فرانز شتاينز ، فيسبان ، ١٩٧٤م .

ج- الجزء الرابع، باعتناء س. ديدرينغ ، فرانز شتاينز ، فيسباون ، ١٩٧٤م .

د- الجزء الخامس، باعتناء س. ديدرينغ ، ١٩٧٠م .

هـ- الجزء السادس، باعتناء س. ديدرينغ ، ١٩٨٢م .

- و- الجزء التاسع، باعتناء يوسف فان إس ، ١٩٨٢م .
- ز- الجزء العاشر، باعتناء جاكليين سوبله ، ١٩٩١م .
- ح- الجزء الثاني عشر، باعتناء رمضان عبد التوَّاب ، ١٩٨٥م .
- ط- الجزء الخامس عشر، باعتناء بيرند راتكه ، ١٩٩١م .
- ي- الجزء السادس عشر، باعتناء وداد القاضي ، ١٩٩١م .
- ك- الجزء السابع عشر، باعتناء دورويناكرا فولسكي ، ١٩٩١م .
- ل- الجزء الثامن عشر، باعتناء أيمن فؤاد سيد ، ١٩٩١م .
- طلائع بن رُزَيْك، أبو الغارات (ت ٥٥٦هـ-)، ديوانه، جمعه أحمد بدوي ، ١٩٥٨م .
- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت ٦٦١ هـ):
أ- الإنصاف والتحري، في كتاب " تعريف القدماء بأبي العلاء ، جمع وتحقيق : مصطفى السقا وآخرون ، ط ٣ ، دار الكتب العلمية ، مصر ، ١٩٨٦م .
- ب- بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق : سهيل زكار ، دمشق ، ١٩٨٨م .
- ج- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق : سامي الدّهان ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، ١٩٦٨م .
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي (ت ٥٧١هـ) :
- أ- تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق : محب الدين أبي سعيد العمراوي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٥م .

ب- تهذيب تاريخ دمشق، هذّبه عبد القادر بدران ، ط ٢ ، دار
التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩م .

- عماد الدّين الأصفهاني، محمد بن محمد (ت ٥٩٧ هـ) :

أ- البرق الشّامي (ج ٣)، تحقيق : مصطفى الحيارى ، ط ١ ،
مؤسسة عبد الحميد شومان ، الأردن ، ١٩٨٧م .

ب- البرق الشّامي (ج ٥)، تحقيق : فالح حسين ، ط ١ ، عمان،
الأردن ، ١٩٨٧م .

ج- خريدة القصر وجريدة العصر:

♦ بداية قسم شعراء الشام، شعراء دمشق والشعراء الأمراء
من بني أيّوب ، عني بتحقيقه: شكري فيصل، المطبعة
الهاشمية، دمشق، ١٩٦٨م .

♦ قسم شعراء الشام، تحقيق : شكري فيصل ، ط ١ ، مطبعة
الهاشمية ، دمشق ، ١٩٥٥م .

♦ قسم شعراء العراق، تحقيق : محمد بهجة الأثري ، وزارة
الإعلام العراقية ، ١٩٦٤م .

- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩ هـ)، شذرات
الذهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

- عمر بن أبي ربيعة (ت ٧١١م)، ديوانه، دار صادر ، بيروت ،
١٩٩٢م .

- ابن العميد، جرجس بن العميد (ت ٦٧٢ هـ)، أخبار الأيوبيين ، مكتبة
الثقافة الدينية ، بور سعيد ، مصر .

- العيني، بدر الدين محمود (ت ٨٥٥هـ)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق : محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة، ١٩٨٧م .
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢ هـ)، تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر، تحقيق : محمد ديوب ، ط ١ ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ١٩٩٧م .
- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ)، تاريخ ابن الفرات، تحقيق: حسن محمد الشماع ، دار الطباعة الحديثة، العراق ، البصرة ، ١٩٧٠م .
- أبو فراس الحمداني (ت ٣٥٧ هـ)، ديوانه، شرحه ، وقدم له عباس عبد الساتر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣م .
- ابن الفوطي، أبو الفضل عبد الرزاق (ت ٧٢٣هـ)، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائرة السابعة، تحقيق : مصطفى جواد ، المكتبة العربية ، بغداد ، ١٣٥١هـ .
- قاسم بن قطلوبغا الحنفي، زين الدين قاسم (ت ٨٧٩ هـ)، تاج التراجم في من صنف من الحنفية، عنى بتحقيقه : إبراهيم صالح ، ط ١ ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، ١٩٩٢م .
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، الشعر والشعراء، تحقيق: محمد بن عبد المنعم العريان ، ط ٣ ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ١٩٨٧م .
- القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٧٣٩ هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، قدّم له وبوّبه ، علي أبو ملحم ، ط ٢ ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩١م .

- القشيري، عبد الكريم بن هوزان أبو القاسم (ت ٤٦٥ هـ) ،
الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق : معروف زريق ، علي
عبد الحميد بلطجي ، ط ٢ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٠ م .
- القلقشندي، أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١ هـ) :
أ- صبحي الأعشى في صناعة الإنشاء، علق عليه : محمد حسين
شمس الدين ، ط ١ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٧ م .
ب- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق : إبراهيم
الأبياري ، ط ٢ ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب
اللبناني ، بيروت ، ١٩٨١ م .
- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد (ت ٥٥٥ هـ)،
ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٩٠٨ م .
- الكتبي، أبو عبد الله محمد بن شاكر بن أحمد (ت ٧٦٤ هـ) :
أ- عيون التواريخ، تحقيق : فيصل السّامر ، نبيلة داود ، وزارة
الثقافة والإعلام العراقية ، بغداد ، ١٩٧٧ م .
ب- فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس ، دار
صادر ، بيروت ، ١٩٧٣ م .
- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ (ت ٧٧٤ هـ)، البداية والنهاية، دقّق
أصوله وحقّقه : أحمد أبو ملّحم وآخرون ، ط ٣ ، دار الكتب العلمية ،
بيروت .
- المتنبّي، أحمد بن الحسين (ت ٣٥٤ هـ) ، ديوانه ، دار بيروت
للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٥ م .

- محي الدين القرشي، (ت ٧٧٥ هـ)، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ط٢، هجر، مصر، ١٩٩٣م.
- ابن المستوفي، شرف الدين أبي البركات المبارك بن أحمد (ت ٦٣٧ هـ)، تاريخ إربل المسمى نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأمثال، تحقيق: سامي الصفار، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، العراق، ١٩٨٠م.
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١ هـ)، صحيح مسلم بشرح الامام النووي، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، ١٣٤٩، الجزء السابع عشر.
- ابن المعتز، عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦ هـ)، البيدع، ط٣، عني بنشره: إغناطيوس، كراتشكوا فكسي، دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٢م.
- المعري، أحمد بن عبد الله (ت ٤٤٩ هـ)، سقط الزند، شرحه: أحمد شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.
- المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد (ت ٨٤٥ هـ):
- أ- اتعاظ الحنفاء، تحقيق: محمد حلمي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر.
- ب- المواعظ والاعتبار بذكر الخط والآثار المعروف بالخط المقرئ، تحقيق: محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مذبولي، القاهرة، ١٩٩٨م.

ج- السلوك لمعرفة دول الملوك، وضع حواشيه محمد مصطفى ، ط ٢ ، لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .

د- المقفى الكبير، تحقيق : محمد اليعلاوي ، ط ١ ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ١٩٩١ م .

- الملك الأمجد، مجد الدين بهرام شاه الأيوبي (ت ٦٢٨ هـ —) ، ديوانه، تحقيق : ناظم رشيد ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، بغداد ، ١٩٨٣ م .

- الملك الناصر ، داود بن المعظم عيسى (ت ٦٥٦ هـ —) ، ديوانه المسمى الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية ، تحقيق : عبد الحسين الخضر ، ط ١ ، مطبعة عكرمة ، دمشق ، ١٩٩٦ م .

- المنذري ، زكيّ الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القويّ (ت ٦٥٦ هـ —) ، التكملة لوفيات النقلة ، تحقيق : بشّار عواد معروف ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- ابن منظور ، محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري (ت ٧١١ هـ) :

• لسان العرب ، طبعة جديدة اعتنى بتصحيحها : أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق ، ط ٢ ، دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٧ م .

• مختصر تاريخ دمشق ، لابن عساكر ، دار الفكر ، دمشق :

أ- الجزء السابع ، تحقيق : أحمد راتب وآخرون ، ط ١ ، ١٩٨٥ م .

ب- الجزء الثالث عشر ، تحقيق : سكيّنة الشهابي ، ط ١ ، ١٩٨٩ م .

ج- الجزء الثالث والعشرون، تحقيق : إبراهيم صالح ،
١٩٨٨م.

د- الجزء الرابع والعشرون، تحقيق : إبراهيم صالح ،
١٩٨٩م.

- الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن محمد (٥١٨هـ -) ، مُجمع
الأمثال ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة الإيمان ، ١٩٨٧م

- النابغة الذبياني ، زياد بن معاوية ، ديوانه ، تحقيق : كرم البستاني ،
دار صادق ، بيروت ، ١٩٩٥م .

- أبو هلال العسكري ، الحسن بن عبد الله بن سهيل العسكري
(ت ٣٩٥هـ) ، كتاب الصناعتين ، الكتابة والشعر ، تحقيق : مفيد
قميحة ، ط ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٤م .

- ابن واصل ، محمد بن سالم (ت ٦٦٧ هـ) ، مُفرج الكروب في
أخبار بني أيوب :

أ- الجزء الاول ، قدّم له : جمال الدين الشيال ، القاهرة ،
١٩٥٣م .

ب- الجزء الثاني ، قدّم له : جمال الدين الشيال ، الاسكندرية ،
١٩٥٧م .

ج- الجزء الثالث، تحقيق : جمال الدين الشيال ، الاسكندرية ،
١٩٦٠م .

د- الجزء الرابع ، حققه : حسنين محمد ربيع ، راجعه وقدّم له
سعيد عاشور ، مركز تحقيق التراث ، مصر .

- ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد (ت ٧٤٩هـ)، تاريخ ابن الوردي ، ط ١ ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ١٩٩٦م .
- ابن وكيع التنسي، الحسن بن علي (ت ٣٩٣ هـ) ، المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره، قرأه وقدم له : محمد رضوان الداية ، دار قتيبة ، دمشق ، ١٩٨١م .
- ياقوت الحموي ، شهاب الدّين أبي عبد الله (ت ٦٢٦ هـ) :
 أ- معجم البلدان ، ط ٢ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٥م .
 ب- معجم الأدباء (ج ٢، ج ٣)، تحقيق إحسان عبّاس ، ط ١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٣م .
 ج- معجم الأدباء (ج ٤)، دار الكتب العلميّة ، ط ١ ، بيروت .
- الياضي، محمد بن عبد الله بن سعد بن علي (ت ٧٦٨ هـ) ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه خليل منصور ، ط ١ ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٧م .
- اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى (ت ٧٢٦ هـ) ، ذيل مرآة الزمان ، حيدر آباد ، الهند :
- أ- الجزء الأول، ط ١ ، حيدر آباد ، الدكن ، ١٩٥٤م .
 ب- الجزء الثاني، ط ١ ، ١٩٥٥م .
 ج- الجزء الثالث ، حيدر آباد ، الهند ، ١٩٦٠م .

قائمة المراجع

- إحسان عباس ، شذرات من كتب مفقودة ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٨٨ م.
- أحمد بدوي ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، ط ٢ ، دار النهضة، مصر ، القاهرة ، ١٩٧٩ م.
- أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ط ٧ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦ م.
- أحمد قدرى الكيلاني ، أسامة بن منقذ سيرة حياته، كتب مقدمته عبد الرزاق ، ط ١ ، المطبعة العلميّة، دمشق، ١٩٩٧ م.
- أحمد الهيب ، الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب الشهباء ، ط ١ ، مكتبة المعلا ، الكويت ، ١٩٨٧ م.
- أمين عودة ، تجليات الشعر الصوفي ، ط ١ ، دار فارس ، عمان ، ٢٠٠١ م.
- بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ط ٣ ، دار الآفاق الجديدة، بيروت ، ١٩٨٠ م.
- بهية فهد رسلان، الشعر في إمارة شيزر أيام بني منقذ، رسالة دكتوراة مخطوطة ، جامعة القديس يوسف ، بيروت ، ١٩٩٥ م.
- جابر عصفور ، الصورة في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٣ م.
- جمال الدين الألوسي ، أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية ، مطبعة أسعد ، بغداد ، ١٩٦٧ م.

- ابن سباط الغزي، حمزة بن احمد (ت ٩٢٦ هـ)، تاريخ ابن سباط
المعروف بصدق الأخبار، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط ١،
جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٣م.
- ستيفن ريمان، تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية الباز
العريني، دار الثقافة، بيروت ١٩٩٧م.
- شاكِر مصطفى، موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، دار العلم
للملايين، بيروت
- الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط ٨، دار العلم للملايين، ١٩٨٩م.
- شفيق الرقب، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس
الهجري، ط ١، دار صفاء للطباعة والنشر، عمّان، ١٩٩٣م.
- صادق جودة، القضاة الشـهـروزيون، ط ١، دار البشير، عمان
١٩٨٦م.
- عادل جابر، شعر ابن القيسراني، ط ١، الوكالة العربية، الزرقاء،
١٩٩١م.
- عبد الجليل حسن عبد المهدي:
- أ- بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ط ٢، دار البشير،
عمّان، ١٩٩٥م.
- ب- الحياة الأدبية في الشّام في القرن الخامس الهجري، ط ١،
مكتبة الأقصى، عمّان، ١٩٧٧م.
- عبد اللطيف حمزة، أدب الحروب الصليبية، ط ٢، دار الفكر العربي
١٩٨٤م.
- عبد القادر الرّباعي، الصورة الفنيّة في شعر أبي تمام، ط ٢، جامعة
اليرموك، الأردن، ١٩٩٩م.

- علي الجارم، البلاغة الواضحة، ط ١٧، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٩م.
- فوزري محمد أمين، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول (٦٤٨-٧٨٤هـ)، دار المعارف، ١٩٨٢م.
- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ط ٢، ترجمة يعقوب بكر ورمضان عبد التّوّاب، دار المعارف، بيروت.
- مأمون فريز جرار:
- أ- أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٣م.
- ب- الغزو المغولي أحداث وأشعار، ط ١، دار البشير، عمان، ١٩٨٤م.
- ماهر كنعاني، شعراء الواحدة، ط ٢، مطبعة النقاء، بغداد، ١٩٨٥م.
- مجموعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلامية، أصدرها باللغة العربية: أحمد الشنتاوي وآخرون، دار الفكر، (بلا تاريخ).
- محمد راغب الطباخ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، صححه: محمد كمال، ط ٢، دار القلم العربي، ج ٤، حلب، ١٩٨٩م.
- محمد عدنان قيطاز، أسامة بن منقذ والجديد من آثاره وأشعاره، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٨م.
- محمد كامل حسين، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٧م.
- محمود عبد الله أحمد أبو الخير، الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين، رسالة دكتوراة مخطوطة، القاهرة، ١٩٧٩م.

- مفلح الحويطات، شعر الهجاء في مصر والشّام زمن الحروب الصليبيّة، جامعة مؤتة ، ١٩٩٩م.
- الموسوعة الشّامية في تاريخ الحروب الصليبيّة، تحقيق : سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٥م.
- محمد بن علي الهرفي، شعراء الجهاد في الحروب الصليبيّة في بلاد الشّام، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط٣ ، ١٩٨٠.
- يسري عبد الغني عبد الله، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، ط١ ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ١٩٩٧م.
- هنرييت سابا، اتجاهات الشعر العربي في القرن السابع الهجري في بلاد الشّام، رسالة دكتوراه مخطوطة ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٠م.

الدّوريات:

- جمال الدين الشّيال، شاعر من البيت الأيوبي يموت في سن الشباب، مجلة الثقافة المصرية ، العدد ١٣٠، حزيران ، ١٩٤١م.
- زينب محمد صبري، الصورة الفنية في الشعر العربي خلال العهد العثماني، مجلة الأحمدية ، العدد التاسع ، رمضان ٢٠٠١م.
- شفيق الرقب:

أ- ظاهرة الحزن في شعر أسامة بن منقذ، مجلّة دراسات ، العلوم الإنسانية والاجتماعية ، مج٢٤ ، ع٢ ، الجامعة الأردنية ، ١٩٩٧م.

ب- شعر الهجاء في بلاد الشّام زمن الحروب الصليبيّة، مجلة مجمع اللغة العربية ، العدد ٥٥.

ج- صورة المدينة المحتلة في الشعر الشامي زمن الحروب

الصليبيّة، مجلة المنارة، جامعة آل البيت ، مج ٦، العدد الاول،

آيلول ، ٢٠٠٠م.

- ناظم رشيد، الأدب عند بني أيّوب، مجلة المورد، تصدرها وزارة

الإعلام في الجمهورية العراقية ، مج ١ ، ع ٣، خريف ١٩٧٦م.